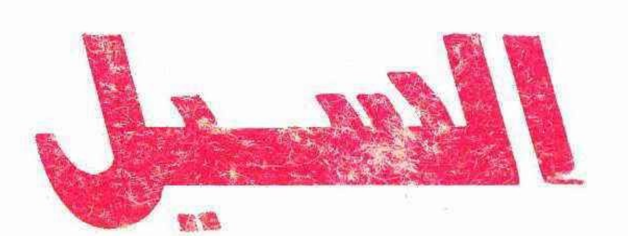
الكسندر سيرافيموفيتش



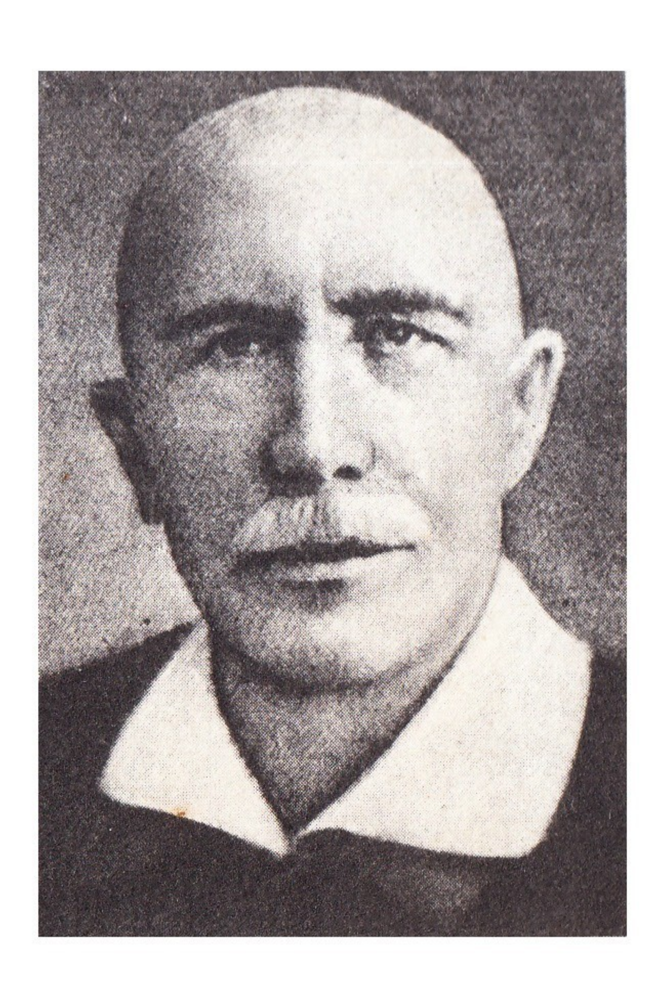



السيل الحديدي

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي





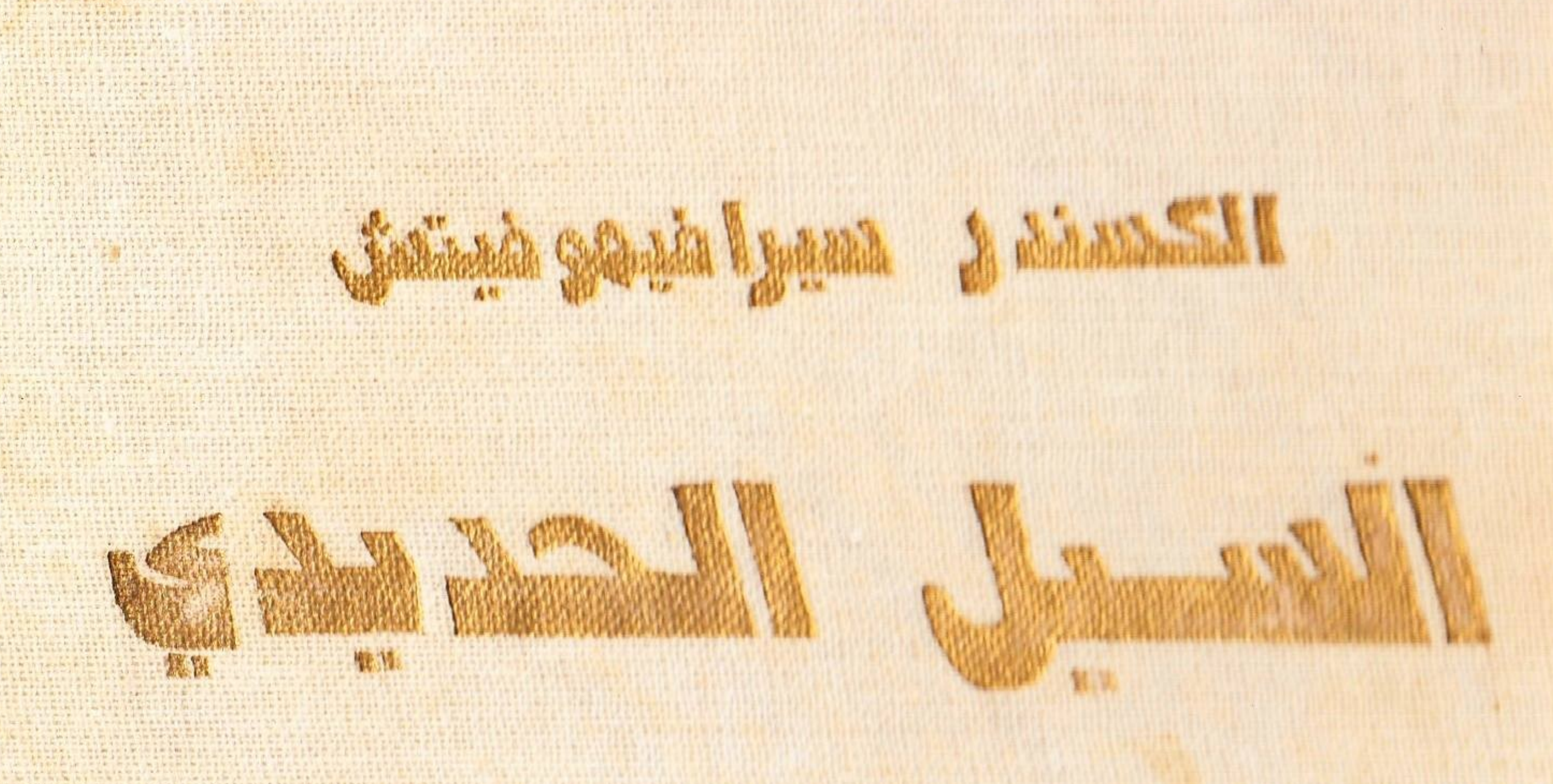
«ينبغي ان نطالب الاديب قبل كل شيء، ان يكون صادقاً لا يهاب الحياة، بل وأن يستمد منها كل ما تحتويه من أحداث...»

في «السيل الحديدي» قليل من التخيل وكثير من صور الأحداث الحقيقية كما وقعت...».

«...لقد وضعت نصب عيني مهمة تقديم حقيقة واقعية. لكن ليس حقيقة فوتوغرافية بالطبع، انما حقيقة جمالية...».

أ. سيرافيموفيتش

ISBN 5-05-000082-3


الكسندر سيرافيموفيتش
السيل الحديدي





الكسندر سيرافيموفيتش

السيل الحديدي

رواية



دار «رادوغا»
فرع طشقند، ١٩٨٥

ترجمة سعدي المالح

А. СЕРАФИМОВИЧ

ЖЕЛЕЗНЫЙ ПОТОК

Роман

На арабском языке

С $\frac{4702010300-395}{031(05)-85}$ 070—85

طبع في الاتحاد السوفييتي

ISBN 5—05—000082—3

الفصل الأول

غرقت بساتين الستانيتسا*، وشوارعها، وبيوتها، وسياجاتها المصنوعة من الصفصاف، مختنقة بسحب كبيرة من غبار كثيف. ولم يبق شيء ظاهر للعيان غير الهامات المخروطية لأشجار الحور.

وتدفقت، من جميع الاتجاهات، أصوات مختلفة: عويل أطفال، نباح كلاب، صهيل خيل، ضجيج سلاسل، شتائم غليظة، صياح نساء، غناء مبحوح، لكنه جسور، تصاحبه موسيقى مترنحة تعزف على هارمونيكا، وكأن خلية نحل كبيرة، لا نظير لها، فقدت ملكتها، وراحت تطن، بأصوات متنافرة، طنيناً موجعاً، خارجاً عن المألوف.

فغطى هذا السديم القائظ، اللامحدود، السهب حتى طواحين الهواء على الكورغان**. وغدت المنطقة، بأكملها، تعج بآلاف من أصوات كائنات هذا العالم.

الا ان هذه السحب الخانقة لم تستطع أن تكبل النهر المزبد، الجياش بمياه جبلية باردة، الجارى وراء الستانيتسا، وبعيداً عن النهر، كانت الجبال تحجب، بلونها الضارب الى الزرقة، وبضخامتها، نصف السماء.

وتطير الحدآن الشقر السهبية دهشة، وكأنها تسبح في وهج الشمس اللامع، مصيخة السمع، مديرة مناقيرها المعقوفة،

---

*قرية قوزاق كبيرة – **المترجم.**

تل – **المترجم.

غير قادرة على ادراك شيء، اذ لم يسبق لها أن صادفت مثل هذا المشهد.

ان كان هذا سوقاً دورياً، فلماذا ليس ثمة خيم، ولا تجار، ولا بضاعة مكدسة؟

وان كان مخيماً للنازحين، فمن أين لهم مدافع، وصناديق ذخيرة، وعربات ذوات العجلتين، وبنادق؟

أما اذا كانت قطعات عسكرية، فلم يتواصل بكاء الأطفال من كل مكان، وتنشر الاقمطة على البنادق، وتتأرجح المهود بين المدافع، وترضع الأمهات الشابات صغارهن، وتقف الأبقار الى جانب خيول المدفعية معتلفة الجشيش، بينما تعلق النساء والفتيات الملفحات بالشمس قدوراً تحوي جريش الدخن والشحم فوق نار الخثي الداخنة الفواحة.

كل شيء غامض، مبهم، معفر بالتراب، صاخب، اختلط اوله باخره. ليس هناك في الستانيتسا غير الأطفال، والقوزاقيات، عجائز ونساء، فكأن الأرض انشقت، بغتة، وابتلعت جميع الرجال. واطلت اولئك القوزاقيات برؤوسهن، من نوافذ البيوت، وأخذن يرشقن، بنظرات مزدرية، هذه المصيبة، التى امطرها الرب ههنا، كما على سدم وعمورة، فراحت تعوم في الشوارع والازقة المغطاة بسحابات كبيرة كثيفة من الغبار:

– لتعمى عيونكم!

الفصل الثاني

يميز السامع، من بين خوار الأبقار، وصياح الديكة، وكلام الناس، أصواتاً تتناهى اليه، حيناً مبحوحة تتلاعب بها الريح، وحيناً قوية ينقلها السهب مسموعة عالية.

– الى الاجتماع يا رفاق!

– الى الاجتماع!

– انتم يا أولاد.. تجمعوا!..

– هيا.. تجمعوا!

– مكان الاجتماع عند الطواحين!..

مع نزوح الشمس نحو المغيب رويداً رويداً، يشرع الغبار الحار بالهبوط تدريجياً نحو الأرض، فتتكشف أشجار الحور الباسقة ذات الهامات المخروطية بكل ارتفاعها.

وعلى امتداد البصر، ترامت البساتين مزهرة نضرة، ولاحت البيوت بلون أبيض، بينما عجت الشوارع والازقة كلها، من بداياتها وحتى نهاياتها، بخيول وأبقار وعربات مختلفة الأنواع، منها بعجلتين ومنها بأربع عجلات، متناثرة في البساتين، والى ما وراءها، حتى طواحين الهواء المنتصبة على الكورغان السهبي، الباسطة اجنحتها الغشائية الطويلة في جميع الجهات.

كان سيل الناس يتدفق اكثر فأكثر، بجلبة وضوضاء متزايدتين، صاباً في الحشود المتجمعة حول الطواحين، مشكلا بحراً لا حدود له، تغرق فيه بقع الوجوه البرونزية – كانت كل السيول القادمة تضيع في الحشد العظيم من الجنود: الشيوخ بلحاهم البيضاء، النساء بوجوههن المضنية، الفتيات بعيونهن المرحة، الأطفال المتراكضين هنا وهناك بين الارجل. وكان الجنود يعتمرون باباخات شعثة مخيفة، وسدارات قديمة مدعوكة، وقبعات لبادية جبلية متهدلة الأطراف، ويرتدون قمصاناً عسكرية ممزقة، أو اخرى، حائلة اللون، من الشيت، وستراً قوزاقية طويلة، بلا اردان، ذات جيوب خاصة بالخراطيش، فيما البعض الاخر منهم عراة حتى الاحزمة، تصالبت على أجسادهم البرونزية، مفتولة العضلات، شرائط الرشاشات، وفوق رؤوسهم حراب سوداء لامعة، موجهة كيفما اتفق، في جميع الاتجاهات. أما الطواحين التي منحتها الشيخوخة لوناً ضاربا الى السواد فكانت ترنو اليهم دهشة: فما من مرة، في حياتها، كانت شاهدة على حدث كهذا!

اجتمع العقداء، وامراء السرايا والفصائل، ورؤساء الأركان، قرب الطواحين، على الكورغان. فمن هم هؤلاء؟

لقد خدم البعض منهم في الجيش القيصري، وترقى في المراتب حتى أصبح ضابطاً. فيما كان البعض الآخر حلاقاً، أو سمكرياً أو نجاراً، أو بحاراً، أو صياداً، إما في المدينة او في القرية – لكن جميع هؤلاء، الآونة، هم، قادة الفصائل الحمراء الصغيرة، التي نظموها في شوارعهم، في ستانيتساهم، في قراهم، في بلدتهم،

وبعض ثالث كان كادراً عسكرياً من اؤلئك الضباط الذين التحقوا بركب الثورة.

ارتقى قائد الفوج فوروبيوف، بشاربيه الطويلين جداً، وجسمه العضل، الضخم، عارضة التدوير، وصدح صوته الجهوري في الحشد:

– ايها الرفاق!

كم هو ضعيف هذا الصوت امام هذه الآلاف المؤلفة من الوجوه البرونزية، والعيون المتطلعة.

احتشد بالقرب منه بقية قادة الافواج والسرايا والفصائل.

– ايها الرفاق!

– لتذهب الى الشيطان!

– فليسقط!..

– رح الى!..

– لا داعي...

– أي قائد هذا، كذا من امه!

– أو لم يكن يسير متبختراً بكتافين عسكريين من كتافات الجيش القيصري؟

– لقد رماها منذ زمن...

– لماذا تنبح؟

– اقتله، ابن العاهرة!

ونبتت فوق بحر الناس العريض غابة من الايادي. واختلطت الصرخات بعضها ببعض، لدرجة اصبح من المتعذر معرفة مصدر كل صرخة وغايتها.

انتصب رجل قصير القامة، ذو فكين قويين، مرصوص البنية، كأنما جبلت من رصاص، عند الطاحونة، تلتمع من تحت حاجبيه المحفوفين، مثل مخرزين، عينان رماديتان صغيرتان، لا تتركان شيئاً دون أن تمسحاه بنظرهما، ويمتد ظله قصيراً.

أما عند العارضة، فقد كان الخطيب، ذو الشاربين الطويلين جداً، قد اضنى نفسه صراخا بصوته الجهوري:

– مهلكم يا ناس، اسمعوني! لا بد من مناقشة الوضع...

– لتذهب الى امك العاهرة!

وغرق الخطيب في موجة من الصخب والشتائم دفعة واحدة.

وارتفعت من وسط بحر الأصوات وانتصبت وسط غابة الأيادي يد ضامرة، طويلة، ملوحة بالشمس، متخشنة بالعمل والتعب، يد هزيلة لامرأة رافقها صوت منهك يقول:

– ولا نريد أن نسمع. اسكت! يا جيفة بغل... كنت املك بقرة، وزوجين من الثيران، وبيتاً، وسماورا. ماذا املك الآن؟

عصف الغضب، من جديد، فوق الحشد، وراح كل يصرخ بما يريد، غير مصغ للخطيب:

– لو تسنى لي الحصاد، لكان عندي الآن حبوب.

– قالوا، علينا أن نشق طريقنا صوب روستوف.

لماذا لم يسلمونا قمصاناً عسكرية؟ لا لفائف الأرجل ولا جزماً؟

بينما الخطيب يصرخ من على العارضة:

– لماذا، اذن، تبعتمونا اذا كنتم...

انفجر الحشد:

– جئنا بطلب منكم، يا أوغاد، لقد ضيعتم آمالنا، لقد خدعتمونا بالانجرار وراءكم! كنا نحتمي بديارنا، وكانت لنا مزارع. اما الآن، فلم يبق لنا من مأوى، واصبحنا نتسكع في البراري.

– بالطبع، خدعتمونا... – دوت أصوات الجنود، وهم يململون حراب بنادقهم المدلهمة.

– الى اين نعطي صدورنا الآن؟

– الى يكاترينادار*.

– هناك يعسكر الكاديت**.

– اذن ليس ثمة من مكان آخر يمكن التوجه اليه...

---

*هكذا كانت تسمى مدينة كراسنودار الحالية حتى عام ١٩٢٠ – **المترجم.**

** كان جنود الجيش الاحمر يطلقون هذا الاسم على جميع افراد «الحرس الابيض» المعادين للثورة. والكاديت أصلا هم طلاب الكلية الحربية في روسيا القيصرية، واعضاء الحزب الديمقراطي الدستوري الذي وقف في صف اعداء ثورة اكتوبر – **المترجم.**

كان الرجل، ذو الفكين القويين، يقف عند الطاحونة، مدققاً النظر، بعينيه الرماديتين الحادتين كمخزرين.

فصدح، عندئذ، صوت يائس، هائل القوة، فوق الحشد.

– خا ااا نو!

لقد بلغ هذا الصوت أطراف الحشد جميعا. اما الذين لم يتناه الصوت اليهم جيداً ربما، فانهم حدسوا مغزاه، وعرفوا مقصده، في خضم ضجيج العربات بأنواعها المختلفة، والمهود، والخيول، والثيران، وصناديق الذخيرة.

اصاب الحشد تشنجاً، وغدا الجو خانقاً. زمجر صوت نساني هستيري، ذو وقع مؤثر. لكنه ليس لامرأة، بل لجندي قصير يشبه أنفه منقار طير. كان الجندي عارياً حتى الحزام، يرتدي جزمة كبيرة ليست من مقاسه:

– يبيعوننا مثل ماشية وشكت تنفق!..

وراح شاب، يعتمر قبعة جنود البحرية، أطول الجميع في الحشد شبراً، يشق طريقه صوب الطاحونة، بصمت، دافعاً بمرفقيه من يصادفه من الناس دون ان يرفع عينيه عن شلة قادة الفصائل والسرايا، شاداً قبضته بحنق على بندقيته اللامعة. كان هذا الشاب ذا وجه نادر الوسامة، وشاربين خفيفين نبتا للتو، وقد تدلى من قبعته، حول عنقه الملوحة بالشمس، الى الوراء، شريطان من الحرير.

«... كفاكم!»

كان الرجل ذو الفكين القويين، يكز على أسنانه بشدة، وهو يراقب قادة الفصائل والسرايا، مصوباً نحوهم سهام عينيه ثم رشق بحر الناس الهادر من أوله حتى آخره، بنظرة متضايقة: افواه صارخة بحدة، وجوه حمر قانية، وعيون متوقدة بحقد من تحت الحواجب.

«اين الزوجة؟..»

أصبح الشاب المعتمر قبعة جنود البحرية، التى يتدلي منها شريطان حريريان متراقصين نحو الخلف، قريباً من فوروبيوف. يشد قبضته على بندقيته كسابق عهد، رافعاً نظره، كأنه يخشى اختفاء شيء عن نظره، دافعا بمنكبيه الحشد الذى يضيق عليه، ويترنح في جميع الجهات، مطلقاً الصرخات، محدثاً صخباً.

أحس الرجل ذو الفكين القويين بمرارة خاصة: لقد قاتل معهم على الجبهة التركية جنباً الى جنب، بالرشاش، بحر من الدماء... آلاف القتلى... وفي الاشهر الاخيرة خاضوا معارك مشتركة ضد الكاديت والقوزاق والجنرالات، في ييسك، تيمريوك، تامان وقرى الكوبان...

وحرك فكيه القويين، وقال بصوت ناعم ثابت، لكنه رغم الصخب والضجيج كان مسموعاً في كل مكان:

– أنتم يا رفاق تعرفونني تمام المعرفة، اذ سفكت دماؤنا سوية. ولقد انتخبتموني انتم قائداً. أما الان، ومادام الأمر قد سار على هذا النحو، وغدت حياتنا جميعاً مهددة بالهلاك، فقد أغار القوزاق والكاديت علينا من جميع الجهات. لايجوز اذن اضاعة ساعة واحدة هباء.

كان الرجل يتحدث بلهجة اوكرانية، وهذا ما ساعده على الظفر بمشاعر الناس.

– ألم تكن تحمل كتافيات؟ – صرخ الجندي الصغير، العاري حتى الحزام، بصوت ثاقب.

– وهل ركضت بنفسي أنا بحثاً وراء تلك الكتافيات؟ انتم تعرفون جيداً. انني كنت مقاتلا في الجبهة فعلق المسؤلون تلك الكتافيات على كتفي. فهل ذلك يعني اني لم اعد واحداً منكم؟ ألم أتحمل مثلكم الفقر والجوع والعمل مثل الجاموس؟ واحرث الارض كما حرثتموها، وازرعها مثلما زرعتموها؟..

– الحقيقة لا تخفى، – دوت الأصوات صاخبة، – أنت واحد منا!

في هذه الاثناء، انتزع الشاب الطويل، المعتمر قبعة جنود البحرية، والمرتدي قميصهم أيضاً، نفسه من بين حشود الناس، وسرعان ما صار، بوثبتين متعجلتين، الى جانب الرجل ذي الفكين القويين، وبالصمت ذاته، والنظر المرفوع المصوب نفسه، لوح بحربة بندقيته، بكل ما اوتي له من قوة، فأصاب أخمصها أحد الجنود من الوراء. لم يحاول الرجل ذو الفكين القويين أن يحيد عن موقفه قيد أنملة، غير ان تشنجاً أشبه بابتسامة ارتسم، لحظة ما، على ملامح وجهه المصفر.

ضرب الجندي القصير، العاري حتى الحزام، مديراً رأسه من طرف، مثل ثور، بكتفه مرفق البحار:

- كفاك!

فانحرفت حربة بندقية البحار، وتوجهت لتصيب قائد كتيبة شاب كان يقف بجانبه، وتنغرز في بطنه حتى قبضتها، فتأوه قائد الكتيبة الشاب، بدلا من الرجل ذي الفكين القويين، واطلق زفيراً قوياً، فكأن بخاراً راح ينفث من فمه، وسقط من فوره على الارض. فحاول البحار الطويل انتزاع نصل حربته المستقر في عمود القتيل الفقري بغيظ محتدم.

وتشبث احد أمراء السرايا بجناح الطاحونة، وتسلق الى أعلى خائفاً. وكان آمر السرية هذا حليق الشاربين، ذا وجه شبيه بما بنت.

دار جناح الطاحونة، وهبط نحو الارض محدثاً صريراً، فوقع آمر السرية على الارض من جديد. استل امراء السرايا والفصائل الباقون، خلا الرجل ذا الفكين القويين، مسدساتهم، وجثم الضيق على وجوههم المشوهة الشاحبة.

اندفع عدد آخر من الرجال المسلحين عبر الحشد، قاصداً الطاحونة. كان الرجال المسلحون فاتحين عيونهم على وسعها بشكل غريب مدهش، ضاغطين بأكفهم على البنادق بعصبية:

- لا تستحق الكلاب الا ميتة الكلاب!

- اقتلوهم! ولا تبقوا رجلا منهم على قيد الحياة، حتى لا يتكاثرون!

ران صمت. وفجأة تحولت الرؤوس كلها في اتجاه واحد، وصوبت الانظار جميعها نحو هدف واحد.

لاح في السهب حصان قادماً من بعيد، منبسطا حتى الجذامة، يعدو سريعاً، وعلى صهوته فارس بقميص مخطط، انحنى بصدره وأمال رأسه على عرف الحصان، واطلق يديه الرخيتين الى الجانبين. اقترب الحصان الجامح أكثر فأكثر، وقد بدا انه اندفع في عدوه بكل قوته، مطلقاً قوائمه للريح، مخلفاً وراءه غباراً كثيفاً، وقد غمرت صدره ندف بيضاء من الزبد، كندف الثلج،

وغطت رغوة من العرق جنبيه، بينما اطرق الفارس رأسه المترنح مع ايقاع الوثبات على عرف الحصان.

بسط الظلام عباءته على السهب من جديد.

وانطلقت حناجر هاتفة في الحشد:

– هو ذا فارس ثان!

– انظروا كيف يعدو...

واذ وصل الحصان مخرخراً، ومسقطا من على جسده ندفاً صغيرة بيضاء، استقر امام الحشد مباشرة، واقعى على قائمتيه الخلفيتين، دار الفارس، المرتدي قميصاً مقلماً حول رقبة الحصان منقلباً، وهوى على الارض، مثل كيس ثقيل، ناشراً يديه، ومثنياً رأسه على نحو غير طبيعي.

تحلق البعض حول الفارس، والبعض الآخر حول الحصان وقد شب، فيما كانت جنباه السوداوان محمرتين لزجتين.

– هذا اوخريم! – صرخ الراكضون نحو الفارس الذي هوى ساقطا على الارض دون حراك، وهم يعدلونه ويصلحون من وضعه. كان ثمة جرح قاطع، مدمى، على كتفه وصدره، وبقعة سوداء من الدم الخاثر، على ظهره.

واذا بموجة من اضطراب وقلق لا قرار لها، تجتاح قلوب جميع الناس في الحشد، حول الطواحين، بين العربات، وفي الشوارع و الازقة:

– لقد قطع القوزاق جسد اوخريم بالسيوف!..

– أوي.. يا للمصيبة!

– أي أوخريم؟

– هه... هل جننت؟ ألا تعرفه! انه من اهالي قرية بافلوفسكايا، بيته يقع على الجرف...

وصل الفارس الثاني ممتطياً جواده، وقد تلطخ كل شيء فيه – وجهه، جسده، قميصه المبلل بالعرق، يداه، قدماه الحافيتان، وسرواله – ببقع من الدم.. دمه او دم الغير؟ وكانت عيناه مستديرتين. فوثب، فور وصوله، من على صهوة جواده المترنح، واندفع صوب الفارس الأول، المطروح على الأرض، والذي أخذت

صفرة الشمع الشفافة تكسو وجهه بلا مرد. فيما الذباب يتجمع حول عينيه.

– أوخريم!

وما لبث أن جثا على يديه وقدميه، ووضع اذنه على صدر اوخريم المتدفق دماً، بعد ذلك سرعان ما هب واقفاً فوقه، مطأطئاً رأسه:

– ولدي.. يا ولدي!

– أسلم روحه، – رد الواقفون حوله بهمهمة متمالكة.

مكث الفارس الثاني واقفاً برهة اخرى، ثم وعلى حين غرة، صرخ بصوت أجش، مصاب بالبرد تماما، تناهى رجعه بين العربات، وحتى آخر البيوت:

– لقد اعلنت ستانيتسا سلافيانسكايا العصيان، وكذلك بولتافسكايا، وبيتروفسكايا، وستيبليفسكايا. المشانق تنصب الآن في كل ستانيتسا، أمام الكنائس مباشرة. انهم يشنقون الجميع، كل من يقع بأيديهم، على التوالي. وما أن صار الكاديت في ستيبليفسكايا حتى راحوا يقطعون الرؤوس بالسيوف، يشنقون الناس، يطلقون النار عليهم، ويدفعون بهم مع خيولهم في نهر كوبان. أما بالنسبة للنازحين الى كوبان من مدن اخرى، فالمعاملة قاسية وجائرة، لا رحمة فيها، وتشمل العجائز منهم أيضاً. يقول الكاديت، ان كل هؤلاء بلاشفة. هل تعرفون العجوز اوباناس، حارس البستان، الذي يقع بيته حذاء بيت يافدوخيا بيريبيريتشيتسا..

– بالطبع.. بالطبع.. – دوت همهمة قصيرة.

– ...هذا العجوز رجاهم أن يرأفوا به، وركع على ركبتيه امامهم طالباً الرحمة، لكنهم لم يأبهوا به، وشنقوه.. لديهم الكثير من الأسلحة. وان نساءهم وأطفالهم يحفرون، ليل نهار، في الحدائق البيتية والبساتين، بحثاً عن البنادق والرشاشات المخبأة في بطن الارض، وهم يخرجون أيضاً صناديق مليئة بالقذائف والرصاص من جوف كداديس القش – كل ما سبق ان غنموه على الجبهة التركية بلا حساب. كما بحوزتهم مدافع أيضاً، لقد جن جنونهم. ان منطقه كوبان تحترق برمتها، فهم يعذبون اخوتنا، من الجيش، تعذيباً قاسياً، واخوتنا المشنوقون يتدلون من الأشجار في كل مكان. ثمة

فصائل عسكرية، في مناطق مختلفة، تشق طريقها اما صوب يكاترينادار، او نحو البحر، أو بأتجاه روستوف، لكن رقاب جميع هؤلاء الجنود تقع الآن تحت سيف الموت.

وواصل الفارس الثاني الوقوف فوق الميت مطأطئاً رأسه.

كانت العيون كلها تحدق فيه مفعمة بصمت عميق.

ثم حاول القبض على لجام الحصان، فلم تبلغه يداه، فتمايل مترنحاً، ثم تمكن من ذلك، وأخذ يعتلي صهوة الحصان، الذي كان، كالسابق، يتصبب عرقاً على جنبيه، فيما ارتجف منخراه المدميان من تنفسه السريع.

- الى اين؟ هل اصابك مس من جنون؟

- قف! الى اين؟ عد ادراجك!..

- اوقفوه!..

وترامى وقع حوافر الخيل في السهب مبتعداً. رفع الفارس سوطه عالياً، وهوى به بعنف على الحصان، الذي اسنف عنقه العرق مستكيناً، ونكس اذنيه، وراح يجري خبباً، بينما ظلال طواحين الهواء تميل وتطول متتبعة اثره خلال السهب كله.

- لن يرجع حياً.. انتهى امره..

- هنالك ترك عائلته.. وها ابنه يرقد ميتاً هنا.

فتح الرجل ذو الفكين القويين فمه، فأندلقت منه كلمات بطيئة ثقلية.

- هل رأيتم؟

أجابت أصوات شجية:

- لسنا عشياً.

- هل سمعتم؟

جاءه الجواب، مقروناً بالشجن نفسه:

- لسنا صماً.

وعاد الفكان القويان يطحنان الكلام بصوت ثابت:

- ليس أمامنا، ايها الرفاق، من مجال للتراجع. فالموت يلاحقنا من أمام ومن وراء. اما هؤلاء - وأومأ برأسه لبيوت القوزاق المتوردة، للبساتين التي لا حصر لها، لأشجار الحور الكبيرة التي كانت ظلالها متطاولة منحنية - فمن المحتمل ان يهاجمونا هذه الليلة،

ويقتلونا. وليس لدينا في هذا الوضع لا حرس، لا دورية، ولا من يدبر امورنا القيادية. لئن كان لا بد من التراجع، فالى أين؟ في البدء، يجب اعادة تنظيم الجيش، وانتخاب القادة والأمراء، على ان يتم الانتخاب مرة واحدة وحسب. بعد ذلك سيغدو هؤلاء القادة والأمراء، هم الذين يقررون مصيرنا، في الموت والحياة – النظام الحديدي وحده هو الذي يضمن لنا النجاة. وعندما نخرج من الحصار شاقين طريقنا صوب قوانا الرئيسة، فسوف يمدون لنا يد العون من روسيا. هل توافقون؟

– نوافق! – عصفت أصوات حميمة في السهب، بين العربات، وفي الشوارع والأزقة، بين البساتين، وفي الستانيتسا كلها، حتى آخرها، حتى ضفة النهر.

– حسناً، ليتم الانتخاب الآن. فور ذلك نعيد تشكيل الوحدات، ونفصل وحدات التموين عن الوحدات المقاتلة، ونوزع القادة عليها.

– موافقون! – صدحت الأصوات العاصفة بالفة حميمية، من جديد، في السهب المصفر المترامي الأطراف.

كان رجل وقور ملتح يقف في الصفوف الامامية، غطى صوته الغليظ، المبحوح قليلا، جميع الأصوات الاخرى دون أن يبذل صاحبه عناء يلحظ في تقويته :

– الى اين نذهب؟ ماذا فقدنا هناك؟.. ان نترك كل شيء – مزارعنا وماشيتنا – تخريب وهدر ليس الا.

انشق الحشد، وكأن حجراً سقط من السماء على رؤوس الواقفين فيه. ثم تململ الناس، وتصاعد ضجيج بينهم، وهم يتحلقون حول الرجل.

– الا تقل الى اين تريدنا انت أن نذهب؟ تريدنا ان نعود من حيث جئنا؟ لكي يقتلنا القوزاق جميعاً؟

– لماذا نقتل، ما دمنا نذهب بأنفسنا، ونسلم أسلحتنا. انهم ليسوا ضواري متوحشة. ها ان خمسين شخصاً من أهالي قرية ماركوشنسكايا سلموا أنفسهم. ولقد سلموا أيضاً كل ما كان في حوزتهم من اسلحة وبنادق ورصاص، فلم يمسهم القوزاق بأذى قيد شعرة، وما زال، اولئك الأشخاص، يعملون، ويحرثون فی أراضيهم.

– اولئك الأشخاص، الذين تتحدث عنهم، هم من الكولاك.

تعالت أصوات شبيهة بطنين، وقد عام هذا الطنين فوق الرؤوس والوجوه الغارقة في بحر من هيجان.

– الافضل لك ان تأكل الخراء.. وتسكت!

– سوف يشنقوننا قبل أن تصدر منا كلمة.

– من أجل من تريدنا أن نحرث الأرض؟ – تعالت أصوات النساء الرفيعة. – من أجل القوزاق والضباط من جديد؟

– عند من تريدنا ان نصبح عبيداً؟

– هل نبقى نتجرع المآسي تحت لسعات سياط القوزاق؟ تحت نير الضباط والجنرالات!

– أغرب عن وجوهنا، ايها القذر، مادمت حياً للآن!

– اضربوه! انه خائن...

اما الرجل الوقور الملتحى، فقد عاد يقول:

– اسمعوني... ماذا حل بكم لتنبحوا هكذا مثل الكلاب؟

– ليس لديك ما يستحق السماع. بأختصار: انت رجل نصاب.

كانت الوجوه المتهيجة، المحتقنة دماً، تتلفت نحو بعضها البعض، والشرر يتطاير من عيونها، بينما ترتفع فوق الرؤوس قبضات مهددة. أكبر الظن ان افراداً من الحشد ضربوا شخصاً ما، او طردوه من بينهم شر طردة صوب الستانيتسا.

– ايها المواطنون، الزموا الصمت رجاء!

– كفاكم... الى اين تجرجروني! هل أنا حزمة من قمح تدرسونها درساً بالضرب؟

تحدث فيهم الرجل ذو الفكين القويين:

– يا رفاق، كفاكم هدراً للوقت. ينبغي أن تشرعوا بالعمل، ان تنتخبوا قائداً، وسوف يعين، هذا القائد المنتخب، بدوره المسئولين الباقين. من تنتخبون؟

ساد صمت عميق، اشبه بصمت الأموات، برهة قصيرة. لقد تجمد كل شيء: السهب، الستانيتسا، وحشود الناس التي لا حصر لها. بعد ذلك ارتفعت غابة من الايادي الخشنة، ودوى اسم واحد في كل مكان: في السهب من أوله وحتى أقصى نهاياته المترامية، في الستانيتسا والبساتين الكثيرة، وفي الجهة الاخرى من النهر:

– كوجوخ.

وتردد صدى الاسم فترة طويلة وراء الجبال الضارب لونها الى الزرقة.

– كوجوخ.

زم كوجوخ شفتيه، وأدى تحية عسكرية، فأهتزت عضلات وجنتيه، وخطا صوب الشهيدين رافعاً قبعته المصنوعة من القش، المتسخة، بكياسة ورهبة، فما لبث ان رفع الجميع، وبلمحة بصر، قبعاتهم، وغدت الرؤوس جميعها حاسرة، وصار يسمع نشيج النساء. وقف كوجوخ بالقرب من الشهيدين مطأطىء الرأس:

– لنأخذ جثماني الشهيدين الى مثواهما الاخير بتقدير واجلال هيا ارفعوهما...

فرشوا معطفين عسكريين. خطا الرجل الطويل، ذو الوجه الوسيم، المعتمر قبعة جنود البحرية التى تدلى شريطان منها، صوب آمر الكتيبة ببقعة الدم الكبيرة المتخثرة على قميصه العسكري، في منطقة الصدر، خطا صامتاً، وانحنى عليه فرفعه بتأن، كمن يخاف أن يؤذيه. رفعوا الشهيد اوخريم أيضاً، وحملوهما سوية.

انشق الناس فاتحين طريقاً امام الجنازتين، ثم سرعان ما التموا، وأخذوا يسيرون مثل سيل لا ينقطع جريانه، مكشوفي الرؤوس، يتبع كلا منهم ظل ممدود، طويل، تدوسه الأقدام.

رفع أحد الشباب صوتاً شجياً هادئاً بالغناء:

أنتم يا شهداء النضال العنيد

انضمت اليه أصوات اخرى، قبيحة وغير حاذقة، غير متوافقة مع بعضها، مخطئة في لفظ الكلمات، متباينة وغير متناسقة، تغني كيفما اتفق، الا ان جميعها كانت تهدر أقوى فاقوى:

وهبتم الحب وطنكم التليد...

انها أصوات غير متناسقة. احدهم يجر الكلمات طولا، وآخر عرضاً، لكن جميعها تصدح باغنية شجية واحدة مفرطة في الرقة.

وهذا الشجن المتخلل لحن وكلمات الاغنية يربط، على نحو غريب، كل الأشياء ببعضها: السهب المدلهم الغارق في تفكير، والطواحين القديمة المسودة، وأشجار الحور العالية، ذات الألوان المذهبة، والبيوت البيضاء، التي يمر الناس من أمامها، والبساتين اللاحصر لها حيث شقت الجنازتان دربا خلالها، وكأن كل شيء هنا كان قريباً وحبيباً وأليفاً الى قلوبهم، او تحسبهم ولدوا وعاشوا هنا، وعليهم ان يموتوا هنا أيضاً.

ولفت الجبال ظلال المساء الزرقاء الداكنة.

كانت غوربينا، تلك العجوز، التي سبق أن رفعت يدها الضامرة، الخشنة، بين غابة من الايادي، تمسح عينيها المحمرتين، الدامعتين، وتجاعيدها الطافحة بالغبار بطرف ثوبها المتسخ، وتتمتم متنشجة، وترسم علامة الصليب على صدرها باستمرار:

– ايها الرب القديس.. ايها الأله المؤمن... ايها الرب الخالد، ارحمنا... – وترفع طرف ثوبها المتسخ، بحزن عميق، الى أنفها.

يسير الجنود بألفة، موسعين الخطى، بوجوه صامتة، وحواجب مقطبة، فتتململ حراب بنادقهم السوداء صفوفاً متراصة.

وهبتم له كل غال وزهيد.

أخذ الغبار الساكن في المساء، يرتفع، من جديد، سحابات تلبد السماء وتغطى سطح الارض.

كل شيء يغرق في الغبار والظلام، بينما يطرق وقع اقدام الجنود الهادر مسامع الحشد.

ايها الاله المؤمن، ايها الرب الخالد
تحملتم عذاب سجن رطب ومنفى بعيد

بدأت الجبال المعتمة، في سكون الليل، تحجب النجوم المبكرة الخافتة.

وها هي الصلبان. بعضها سقط، وبعضها انحرف ومال في غير اتجاه، وهذه البرية التي نبتت فيها شجيرات صغيرة تمتد مساحات شاسعة. تطير بومة بهدوء، وتخفق خفافيش بأجنحتها صامتة. وتلوح، من بعيد، بين الفينة والفينة، أحجار المرمر بلون أبيض غير واضح، تظهر عليها كتابات مذهبة تلمع في عتمة الليل

– انها شواهد قبور أغنياء القوزاق وتجارهم، شواهد قبور الميسورين من الناس، ذوي المكانة البارزة الوطيدة في المجتمع. تسير الجموع فوق هذه القبور وهي تغني:

ينتفض الشعب من اجل يوم سعيد
تتهاوى عروش ويتحرر العبيد

حفروا قبرين بجانب هذه القبور. وفي الوقت نفسه صنعوا من ألواح خشب بيضاء، جديدة، تابوتين، وضعوا فيهما جثماني الشهيدين.

وقف كوجوخ على ربوة التراب المستخرج من القبرين للتو، حاسر الرأس:

– ايها الرفاق! اريد ان اقول... لقد استشهد لنا، اليوم، رفيقان.. أجل... ينبغي أن نقدرهما أجل تقدير ونحترم ذكراهما اعظم احترام... انهما استشهدا من اجلنا.. نعم أريد أن أقول... لماذا استشهدا؟ أريد ان اقول، يا رفاق، ان روسيا السوفييتية لم تمت، وستبقى خالدة الى الابد. اريد أن اقول، اننا، نحن هنا، ايها الرفاق، وقعنا في كماشة العدو، وهناك روسيا، موسكو. فروسيا ستنتصر يا رفاق، اريد ان أقول، ان في روسيا سلطة عمال وفلاحين... وبفضل ذلك سوف يتكلل نضالنا بالنصر. ان الكاديت، اريد ان أقول، والجنرالات والاقطاعيين والرأسماليين كلهم يهاجموننا. بأختصار: اريد ان اقول، ان جميع هؤلاء هم سراق قوت الشعب، وسفلة! لكننا، لن نسمح لهم... اولاد القحبة! سوف نريهم نجو... يا رفاق.. أ.. أ.. م.. م، أريد ان اقول، سندفن رفيقينا وسنقسم فوق قبريهما باننا سنذود عن السلطة السوفييتية...

انزلوا التابوتين في القبرين. وضعت غوربينا يدها على فمها وشرعت تنشج بهدوء. كان نشيجها يشبه أنين جرو، ثم ما لبثت أن انفجرت في البكاء. تلتها امرأة ثانية، وثالثة، وسرعان ما غاصت المقبرة بنحيب وأصوات النساء. كانت كل واحدة منهن تتدافع في محاولة للاقتراب من أحد القبرين وغرف قبضة تراب، ورميها فيه. كان التراب يتناثر بصمت.

شاور احدهم كوجوخ:

– كم اطلاقة؟

– اطلقوا اثنتي عشرة اطلاقة فقط.

– قليل.

– ليس لدينا من العتاد الا القليل، يتحتم علينا الاقتصاد وأن لا نطلق رصاصة زائدة عن اللزوم.

دوت اطلاقة ملعلعة. تبعتها ثانية، وثالثة.

بعد ان دوت الاطلاقة الثانية عشرة، وسكن كل شيء، شعر الجميع، بغتة، بوجود الليل، وبالصمت العميق، ورائحة الغبار الحار، وخرير مياه النهر، الذي كان يلاحق النعاس في عيون الناس أو الذكريات غير الواضحة المتسللة الى اذهانهم.

وكانت سلاسل الجبال تمتد، وراء النهر، سوداء قاتمة.

الفصل الثالث

تتفرس النوافذ الليلية السوداء في الظلام، وسكونها يخفي اسراراً مريبة.

ويتصاعد خيط دخان متمايل من فتيل سراج وضع على مقعد صغير. الغرفة معبأة بدخان سيكاير كثيف، وقد بسطت على أرضيتها خارطة كبيرة لمنطقة القفقاس، تشبه سجادة خيالية الألوان، مليئة بعدد لا يحصى من الاشارات والخطوط، وبقع خضراء وزرقاء ومنعطفات سوداء.

تزحف لجنة القيادة، على الربع، فوق هذه الخارطة، بحذر. وجميع أعضائها حفاة، يرتدون قمصاناً من غير أحزمة. البعض يدخن متحاشياً سقوط رماد سيكارته على الخارطة، والبعض الآخر يواصل الزحف فوقها بلا انقطاع. بينما يجلس كوجوخ القرفصاء، بفكين مطبقين، مواصلا التحديق في الخارطة، بعينيه الصغيرتين، حادتي البصر، وبوجه يلازمه العزم والهدوء. كل شيء في الغرفة يغرق في دخان السيكاير الرمادي.

يستحوذ خرير النهر المشحون بالخطر، الذي لا يعير له المرء انتباها في النهار على ظلمة النوافذ، دون ان يتوقف لحظة.

كان أعضاء لجنة القيادة يتبادلون الكلام، باحتراس، وبصوت خفيض أشبه بهمس، على الرغم من خلو البيت الذي كانوا يشغلونه، والبيوت المجاورة له، من الناس.

– سوف نهلك جميعاً. ها هنا لا ينفذ أمر قتالي واحد. ألا ترون بانفسكم؟..

– ليس في وسعك أن ترشد الجنود بأي طريقة.

– اذن، سيهلكون بكل خسة ودناءة. ذلك لأن القوزاق سيذبحونهم ذبحاً حتى آخر جندي.

– لن يخاف المرء النار الا بعد أن تحرق أصابعه.

– ما هذا الهراء، هاهي اصابعنا تكاد تحترق، ما دامت هذه النار ترفع ألسنتها مهددة، من جميع الجهات.

– اذن، اذهب، وأشرح لهم الأمر.

– أما أنا فأرى، انه لا بد من احتلال نوفوروسيسك، والتمركز فيها.

– لا يجوز التفكير بنوفوروسيسك قطعاً – قال احدهم. كان يرتدي قميصاً متمنطقاً، نظيفاً، حالقاً ذقنه حلاقة ناعمة – لقد وصلتني اخبار من الرفيق سكورنياك، تقول، ان تلك المنطقة أشبه بوحل يتعذر اجتيازه: يوجد في المدينة ألمان، واتراك، ومناشفة، وأشتراكيون ثوريون، وديموقراطيون دستوريون، عدا جماعتنا – اللجان الثورية. وجميع هؤلاء يعقدون اجتماعات عامة، يتناقشون بلا انقطاع، ينتقلون من اجتماع الى آخر، ويعدون آلافاً من خطط الانقاذ. كل هذا ليس الا دردشة من الفاضي والمليان. وان سوق جيشنا الى هناك يعني افساده نهائياً.

تناهى صوت اطلاقة مخترقاً خرير النهر الهادر بكل جلاء ووضوح. مع ان الصوت كان بعيداً، الا ان النوافذ الليلية اعلنت بسكونها وظلامها المخيف: «ها انها قد بدأت...»

كان جميعهم، يصيخون السمع، في اعماقهم، بتوتر شديد. اما في الظاهر، فكانوا يمصون اعقاب سيكائرهم، وينفثون دخانها من افواههم، فيحلق في سماء الغرفة حلقات كثيفة، ويواصلون تحريك اصابعهم على الخارطة المنبسطة، التي درست بعناية دراسة تامة.



لكن، مهما زحفت اصابعهم على الخارطة، لم يستنتج غير أمر واحد: في جهة اليسار يشتد البحر زرقة، ويقف حائلا أمامهم. في اليمين، وكذا صعوداً نحو الأعلى، يلوح عدد كبير من اسماء الستانيتسات والقرى المعادية. في الاسفل، نزولاً باتجاه الجنوب، تحاصر الطريق جبال مستحيلة الاجتياز، بألوانها المغراء والصفراء – وكأنهم قد وقعوا في الفخ.

ينيخ مخيمهم الكبير ها هنا، عند هذا النهر الأسود المتعرج، الذي ينطلق خريره صوب المخيم حثيثا، ويلج في النوافذ السوداء. أما الوديان الضيقة، ومنابت القصب، والغابات، والسهوب، والقرى، والستانيتسات، المؤشر على جميعها في الخارطة، هي أماكن تجمع القوزاق. وان كان قد تسنى، وبمشقة بالغة، اخماد نار الانتفاضات المشتعلة في بعض الستانيتسات والقرى على انفراد، فأن هذه النار دبت الآن في منطقة كوبان، المترامية الاطراف، برمتها، واطيح بالسلطة السوفييتية في كل مكان. ويقتل ممثلو هذه السلطة في القرى والستانيتسات، وتنصب لهم كثرة كاثرة من المشانق، مثلما وضعت الصلبان في المقبرة، وينحر البلاشفة نحراً، واكثريتهم من النازحين من المناطق الاخرى، ومع ذلك فهناك بلاشفة أيضاً بين القوزاق انفسهم. اولئك وهؤلاء، يواجهون مصيراً واحداً، ألا وهو التأرجح من المشانق. فالى اين، في هذه الحال، يوجهون الأدبار؟ اين الملاذ؟

– الامر واضح تمام الوضوح. اجتياز الطريق صوب تيخوريتسكايا، ومنها الى الصليب المقدس. ومن ثمت التوجه الى روسيا.

– يا للرأس المدبر! يطلب الينا التوجه صوب الصليب المقدس! كيف ستجتاز الطريق اليها عبر منطقة كوبان، الرافضة جميعها عصا الطاعة، وانت لا تملك ما يكفي لا من الرصاص ولا من القذائف؟

– قصدي أنا الالتحاق بقواتنا الرئيسية...

– اين هي، القوات الرئيسة هذه؟ هل أتاك رسول منها وابلغك بموقعها؟ اخبرنا، اذن.

– أرى ان نحتل مدينة نوفوروسيسك، ونتمركز فيها، الى ان يصلنا العون من روسيا.

كانت تكمن وراء كل كلمة من كلمات هؤلاء المتجادلين، معان أخرى:

«لو سلموا زمام الامور بيدي، لوضعت أحسن خطة، وأنقذت الجميع...».

لعلعت، من جديد، رصاصة مشؤومة، نائية، مغطية بصوتها خرير النهر الهادر في سكون الليل. بعد هنيهة لعلعت رصاصة ثانية. تبعتها ثالثة. وما لبث ان انهمر الرصاص بغزارة، ثم أقلع، وران صمت.

تلفت الجميع صوب النوافذ الغارقة في الظلام والسكون.

صاح ديك،من وراء الحائط، أو من فوق السقيفة.

– يا رفيق بريخودكو، – خاطبه كوجوخ، – أذهب واستعلم الاخبار من هناك.

خرج بريخودكو. وهو شاب قوزاقي متنور طويل من كوبان، تظهر على وجهه آثار الجدري قليلا، يرتدي قفطانا ممنطقا بشدة، خرج، بحيطة، مجرجراً وراءه قدميه العاريتين.

– أما أنا فأقول...

– عذراً، يا رفيق، هذا لا يجوز البتة... – قاطعه حليق الذقن، الذي كان واقفاً يرنو اليهم من عل. كان جميع هؤلاء القادة اما جنوداً من اصول فلاحية، سمكريين، او نجارين، او حلاقين، ترقوا ابان الحرب، واصبحوا ضباطاً، عداه هو، فقد كان ذا تحصيل عسكري اكاديمي، وكادراً قديماً في العمل الثوري – ... لا يجوز أبدا أن نحوك الجيش وهو في هذه الحال. هذا يعني ابادته، فهو ليس جيشا، بل حشود من الناس تقيم اجتماعات خطابية عامة. ان الضرورة تستدعي اعادة تنظيم الجيش. علاوة على ذلك فان عشرات الالوف هذه من عربات المهاجرين تعيق حركة الجيش، انه لحري بنا أن نفصلهم عن الجيش. ليذهبوا اينما يريدون، أو ليعودوا الى بيوتهم. ان الجيش يجب ان يكون حراً وغير مقيد. اكتب الامر التالي: «نمكث في الستانيتسا يومين، للقيام باعادة تنظيم الجيش...»

عندما كان حليق الذقن يتحدث، كانت كلماته تخفي وراءها افكاراً اخر: «انني واسع المعرفة وكثير الاطلاع، ومما يؤهلني ربط النظرية بالتطبيق العملي، والدراسة العميقة لتاريخ العمل العسكري، فلماذا يكون هو القائد وليس أنا؟ الجمهور أعمى... انه دائما...»

– ماذا تقصد؟ – سأله كوجوخ بصوت صارم مبحوح – ان لكل جندي، في عربات المهاجرين هذه، أم، وأب، و خطيبة، وعائلة، فهل سيتركهم؟ اما اذا مكثنا هنا يومين، سيغير علينا القوزاق، ويقتلون الجميع، دون ادنى شك. بل انه لحري بنا أن نتحرك.. أن نسير ونسير بلا توقف! وسنعيد تنظيم قواتنا اثناء المسير. ينبغي علينا الاسراع والالتفاف حول المدينة دون التوقف، والسير بمحاذاة البحر حتى مدينة توابتسه. من هنالك سنسلك الطريق العام، ونجتاز سلسلة الجبال الرئيسية، بعد ذلك فقط يتسنى لنا التوحد مع قواتنا. انها لم ترحل بعيداً. اما في حالة المكوث هنا فأن الموت يهددنا كل لحظة.

وما ان فرغ كوجوخ من الكلام، الا وتحدث الجميع دفعة واحدة، وكان كل منهم قد أعد خطة ممتازة لنفسه، لكنها لا تنفع الآخرين البتة.

هب كوجوخ واقفاً، فتحركت مضائغه، وغمز بعينيه الرماديتين الصغيرتين جداً، وقال:

– غداً رحلتنا.. منذ الفجر.

واطرق مفكراً مع نفسه: « لن ينفذوا الأمر، السفلة!»

سكت الجميع على مضض. غير انهم، في سكوتهم هذا، كانوا يحدثون أنفسهم، قائلين:

«لم يسن القانون لغبي».

الفصل الرابع

حينما خرج بريخودكو، ازداد خرير مياه النهر، مترعاً طيات الظلام برمتها. كان ثمة رشاش قصير، قاتم اللون، يقعي عند الباب، على الارض الملتحفة بالظلمة، ويقف بالقرب منه شبحان أسودان، كانا يحملان بندقيتين غامقتين.

يسير بريخودكو، مدققاً نظره، حذراً. والسماء كلها محاطة بغيوم دافئة، غير مرئية. ويسمع بعيدا، ومن اتجاهات قصية مختلفة، نباح كلاب ملحاح بأصوات مختلفة لا تكل ولا تمل. بين الفينة والفينة تقلع الكلاب عن النباح، تصيخ السمع، يتهادى اليها خرير النهر، فتشرع بالنباح، بلا ضجر، بشكل ممل، من جديد.

تلوح البيوت، التي يصعب التعرف عليها، مثل بقع غير واضحة، ضاربة الى البياض. وترنو الى المرء من الشارع اكداس من عربات قاتمة، يسمع من داخلها، ومن تحتها، شخير عال، وطنين انفاس أناس متكومين في كل مكان، وغارقين في نوم عميق. ويبرز وسط الشارع شيء لامع السواد، عال: لا يدرى المرء. هل هو شجرة حور ام برج نواقيس؟ ثم تمعن النظر، فترى العريش مرفوعة. والخيول تمضغ علفها بسكينة، وبصوت مسموع. والابقار تعب الهواء من مناخيرها في زفير مسموع أيضاً.

يخطو الكسي بريخودكو بين الناس منتبهاً، مضيئاً طريقه للحظة واحدة بنار سيكارته. كل شيء هادىء ساكن. ماذا تنتظر؟ دوي اطلاقة قادم من بعيد؟

– من القادم؟

– واحد من جماعتكم.

– أسألك من القادم.. يا ابن الزانية!

– آمر سرية – وأحنى رأسه ونطق همساً: – «عربة مدفع».

– صحيح.

– والجواب؟

قرب الجندي شاربيه الخشنين المدغدغين من اذن آمر السرية وهمس بصوت مبحوح:

– «مربط» – وفاحت رائحة الخمر قوية من تحت شاربيه.

يمشي الكسي. وتلوح، من جديد، عربات سوداء يتعذر على المرء تميزها. تمضغ الخيول علفها بصوت مسموع. شخير أنفاس أناس نيام. خرير مياه متواصل. نباح كلاب ملحاح. والكسي ينقل خطواته بحيطة بين الايادي والاقدام الممتدة. تترامت اليه أصوات أناس غير نائمين، من تحت العربات، في بعض الامكنة. انها و لا

شك، أصوات جنود يجاملون زوجاتهم. وتترامى أيضاً، من خلف الاسيجة المصنوعة من اغصان مجدولة، ضحكات خفية، وصراخات مكتومة، صادرة عن عشاق بلاريب.

«لقد انتبهوا اخيرا، زد على ذلك انهم سكارى. يا لهم من لئام! لقد احتسوا خمر القوزاق كله . هل يعقل ان يشربوا حتى الثمالة، حتى فقدان العقل!.. كيف لا يغير علينا القوزاق الآن ويذبحوننا؟ الأغبياء!»

تراءى شيء بلون ابيض... لابد ان يكون بيتاً صغيراً، أو جنفاصاً ابيض، لمع في الظلمة.

«والآن أيضاً ليس الوقت متأخراً بعد: فلكل جندي عشر اطلاقات فقط او اقل، وللمدافع تتوفر عشر او خمس عشرة قذيفة، اما الاعداء فبحوزتهم كل شيء...»

تململ الشيء الابيض.

- آنكا، أهذه انت؟

- وانت، ماذا دهاك لتتجول في مثل هذه الساعة؟

لاح حصان قاتم اللون يمضغ العشب في العريشة،.. أخذ يلف سيكارة اخرى. حكت آنكا، متكئة على العربة، ساقها العارية بقدمها. تحت العربة ثمة لباد مفروش، يتعالى من فوقه شخير مرتفع. يعني ان والدها يغط في نوم عميق.

- هل نتعطل طويلا هنا؟

- سنرحل عن قريب - سحب نفساً من سيكارته، فتلظت نارها.

استنار جزء من انفه، واطراف اصابعه المصفرة بتأثير التبغ، وعينا الفتاة اللامعتان، وعقد الحرز الذي يحيط جيدها الابيض. ثم خيم الظلام، برهة، من جديد - وبانت العربات اشباحاً ممسوخة، البقرات تعب الهواء من مناخيرها في زفير مسموع، الخيول تمضغ العشب، النهر يهدر. فلماذا سكت صوت الرصاص؟

«ماذا لو تزوجت بها...»

وفي اللحظة ذاتها، كما يحدث في كل مرة، تمر من امامه فتاة هيفاء، طويله العنق، زرقاء العينين، ترتدي فستاناً ازرق شفافاً ناعماً.. انهت الثانوية للتو... هذه الفتاة المارقة في خياله،

ليست زوجته، بل خطيبته... انه لم يرها أبداً، لكنها، حسب اعتقاده، موجودة في مكان ما.

– اذا وقعنا بأيدي القوزاق قتلت نفسي.

وادخلت يدها في عبها، واخرجت منه، شيئاً ما، يلمع لمعاناً باهتاً.

– خذ جربه.. انه حاد.

صدح صوت ليلى غريب ومؤثر تأثيراً عميقاً في النفس، وما لبث ان أخذ يبتعد رويداً رويداً. ليس لهذا الصوت شبه ببكاء الاطفال، فلا عجب أن يكون نعيب بومة كبيرة.

– يجب ان انصرف. لا يجوز التسكع هنا.

غير ان الكسي لم يتمكن ان يقتلع اقدامه المنغرزة في الارض، وكأنها قد تجذرت فيها. ولكي يسهل عليه انتزاعها فكر مع نفسه:

«لقد حكت وراء اذنها برجلها مثل بقرة...»

لكن هذا لم يسعفه في شيء، فمكث واقفاً، يمص عقب سيكارته، فاستضاء من جديد، للحظة جزء من انفه، واصابعه، وجيد الفتاة الطويل، وعقدها، وصدرها الفتي، الغامر ببياض قميصها المطرز... اطبق الظلام مجدداً، فتواصل هدير النهر، وترامت انفاس النيام.

كان يقف قبالة انفها، ووجهه قريب جداً من عينيها. شعر برجفة، وكأن عدداً لا حصر له من الأبر وخزه. مد يده الى مرفقها:

– آنكا!

فاحت منه رائحة دخان، وفتوة، وشعرت آنكا بقوة الشباب الكامنة فيه.

– آنكا، لنذهب ونستريح قليلا بين البساتين...

أمسكته بيديها الاثنتين من صدره، وهزته لدرجة انه كاد يقع، وهو يتراجع الى الخلف، ويدوس أرجل وأيادي أناس نيام. سرعان ما اختفت البنت في العربة المحدثة صريراً، وتدحرجت من ثمة ضحكات عجلى، ثم توقفت. أما العجوز غوربينا، فقد رفعت رأسها من المخدة، وجلست في العربة، مدمدمة بعدم رضا، وهي تحك جسدها بيأس.

– أواه، يا ساهرة الليالي! مادمت دائمة الأرق حري بك أن تأخذي مهدئاً.. وأنت من تكون؟

– هذا أنا، ياجدة...

– الكسي.. هذا أنت؟ كدت لا اعرفك! ماذا حدث يا عزيزي؟ آه، كم من مصائب واحزان سوف نتجرع! ان قلبي يخامرني، فما ان طلعنا، الا ومرقت قطة من أمامنا، قاطعة الطريق علينا. كانت قطة سمينة شعثاء. بعدها مر ارنب واثباً كالسهم، آه، يا رب، يا ارحم الراحمين! لا احد يدري بم يفكر هؤلاء البلاشفة: لقد ضاع متاعنا كله. قالت والدتي لي يوم زواجي: خذي لك هذا السماور هدية، وحافظي عليه مثلما تحافظين على حدقتي عينيك، وعندما تموتين أهديه لأبنائك واحفادك، وكنت افكر بأهدائه لآنكا يوم زواجها. لكننا تركناه هناك، وتركنا معه الماشية. ألا تقل لي بم يفكر البلاشفة؟ وماذا ستفعل السلطة السوفييتية؟ لتذهب هذه السلطة الى حيث لا رجعة، مثلما ذهب سماوري! قال ممثلوها لنا، سيأخذ الترحال منا اياماً ثلاثة وستسوى الامور بعدها. فها اننا نتسكع، ونهيم في البرارى اسبوعاً كاملا بلا هدف. ما جدوى السلطة السوفييتية طالما لا تستطيع أن تفعل شيئاً من اجلنا؟ انها سلطة للكلاب. ألا ترى، ان القوزاق اعلنوا العصيان كالمجانين. أسفاً لرجالنا. اوخريم هذا... كان شاباً صغيراً. أوه، يا رب ارحمنا!

وراحت غوربينا تحك جسدها. وما ان فرغت من الكلام، أخذ النهر المنسي، في تلك اللحظة، يذكر بنفسه بخريزه وهديره، اللذين كانا يترعان رهبة الليل برمتها.

– ايه ، يا جدة، لماذا تبكين؟ ان بكاءك هذا لن يجدي نفعاً.

أخذ الكسي نفساً آخر من سيكارته ، فتوهجت نارها. كان يفكر بشؤونه ، هل يختار البقاء مع افراد سريته ام مع قيادة الجيش. اين ومتى يتسنى له لقاء ذي العينين الزرقاوين، والجيد الابيض الطويل؟

ولم تمكث العجوز ساكتة فيما بعد. ذلك ان المشقات كانت ترافق حياتها كما يرافقها ظلها. توفي اثنان من اولادها وهما يحاربان على الجبهة التركية. واثنان آخران يحملان السلاح ههنا، في الجيش الاحمر. زوجها يشخر تحت العربة. وابنتها، هذه العقعقة التي تمددت بهدوء في العربة يجب ان تنام. لكن هل تستطيع أن تحزر ما يدور بخلدها؟ آه، ما اصعب هذه الحياة! لقد تحملت هذه

المرأة، التي انهت مؤخراً عقدها الخامس، كل الوان العذاب في حياتها، اما اولادها وزوجها فقد كانت ظهورهم تنفصم من العمل. ولمن كانوا يعملون؟ للقوزاق، لجنرالاتهم وضباطهم، أصحاب جميع الاراضي في كوبان. اما النازحون من مناطق اخرى، فيعملون عندهم كالدواب... يا للمصيبة! كانوا يعملون بتعب مضن، لا يرفعون عيونهم عن الارض، مثل الثيران تماماً. كل يوم، في الصباح، في المساء، كانت تذكر القيصر في صلواتها: الوالدان اولا، ثم القيصر، وبعده الاطفال، يليهم الارثذوكس جميعهم. اما القيصر ذاك، فلم يكن حاكما عادلا، بل كان كلباً اشهب لا غير. ولذلك ازيح عن عرشه. اى مصيبة المت بها عندما سمعت بالخبر. ارتعدت فرائصها، واصطكت قدماها رعباً. بيد انها، بعد ذلك، فكرت مع نفسها: هذا ما كان يستحقه .. الكلب!

– يا لكثرة البراغيث هنا!

وحكت غوربينا جسدها مرة اخرى. ثم نظرت في العتمة. كان النهر يهدر بصخب. فرسمت اشارة الصليب محاولة اطمئنان نفسها.

– ينبغي ان ينبلج الفجر قريباً.

وتمددت في فراشها. غير ان حمامات النوم طارت من عينيها. تقف الحياة قبالة الانسان كظله، ولا يستطيع التخلص منها ابداً. انها تقف ساكنة، وكأنها غير موجودة ابداً، مع انها تقف بكاملها الى جانبه...

– البلاشفة لا يؤمنون بالغيب. ما العمل، لعلهم على علم يقين، ويمضون في سواء السبيل. فما ان استولوا على السلطة الا وهدموا كل الحياة القديمة. وسارع الضباط والاقطاعيون الى الاختفاء. وجن جنون القوزاق منهم... امنحهم الصحة والعافية يا رب! وان كانوا لا يؤمنون بالغيب. مع هذا انهم من جماعتنا وليسوا من الكفار... لو ظهروا الى الوجود من قبل، واستولوا على السلطة، لما اندلعت هذه الحرب اللعينة، ولبقي ولداي على قيد الحياة، ولما سقطا في ساحة المعركة هناك، في تركيا... لكن، من اين جاء هؤلاء البلاشفة؟ يقول البعض انهم جاءوا من موسكو، ويقول البعض الاخر انهم ولدوا في المانيا. ويقال، ان قيصر المانيا انجبهم وارسلهم الى روسيا.

وهم، حال وصولهم، نادوا على الملأ، بصوت واحد: الارض للفلاحين لكي يزرعوها لانفسهم وليس للقوزاق. انهم ناس جيدون، لكن لماذا يعنى... ولداى... راقدان... ولدان... العزيزان... القطة...

وأغلق النعاس عينيها، فسقط رأسها على المخدة. لا بد للفجر أن يتنفس قريباً.

يسير بريخودكو حذراً، ناقلا خطواته بين الارجل. تلوح بين الحين والاخر، عرائش مركبات، اطواقا، جوالق مستنيرة بضوء سيكارته.

خيم الصمت على كل شيء، واطبق الظلام في كل مكان. سكتت الكلاب عن النباح. حتى وساد الهدوء تحت العربة التي قرب السياج. خلا النهر، الذى ظل يهدر، لكن هديره بات أقل صخباً، ابتعد الى مكان. آلاف من الناس يتنفسون بسكينة ويغرقون في نوم عميق.

يخطو بريخودكو، دون اي انتظار لسماع صوت اطلاقة مزدوجة. تبرق عيناه. وتتراءى من الظلام التواءات قمم الجبال قليلا...

«انهم يهاجمون دائما مع انبلاج الفجر...»

هرع بريخودكو، واخبر كوجوخ. بعد ذلك، بحث عن عربته وسط الظلمة، ووثب اليها، فتمايلت اطرافها، واصدرت صريرا. بماذا كان يفكر؟! زاغ بناظريه، واخذ النعاس يطبق جفنيه بلذة.

الفصل الخامس

قرقعة حديد، صليل سلاسل، فرقعة أخشاب، صراخ... تا.. تا.. تا...

– الى اين؟ الى اين؟ قف!..

ما هذا الذي يتوهج في السماء، حريق أم نور شروق الشمس؟

– يا جنود السرية الأولى، هيا بسرعة!

سرب جبار من غراب قيظ، لا نهاية له، يلوح في السماء المائلة الى الحمرة، بنعيق مصم.

في السحر الرمادي، توضع، هنا وهناك، الاطواق على رقاب الدواب، وترتفع الاقواس. وتتساقط عرائش العربات من ايادي النازحين، الذين يصطدم بعضهم ببعض، متراشقين بشتائم ليس لها انقطاع...

– ...بم! .. بم!..

... تشد اعنة الخيول بهستيرية. تتشابك دناجل العربات. تهوى السياط على ظهور الخيل بقرقعة. وتمخر العربات الجسر متكسرة يتساقط منها الناس صرعى، تتطاير عجلات بعضها في الهواء، وينسد مجال العبور على الجسر في كل لحظة.

تا.. تا.. بم!.. بم!..

يخترق السماء سرب من البط البري طائراً بسرعة، باحثاً عن الطعام في السهب. وتتعالى اصوات النساء مزمجرة بيأس وقنوط...

...تا ..تا .. تا..

يشد جنود المدفعية الاعنة باستعجال واضطراب.

ويلوح جندي صغير، بعيون محملقة، وساقين عاريتين مشعرتين، بلا بنطلون، مرتدياً فقط قميصاً عسكرياً قصيراً، حاملا بندقيتين، وهو يصرخ:

– اين سريتنا؟ اين سريتنا؟

تتبعه امرأة حاسرة الرأس، مفتوحة الازرار، تصيح بأعلى صوتها:

– فاسيل، يا فاسيل!.. يا فاسيل!..

... تاتا.. ترا.. تا.. تا.. بم!.. بم!..

وها هي البداية: سحابات كبيرة وكثيفة من دخان ترتفع مسرعة، فوق البيوت، فوق الاشجار، في طرف الستانيتسا. ويختلط صهيل الخيل بخوار الأبقار.

فهل انقضى الليل؟ ألم يكن، قبل قليل، ملتحفاً بالظلام، مترعاً بأنفاس عشرات الآلاف من الناس النيام، وخرير النهر المتواصل؟ وهل لم تكن الجبال تجثم، في البعد، سوداء قاتمة، غامضة؟

فالجبال الآن ليست سوداء، ولا زرقاء، بل وردية. وقد غدت هي، وخرير النهر الهامد، وضجة وفرقعة وصرير مواكب العربات

المتحركة، في زاوية النسيان، مقارنة بالدوى الذى يملأ القلوب المعتصرة برودة:

ترا.. تا.. تا.. تا...

لكن، كل هذه الاصوات تبدو شيئاً، لا أهمية له، عندما يشق رعد مزلزل عنان السماء: بِ بِ با ا اخ!!

... يجلس كوجوخ أمام بيت، ينطق وجهه المائل الى الصفرة، ثباتاً وهدوءاً وترقباً وكأنه شخص يستعد للسفر بالقطار، والكل يتململ، ويتعجل، ولكن بعد رحيل القطار يركن كل شيء الى سكونه المعهود، ويغدو اعتياديا. بين الفينة والفينة يهرع رسول اليه هذباً، أو يأتي ممتطياً صهوة جواد مغطى برغاوة العرق، حاملا الأخبار. ويقف الى جانبه مساعده، ورسله، وهم على اتم استعداد لتنفيذ ما يأمر به.

يرتفع قرص الشمس أعلى فأعلى في صفحة السماء، وينطلق هدير المدافع، وزخات رصاص البنادق والرشاشات، على نحو متلاحق، مطرد.

وليس لكوجوخ الا جواب واحد عن كل الاخبار المحملة اليه:

– حافظوا على الرصاص، كما تحافظون على حدقات عيونكم، اطلقوا منه فقط في حالات الضرورة القصوى. اسمحوا لهم بالاقتراب، ومن ثم شنوا عليهم هجوماً. ولا تسمحوا لهم أن يبلغوا البساتين، لا تسمحوا لهم بلوغ البساتين! خذوا سريتين من الفوج الأول. استردوا الطواحين، وانصبوا الرشاشات.

يهرعون اليه ركضاً، من جميع الاطراف، حاملين اخباراً مقلقة. وهو، رغم كل ذلك، يجلس هادئاً، ساكناً، مترقباً، بوجهه المصفر قليلا، ما خلا تحرك المضائغ في وجنتيه، وكأن احداما يختبىء فى داخله يردد بصوت منشرح: «أحسنتم، أحسنتم يا اولاد!» ربما يخترق القوزاق بعد ساعة، او نصف ساعة، القرية، عندئذ لن يردعهم رادع من ذبح الجميع! وكوجوخ يدرك كل هذا، بيد انه يرى أيضاً، بأم عينيه، كيف تنفذ السرايا والكتائب الاوامر بطاعة ومرونة، وكيف تقاتل تلك السرايا والكتائب، التى كانت بالأمس، تؤدي غناء فوضوياً، ولم تكن تعير اهتماماً، أو احتراماً لا للقادة، ولا لكوجوخ نفسه، بل وتهافت جنودها على الخمر، يحتسون منه حتى

الثمالة، ويتعابثون مع النساء. انه يراها كيف تقاتل الآن بشراسة وضراوة لا نظير لهما، مثلما يرى ايضاً، كيف ينفذ القادة، على نحو دقيق، كل توجيهاته. هؤلاء القادة انفسهم، الذين كانوا، وحتى الليلة الماضية، يستهزئون منه، اجل كانوا جميعاً، دون استثناء، يستخفون برأيه.

حملوا اليه جندياً اطلق القوزاق سراحه، بعد أن كان قد وقع في الأسر. كان الجندي مقطوع الانف، والاذنين، واللسان، والاصابع. وقد كتب على صدره بالدم «سنفعل فيكم، فيكم جميعاً، نفس الافاعيل، يا أولاد...»

«احسنتم يا اولاد، احسنتم!»

يهاجم القوزاق بغيظ محتدم.

لكن، عندما ركض البعض من المؤخرة، ونقل اليه، بأنفاس متلاحقة، خبراً مفاده، ان ثمة معركة تدور امام الجسر، امتقع لونه، وصار بلون الكركم.. هذا يعني، ان معركة تدور رحاها بين ارتال المستودعات والنازحين... وهرع كوجوخ الى هناك.

كان الطرفان المتحاربان ملتحمين امام الجسر، يكسرون عجلات عرباب بعضهم بعضاً بالفؤوس، ويتضاربون بالسياط والاوتاد... هدير. بكاء. صياح. نياح نساء. زعيق اطفال... وازدحام شديد على الجسر. تعلقت محاور العربات بعضها ببعض، واشتبكت الخيول المحمحمة في الاعنة. الناس محاصرون. الاطفال يبكون برعب وفزع... وتنطلق زخات الرصاص من وراء البساتين: تا.. تا.. تا.. ولا يمكن التحرك، لا الى الامام، ولا الى الوراء.

– قف! قف! – صرخ كوجوخ بصوت قوي مجلجل، لكن هو نفسه لم يسمع صوته. فأطلق رصاصة في اذن اقرب حصان. هاجموه بالاوتاد، في الحال.

– يا ايها الأبليس! تقتل الخيول! اضربوه!!

تراجع كوجوخ، مع الياور، وجنديين آخرين، مضايقين بمحاذاة النهر، بينما انهمرت فوق رؤوسهم العصي والاوتاد.

– الرشاش... – صرخ كوجوخ بصوته المبحوح.

زحف الياور مثل الثعبان تحت عربة، تحت بطون الخيول، وبعد دقيقة دحرجوا اليه رشاشاً، ثم هرع صوبه فصيل من المقاتلين.

كان رجال القوزاق يخورون مثل ثيران جريحة:

– اضربوهم، الكفرة! – وراحوا يسقطون البنادق من الايدي بالاوتاد.

أما الجنود، فيضربون بأخامص بنادقهم، متحاشين اطلاق الرصاص على آبائهم وامهاتهم وزوجاتهم.

وثب كوجوخ مثل قط وحشي صوب الرشاش وعبأه بشريط من الرصاص، وراح يطلق النار: تا.. تا.. تا.. دارت الطلقات دوراناً مروحياً فوق الحشد الملتحم، وحركت رياحها ولعلعتها شعر رؤوس الناس. انسحب رجال القوزاق بعجالة، الا ان الرصاص المعادي، كالسابق، كان يلعلع أيضاً من وراء البساتين.

توقف كوجوخ عن اطلاق النار، وراح، مضنياً من التعب، يطلق اقذع وابشع انواع الشتائم. وكانت هذه العملية قد هدأت من الوضع فورا. فأمر بألقاء العربات المحاصرة على الجسر، والتي يتعذر فك تشابكها، في النهر. امتثل الرجال لأمره، واخلوا الجسر من العربات. وقف فصيل من المقاتلين امام الجسر مصوباً بنادقه، في حين، أخذ الياور يمرر العربات واحدة اثر أخرى.

تدفقت العربات قمصاً ووثباً فوق الجسر. كل ثلاث عربات في صف واحد. وركضت البقرات المشدودة، هازة قرونها، ومرقت الخنازير، يائسة زاعقة، جارة الحبال، بسرعة كالرمح. فصخب وقرقع سطح الجسر الخشبي وتطايرت الواح الخشب مثل دساتين، وغرق خرير النهر في الصخب والضوضاء.

يتسلق قرص الشمس جهة الشرق من السماء أعلى فأعلى، وينعكس شعاعه القوي، على صفحة الماء بشكل حاد.

والعربات تواصل تدفقها، وراء النهر، على مساحة عريضة، مختفية بين سحابات من غبار. ويخف الازدحام في الساحات والشوارع والازقة، وفي الستانيتسا.

طوق القوزاق الستانيتسا على شكل قوس ينتهي طرفيه المنحنيين عند ضفة النهر، وراحوا يطلقون ناراً كثيفة. ثم أخذ القوس يتماسك اكثر فأكثر ويضيق الخناق على الستانيتسا، والبساتين، والعربات المتدفقة عبر الجسر بلا انقطاع. بينما قاتل الجنود قتالا مريراً مدافعين عن كل شبر من الارض، في سبيل اطفالهم، آبائهم،

امهاتهم، وبحرص تام على كل طلقة، فأن اطلقوا رصاصة تركت وراءها بلا شك أطفال قوزاق يتامى، وبكاءاً ودموعاً في عائلاتهم.

يغير القوزاق بشراسة، وبصدور تتوقد غيظاً، يتقدمون ويتقدمون وتصبح سلسلتهم على مبعدة رمية عصا، وقد احتلوا اطراف البساتين، وراحوا يلوحون وراء الاشجار، وراء الاسيجة المصنوعة من الاغصان، وراء الخمائل. انبطح المقاتلون من اتباع كوجوخ والقوزاق. تفصل بين سلسلتيهما مسافة لاتزيد عن عشر خطوات. وساد سكون هنيهة – كان الجنود يقتصدون في اطلاق النار، ويراقبون بعضهم بعضاً. وادارو انوفهم، اذ احسوا برائحة خمر حادة كانت تنبعث من سلسلة القوزاق. عندئذ مدوا مناخيرهم المتورمة بحسد، وهم يتشمشمون:

– لقد سبحوا بالعرق.. الكلاب!.. آخ لو عثرنا عليه!

وعلى حين غرة، تعالى صوت من سلسلة القوزاق، اما متهيجاً من الفرح، أو من حقد وحشي:

– انظر! انه فومكا!! آخ منك يا ابن الزانية!..

وفي اللحظة نفسها، بحلق قوزاقي شاب، غر بعد، ذو عينين واسعتين كعيون البقر، من وراء شجرة، وبرز جسمه كله بحيث يمكن اطلاق النار عليه.

بينما ظهر فومكا، غر مثله وناداه، من سلسلة الجنود:

– هذا انت يا فانكا!؟ آخ منك يا ابن القحبة! يا نغل، يا مجنون!

انهما من ستانيتسا واحدة، بل ومن شارع واحد، حيث تقع داراهما تحت اشجار صفصاف ضخمة كثيفة. في الاصباح، كانت والدتاهما، ما ان تقودان البقرات الى المرعى، تقفان عند السياج وتشرعان بتناول الاحاديث. ولم تمر سنوات طويلة على تلك الايام التي كان فومكا وفانكا فيها طفلين صغيرين يرمحان على العيدان اليابسة، ويصطادان السرطان في مياه نهر كوبان الرقراقة، ويسبحان فيها بأستمرار. ولم تمر الا سنوات قليلة على تلك الايام التي كانا يغنيان فيها مع الفتيات الاغاني الاوكرانية العزيزة، على ذلك اليوم الذي توجها فيه سوية لأداء الخدمة العسكرية، وعلى تلك

الساعات التي حوصرا فيها وسط الدخان والشظايا، وهما يقاتلان قتالا مريراً ضد الاتراك.

أما الآن؟

أما الآن فقد صرخ المقاتل القوزاقي:

– ماذا جاء بك لتقاتل هنا، يا غائطاً كريه الرائحة! التحقت بهؤلاء البلاشفة الملعونين، يا قاطع طريق مسكينا!

– من؟ أنا قاطع طريق؟! هذا انت اقطاعي فزاعة... لقد سلخ والدك جلود الناس، أمواتهم واحياءهم... فلن تكون انت الا عنكبوتا مثله!

– من؟ هل انا عنكبوت؟ اذن هاك!! – رمى فانكا بندقيته جانباً ووجه اليه لكمة.

فغدا أنف فومكا في الحال بحجم حبة كمثرى كبيرة، وهب هو أيضاً، ولكمه بالمقابل:

– خذ، يا كلب!

وانفقأت احدى عيني القوزاقي.

تشبث كل بصدر الآخر، وراحا يوجهان لبعضيهما الضربات كيفما اتفق!

خار القوزاق مثل ثيران، واندفعوا، بعيونهم الواسعة كعيون البقر، في عراك، واترع البستان برائحة الخمر. وثب الجنود أيضاً من مضاجعهم، وكأن عدوى ما انتقلت اليهم، وأخذوا يوجهون لكماتهم للقوزاق، واصبحت البنادق أثراً بعد عين.

آخ، أما أي عراك كان يدور!.. كانوا يوجهون اللكمات في الوجوه مباشرة، الى قصبات الانوف، الى جوزات الاعناق، الى الافكاك، مطلقين زفيراً قوياً، وقرقعات، وصيحات، فساد فوق كومة الاجساد الحية المتحركة زعيق من الشتائم البذيئة لم يسمع من قبل.

راح ضباط القوزاق وضباط الجنود، شاقين حناجرهم بالسباب، يركضون ومسدساتهم، باذلين محاولة عديمة الجدوى، لفصل الطرفين المتخاصمين، وجعلهم الالتجاء الى السلاح، دون أن يتجرأوا هم على اطلاق النار، اذ كانت كرة لا مثيل لها من اجساد بشرية

تتقلب على مساحة شاسعة، يختلط فيها الصاحب بالغريب، وتفوح منها رائحة الخمر، على نحو لا يطاق.

— أ..أ.. السفلة! — كان الجنود يصرخون: — لقد سبحوا بالعرق وصاروا طائشين متهورين... كذا من امهاتكم... ألف مرة!

ويجيب القوزاق:

— هل تسنى لكم، يا خنازير، ان تهدروا هذا الماء المقدس؟... كذا من امهاتكم ألف مرة!..

ومن جديد ينقضون على بعضهم البعض. وتتشابك الايادي حول الاحضان الحارة بجنون وحقد محتدمين. تهوي اللكمات على الوجوه فتدميها، على الانوف فتسحقها، وتوجه اينما اتفق، وتترك لها أثراً. ان الحقد الوحشي، المشتعل في صدور الطرفين، لم يسمح ان يترك خطوة فاصلة بينهما. كان الجنود والقوزاق يودون خنق اعدائهم خنقاً، وعصرهم، كانوا يودون ان يحسوا وجوه الاعداء وهي تتفجر دماً تحت ضربات قبضاتهم مباشرة. وكانت ترافق كل هذا الهرج والمرج اغلظ الشتائم واقذع المسبات، التى تأنف الآذان سماعها، ورائحة الخمر الحادة، اللاذعة، غير المحتملة.

انقضت ساعة، ساعتان...

وتواصل هذا الخصام على اشد ما يمكن.

ولم يلمح أحد كيف اطبق الظلام بغتة.

كان ثمة جنديان يتضاربان بهمة، مدة طويلة، وسط الظلام، محمحمين، ومتبادلين السباب، وما ان توقفا لحظة، وتبادلا النظرات، الا وصرخ احدهما:

— هذا انت يا أوباناس؟! ماذا اصابك يا ابن العاهرة لتهوي علي بضرباتك كالمدق، وكأنك تدق حزمة من سنابل القمح!

— انت ميكولا؟ وانا تصورتك قوزاقياً! يا فاسد البطن، لقد نقبت وجهي، هل انا مذنب امامك؟

ويمسحان وجهيهما المدميين، ويعيدان تبادل الشتائم، ثم يرجعان الى السلسلة، ويبدآن بالبحث عن بندقيتيهما.

على مقربة منهما، كان قوزاقيان، يتبادلان اللكمات منحنحين طويلا، ويقعان أرضاً احدهما فوق الاخر بالدور، وما ان تلتقي نظراتهما يخاطب احدهم الآخر:

– لماذا تركبني هكذا، كذا من امك، هل انا حصان؟

– ما، هذا انت يا غاراسكا؟ لماذا لا تعلن عن نفسك، وتكتفي بأرسال الشتائم، مثل مجنون! لقد حسبتك جندياً.

وتوجها، ماسحين الدم عن وجهيهما، صوب مؤخرة جبهة القوزاق. توقفت الشتائم المقذعة، في آخر المطاف، وصار يسمع خرير النهر، وقرقعة الاخشاب اللامنقطعة على سطح الجسر، حيث كانت العربات لما تزل تتدفق، وتململت قليلا اطراف الغيوم السوداء، الضاربة الى القرمزي بتأثير الحريق المشتعل. انبطحت سلسلة الجنود على امتداد البساتين، اما فيما حواليهم، في السهب، فكانت قد انبطحت سلسلة القوزاق. كانوا ساكتين، يربطون وجوههم المتورمة، والمزرقة، فيما الجسر يصدر صريراً وصخباً، والنهر خريراً عالياً.

ولم يخل الجنود الستانيتسا الا قبيل الفجر بقليل. لقد عبرت الجسر آخر سرية خيالة مطقطقة على الواحه، وها هو الجسر يشتعل. وانطلقت من الستانيتسا كلها، في اثر هؤلاء المدبرين على اعقابهم، طلقات البنادق، و رشقات الرشاشات المتواصلة.

الفصل السادس

تسير كتائب القوزاق – من وحدات المشاة التابعة لقوات قوزاق البحر الاسود والكوبان، في روسيا القيصرية – تسير في شوارع الستانيتسا، مرددة الاغاني، يهز جنودها ستراتهم الطويلة، بلا اردان، وتلوح الشرائط البيض على باباخاتهم الشعثاء اما وجوههم فمخرمشة: احدهم عيناه ملطخة بهالات زرقاء وارجوانية، وآخر، ترى في مقدمة وجهه بدلا من الانف، حدبة ليس الا، وقد انتفخت وجنته، وتورمت شفتاه الحمراوان وصارتا تشبهان مخدتين. بأختصار، لم يكن ثمة قوزاقي واحد، اذا انت نظرت الى وجهه، دون أن ترى فيه أوراماً ولطخات مزرقة تحت عينيه.

لكنهم يسيرون، بحشود كبيرة والفرحة تعم اوصالهم، ويرتفع فوق الغبار المنطلق من تحت اقدامهم نشيد: ايقاع حديدى يتفق وضربات خطاهم التى تردها الارض.

لقد ارغمونا على العصيان
فما نحن مؤمنون...

كان صدى صوتهم يتردد قوياً، كثيفاً، في البساتين، وفيما وراءها، في السهب، وفوق الستانيتسا.

أجل، لقد اضعنا اوكرانيا!

تخرج القوزاقيات لاستقبالهم، وكل واحدة منهن ترنو بنظرها الى زوجها أو خطيبها، وتندفع نحوه بفرح، أو فجأة ترفع يديها وتشرع بالنواح والولولة، مغطية بصوتها على صوت الاغنية. اما الأم العجوز فتحتبط، وتنتف شعر رأسها المشتعل شيباً، وما تلبث ان تتلقفها اياد قوية، وتعيدها الى البيت.

واننا لمنتفضون...

ويركض اطفال القوزاق.. وما اكثرهم! لا احد يدري اين كانوا مختفين، ومن اين زحفوا، انهم يهرولون ويصرخون:
– بابا!.. بابا!..
– العم ميكولا!.. العم ميكولا!
– الحمر أكلوا عجلنا.
– أما أنا فصوبت من مقلاعي في عين احدهم. كان سكراناً نائماً في البستان.

حل معسكر آخر، محل المعسكر السابق. فأنتشر افراده في الشوارع والازقة. وبدأ يرتفع الدخان من المطابخ الصيفية في باحات جميع البيوت. وكانت القوزاقيات يتحركن جيئة وذهاباً، بأضطراب وقلق. وقد عادت الابقار المخبأة في مكان ما من السهب الى بيوت أصحابها، ورجع الدجاج والبط أيضاً، وراحت العوائل تطبخ كل ما لذ وطاب من الاكل.

بينما في النهر، يجري عمل آخر، محموم. اذ كانت الفؤوس تهوى بضربة اثر اخرى، مغطية بضوضائها حتى على خرير المياه

ويتطاير نثار الخشب الابيض لامعاً تحت وهج الشمس، في كل الاتجاهات. يعمل القوزاق على نحو محموم وينشئون جسراً جديداً بدلا من الجسر القديم المحترق، لكي يتسنى لهم اللحاق بالعدو

فيما كانت الامور تسير في الستانيتسا في مجراها. كان يجري تنظيم وحدات قوزاقية جديدة. يقف الضباط حاملين بأياديهم دفاتر ملاحظات، ويعد الكتبة، وراء الطاولات في الشارع مباشرة، قوائم جديدة، وتجري مناداة القوزاق بالاسماء فرداً فرداً.

يحدق القوزاق في الضباط المتخطين جيئة وذهاباً. وكتافياتهم تلمع تحت اشعة الشمس، بينما كانت الامور قبل ستة اوسبعة شهور على نحو آخر كلياً: اذ كانت الجثث الملطخة بالدماء لأمثال هؤلاء الضباط ملقات في شوارع وازقة الستانيتسا، منزوعة الكتافيات. كان القوزاق يلقون القبض على المختفين من ضباطهم في القرى والبراري والوديان الضيقة و يأتون بهم الى الستانيتسا، في البدء ينهالون عليهم ضرباً مبرحاً بلا رحمة، ثم يشنقونهم، وكانت جثثهم تبقى معلقة أياماً عدة، حتى تصبح طعما للغربان.

لقد بدأت هذه الحوادث قبل حوالي سنة، عند ما بلغ الحريق المندلع في روسيا، الجبهة التركية.

من أشعل فتيل هذا الحريق؟! ولماذا شب في روسيا؟

كان الغموض يحيط بكل شيء. لكن ما ان ظهر هؤلاء البلاشفة، غير المعروفين لهم، الا وفتحت عيون الجميع على العالم. وعلى حين غرة، رأى الجميع كل ما تعذر عليهم رؤيته طوال قرون، مع انهم كانوا يشعرون ويحسون به. رأوا الضباط والجنرالات والمحلفين والقادة الميسورين، وجيش الموظفين الضخم، والخدمة العسكرية الجائرة. ذلك ان كل قوزاقي كان يرسل اولاده الى الخدمة العسكرية ويتحمل كل مصاريفهم من جيبه الخاص، واذا فرضنا ان لديه ثلاثة او اربعة اولاد، فهذا يعني انه يتحتم عليه ان يشتري لكل واحد حصاناً، وسرجاً، وبدلة عسكرية، وسلاحاً – هكذا يخرب بيته. بينما يذهب الفلاح الى الخدمة عاريا. فيمنح له الجيش كل الملابس، من الجزمة وحتى القبعة. وهكذا، فأن جماهير القوزاق كانت تنحدر تدريجياً نحو هاوية الافلاس، وتزداد فقراً، وتنقسم

طبقات وفئات: تطفو فئة الاغنياء والميسورين منهم على السطح، وتزداد قوة وغنى، بينما تهبط بقية الفئات الى القاع بالتدريج.

-

يحدق قرص الشمس الصغير، قوياً، و على نحو لا يحتمل، في المنطقة الممتدة تحت اقدام القوزاق كلها. ويختلج السراب اختلاجاً قائظاً.

ويقول الناس:

– ليس ثمة بقعة على وجه المعمورة أجمل من منطقتنا...

يتماوج شعاع الشمس الساطع على سطح البحر الهادىء. موجات المياه الخضراء الشفافة تغسل رمل الشاطيء بكسل. سرب غفير من الاسماك يسبح في الماء.

ثمة بحر آخر الى جانب هذا البحر. بحر ازرق لا قرار له، يعكس صورة السماء الزرقاء حتى في اعمق اعماقه، ويتكسر على سطح مياهه شعاع الشمس القوى النفاذ، الذي يؤذي العينين بسطوعه. هنالك، في عمق هذا البحر، ترتفع اعمدة دخان من البواخر مشكلة اذنابا سوداء متبددة – انها بواخر تجارية تمخر عباب البحر حاملة الاموال لترجع بالحبوب.

وترتفع من البحر سلاسل جبلية شاهقة، زرقاء، يغطي الثلج قممها، وترقد غضون زرقاء بين ثناياها.

تعيش في الغابات الجبلية الممتدة بلا نهاية، وفي الشعاب والمنخفضات والهضاب والمتون، كل انواع الطيور والحيوانات البرية، حتى الثور البرى–ذلك الحيوان الذي لا تصادفه في أي مكان آخر من العالم.

هذهالكتل العملاقة، المكومة المهجورة المتأكلة بمياه الأمطار تطمر في داخلها كميات كبيرة من النحاس، والفضة، والزنك، والرصاص، والزئبق، والغرافيت، والسمنت، ومعادن كثيرة اخرى... اما النفط فيتسرب، مثل دم اسود، الى كل الشقوق والتصدعات، وتطفو طبقات دهنية رقيقة بالوان قوس قزح، تفوح منها رائحة الكيروسين فوق مياه السواقي والانهار...

«أجمل بقعة...»

وتمتد من الجبال، ومن البحرين، سهوب شاسعة الارجاء، لا حدود لها ولا نهايات.

«لاحدود لها ولا نهاية...»

وتلمع سنابل القمح على امتداد لا حدود له، وتنبسط المروج خضراء، أو يخشخش القصب عالياً كثيفاً فوق المستنقعات المائية. وتلوح الستانيتسات والقرى بقعاً بيضاء بين البساتين الكثيفة ذات المساحات الواسعة، تطل عليها، من تحت قبة السماء الملتهبة أشجار الحور بذؤاباتها الهرمية. وفي القيظ المختلج فوق الكورغانات تبسط الطواحين الهوائية، الرمادية اللون، اجنحتها.

تلوح في السهب قطعان الغنم شهباء، ساكنة، ملتصقة ببعضها، تحوم حولها ملايين من اسراب البعوض والذباب، محدثة طنيناً.

وتقف المواشي الحمراء، متوانية، في مياه السهب حتى الركبة، منعكسة فيها صورتها. وتتجه قطعان الخيول، مهزهزة رؤوسها، صوب الوديان الضيقة.

ويلف جميع ما في المنطقة حر ملول رنان ليس له انقضاء.

تغطي رؤوس الخيول، الراكضة في الدروب، قبعات من قش. والا تموت هذه الحيوانات تحت تأثير أشعة الشمس المميتة. والناس الذين يكشفون عن رؤوسهم من غير حيطة، تجدهم يسقطون مصابين في الطرقات على التراب الحار، وقد خبا ضوء عيونهم واحمرت وجوههم... يختلج القيظ الرنان برقة في كل مكان.

حينما تجر ثلاثة أو اربعة ازواج من الثيران، معقوفة القرون، المحراث الثقيل، شاقة في السهب الشاسع، الاخاديد بسكة المحراث اللامعة، تنقلب تربة دهينة لدرجة ان المرء لا يتصورها تربة، بل زبدة سوداء، ويتمنى أن يضع منها طبقة على قطعة من الخبز ويأكلها. مهما جعلت المحراث الثقيل يدخل عميقاً في الارض، مهما صارت سكته اللامعة البياض تشق بطن الارض، فأنك، مع هذا، لن تصل، في حال من الاحوال، بالعمق، الى الطبقة الطينية الميتة. ورغم ذلك تقلب السكة الفولاذية اللامعة تربة بكر، لم تمسها يد انسان، وحيدة من نوعها في العالم. تلك هي الاراضي السوداء التى تصل طبقة تربتها الخصبة، في بعض الأماكن، اكثر من مترين.

أما اية قوة، اية قوة جبارة تتفجر في هذه الارض! فما ان يغرس طفل عوداً مرمياً في الارض، عابثاً، الا وتراه قد برعم، وسرعان ما ينمو ويصير شجرة كبيرة، كثيفة الاغصان، وارفة الظلال. وأية انواع من الاشجار المثمرة والخضار لا تنمو هنا! الكروم، البطيخ الاحمر والاصفر، الكمثرى، الأجاص، الطماطم، الباذنجان، وباحجام كبيرة، غير طبيعية، لا مثيل لها.

تتصاعد الغيوم من فوق الجبال، وتزحف فوق السهوب، وما يلبث ان يتساقط المطر، ويسقي الارض العطشى، ثم تشرق شمس قوية - وتحفل البلاد بمحاصيل لا حصر لها.

- ليس ثمة بقعة على وجه المعمورة اجمل من منطقتنا!..

لكن، من هو مالك هذه الارض الرائعة؟

قوزاق منطقة الكوبان هم أصحاب هذه المنطقة بالطبع. فلدى هؤلاء عمال من ابناء الشعب الكادح، وعددهم يساوى عدد القوزاق انفسهم. وهم ايضا يغنون الاغاني الاوكرانية، ويتحدثون باللغة الاوكرانية الام.

شعبان من عائلة واحدة، وكلاهما نزحا من اوكرانيا الحبيبة.

في الحقيقة، ان القوزاق لم يأتوا بأنفسهم، انما طردتهم القيصرة يكاترينا الثانية قبل مائة وخمسين عاماً، عندما خربت «زابوروجسكايا سيج» - منظمة القوزاق الاوكرانيين الاحرار، ورحلت القوزاق الى هنا، ومنحت لهم هذه المنطقة النائية، الموحشة، القفراء، في حينها. ولقد بكى القوزاق بكاء مريراً على هذا التصرف، ملتهبة قلوبهم بالشوق والحنين لأوكرانيا. وزحفت الحمى الصفراء من المستنقعات، ومنابت القصب، فأنتشرت بينهم اضافة الى ذلك، كان الشركس القاطنون في هذه الاراضي يستقبلون القادمين الجدد بخناجر حادة، وبرصاصات دقيقة الاصابة، بينما كان القوزاق من اهالي زابوروجيه يذرفون دموعاً غزيرة، معيدين الى ذاكرتهم «زابوروجسكايا سيج»، الحبيبة لهم، وهم يصارعون، ليل نهار، الحمى الصفراء، وغدر الشركس، وجور الارض الموحشة القفراء، اذ كان يتعذر عليهم جعل هذه الاراضي البور، التي لم تمسها يد انسان قط، صالحة للزراعة.

اما الآن.. الآن:

- ليس ثمة بقعة على وجه المعمورة أجمل من منطقتنا!..

أما الآن، فان الجميع يطمع بهذه المنطقة الغنية بالثروات، والمحاصيل. وراح المعوزون، والمعانون من الفاقة والحرمان، من محافظات خاركوف وبولتافا ويكاترينا سلاف، وكييف، يمدون اياديهم بجزع، بفعل الفقر والجوع، ويهاجرون الى هذه المنطقة، حاملين اطفالهم، حاطين رحالهم في الستانيتسات، شاحذين اسنانهم مثل ذئاب جائعة متهيئين للوثوب على هذه الأرض رائعة الخصوبة.

– أياك ان تحاول! لن تحصل شبرا، هذه ارضنا.

وهكذا، فرض على هؤلاء النازحين الفقراء ان يصبحوا اجراء لدى القوزاق، واطلقوا عليهم تسمية «القادمون من مناطق اخرى»، والقموهم انواعاً شتى من العذاب، وجعلوا المدارس الشعبية القوزاقية وقفاً على اطفال القوزاق دون اطفال المهاجرين، ويستلمون أجورا بدلا عن لقاء شبر الارض الذي يؤجرونه هؤلاء لجعله بستاناً او لتشيد مسكن عليه. والقوا على عاتقهم كل مصاريف الستانيتسا، واطلقوا عليهم تسميات يكمن فيها الازدراء والاحتقار: «ارواح شريرة» و «اكولون وقحون» و «أجلاف».

أما النازحون، فقد كانوا ذوات ارادة قوية، مثل الحديد. ولأنهم لا يملكون شبراً من الارض، أقبلوا على احتراف مهن مختلفة، وعلى النشاط الصناعي، وبسطوا اياديهم نحو نبع المعرفة، والثقافة، والمدارس. بحيل مختلفة، وأطلقوا على القوزاق القاباً مماثلة في الاحتقار والازدراء: «اقطاعيون...» و «فزاعة»... وغيرها... وهكذا احتدمت الكراهية والبغضاء بين الطرفين. وكانت الحكومة القيصرية، بضباطها، وجنرالاتها، واقطاعييها، ترمي الهشيم على نار هذه العداوة والبغضاء، وتشعل لهيبها اكثر.

وصارت البغضاء والكراهية، والحقد الاسود، والمرارة تكتنف هذه المنطقة رائعة الجمال.

لكن، لم يكن جميع القوزاق، ولا جميع النازحين، يتعاملون مع بعضهم البعض بمثل هذه المعاملة. فهؤلاء النازحون، الذين تمكنوا ان يرفعوا عن كواهلهم ثقل الفقر والعوز، بمثابرة في العمل، وقوة في الاصرار، وبحنكتهم، اصبحوا يلقون الاحترام من لدن القوزاق. فهم يملكون الطواحين المشتراة ويزرعون اراضي القوزاق بعد تأجيرها، ويشغلون اجراء من ابناء ملتهم الفقراء، ويودعون اموالهم

في البنوك، ويتاجرون بالحبوب. يلقون الاحترام من لدن هؤلاء القوزاق الذين يملكون بيوتاً زاهية كبيرة، وعنابر عامرة، تفيض بالحنطة فالغراب لا يفقأ عين غراب!.

لماذا يركض القوزاق، المرتدون ستراً طويلة، بصياح، مميلين باباخاتهم، ذهاباً واياباً في الشوارع، فيتناثر وحل آذار من تحت حوافر خيولهم، وتلمع الطلقات في السماء الربيعية الزرقاء؟ هل ثمة احتفال؟ وتدق النواقيس برنينها المنشرح في الستانيتسات والقرى. ويرتدي الناس، جميع الناس، القوزاق والنازحون، الفتيات والمراهقون والشيوخ والشباب، ملابس احتفالية – ولقد خرجوا الى الشوارع الربيعية التي يسودها المرح.

قد يكون عيد الفصح؟ لا.. ليس هذا عيداً دينياً! انه احتفال جماهيري، أول احتفال من نوعه خلال قرون، منذ ان ظهرت الارض الى الوجود.

فلتسقط الحرب!

يحتضن القوزاق بعضهم بعضاً، ويفتحون احضانهم للنازحين من مناطق اخرى، وهؤلاء النازحون يحتضنون القوزاق: لم يبق قوزاق ولا نازحون، الجميع مواطنون حسب. لم يبق «اقطاعيون» ولا «ارواح شريرة»، الجميع مواطنون حسب.

فلتسقط الحرب!

في شباط أزاحوا القيصر، وحدث في تشرين الأول، حادث ما، في روسيا البعيدة، لا أحد يعرف بالضبط ماذا حدث، انما بلغت قلوب الجميع عبارة واحدة فتعلقوا بها:

فلتسقط الحرب!

دخلت هذه العبارة قلوب الجميع، مفهومة، الى حد لا يصدقه العقل.

وعادت الافواج، من الجبهة التركية، فوجاً بعد آخر. عاد الخيالة القوزاق، وسارت كتائب مشاة القوزاق الكوبانيين بصفوف متراصة، ورجعت افواج المشاة المشكلة من ابناء النازحين من مناطق اخرى– كل هؤلاء عادوا سيولا غير منقطعة الى ستانيتساتهم العزيزة في كوبان، عادوا بأسلحتهم وذخيرتهم وعتادهم العسكرى، رجعوا مع مواكب العربات. وكانوا في طريقهم يهدمون معامل الفودكا، ومستودعاتها، ويحتسون منها حتى الثمالة، يغرقون ويحترقون في بحر من المسكرات، ويتوجه من سلم منهم الى ستانيتساتهم وقراهم حشودا غفيرة.

بينما حلت السلطة السوفييتية في منطقة كوبان، ووصل العمال من المدن، والبحارة من البواخر الغرقى، فأنكشف فجأة، كل شيء، واتضح تمام الوضوح: الاقطاعيون والبورجوازيون والقادة الميسورين، واشعال البغضاء بين القوزاق والنازحين، وبين كل شعوب القفقاس، من قبل السلطات القيصرية. وراحت تتطاير رؤوس الضباط، واخذ القوزاق يضعونهم في اكياس، ثم يلقون بهم الى البحر.

بيد انه كان لا بد من حراثة الارض وزراعتها، لان الشمس كانت رائعة في اشراقتها – شمس جنوبية – تغمر الارض بنورها اكثر فاكثر.

كيف نحرث الارض يا ترى؟ ينبغي تقسيمها، والا فأن الوقت يداهمنا – قال النازحون للقوزاق.

– تريدون الارض؟ – أجاب القوزاق بوجوه متجهمة قاتمة.

وأخذ الفرح، الذي انبثق مع قيام الثورة يتلاشى.

– تريدون الارض؟ السفلة! فكر القوزاق واقلعوا عن قتل ضباطهم وجنرالاتهم، وراحوا يتسربون من كل الشقوق والمنافذ، ويضربون اياديهم على صدورهم اثناء الاجتماعات القوزاقية السرية، ويقولون بحرارة:

– لقد قرر البلاشفة أخذ كل الارض من القوزاق واعطاءها للنازحين من مناطق اخرى، وجعل القوزاق اجراء. والذين لا يوافقون على هذا ينفون الى سيبيريا، وتصادر جميع ممتلكاتهم و تمنح للنازحين.

اكفهرت منطقة الكوبان، وزحف فيها سراً، وبخطوات متأنية، بصيص نار، ما لبث أخذ بأطراف السهب والوهاد وخمائل القصب والجهات الخلفية للستانيتسات والقرى.

– ليست هناك بقعة على وجه المعمورة اجمل من منطقتنا!

ومن جديد صار القوزاق «اقطاعيين» و «فزاعة» وما الى ذلك من اسماء.

– ليست هناك بقعة على وجه المعمورة اجمل من منطقتنا!

ومن جديد صار النازحون «ارواحاً شريرة» و «أكولين شرهين» و «أجلافاً».

لقد اختلط الحابل بالنابل في آذار العام ١٩١٨، اما في آب من العام نفسه، والذى كانت فيه هذه المنطقة لما تزل قائظة، وسحابات الغبار الحار تعوم فوق اراضيها بكثرة، فبدأوا يأكلون الثمار المرة، المسيلة للدموع، التى آتاها هذا العمل.

لا يجري نهر كوبان في اتجاه معاكس، صوب الجبال. ولن تعود الايام الماضية ابداً. كما لم يعد القوزاق يؤدون لضباطهم تحية عسكرية، وحتى عندما كانوا يرنون اليهم، كانت تعود الى ذاكرتهم العذابات التي لقوها على ايديهم، وكيف كانوا يحولون الى لحم مقطع. لكن، مع ذلك، هاهم اولئك القوزاق يعطون الآونة الضباط آذاناً صاغية وينفذون اوامرهم.

ترن الفؤوس. تتطاير نشارة الخشب البيضاء، ويمتد الجسر الى الطرف الآخر من النهر يجتازه الخيالة بسرعة وضجة. يتبعهم المشاة، ويتسارع القوزاق في لحاق العدو الاحمر.

الفصل السابع

تصر العربات، يسير الجنود، وهم يخطرون بأياديهم. وقد انتفخت عين هذا، وصار انف ذاك بحجم ثمرة خوخ كبيرة، وتخثر الدم على وجنتى الثالث. لا تجد جنديا بدون كدمات. لكنهم يسيرون وهم يخطرون بأياديهم، ويتحدثون بفرح:

– لقد ضربته في انفه مباشرة، فأريته نجوم الظهر.

– أما أنا فتكومت عليه، وضغطت على رأسه بعد ان وضعته

بين ساقي، ورحت اضرب على اليته... ولم يلبث السافل أن عض «الشيء» الذي بين فخذي.

– ها.. ها.. ها!.. – انفجر الجنود في الضحك.

– كيف ستنام مع زوجتك بعد هذه الحادثة؟

انهم يحدثون بعضهم بعضاً فرحين. ولا احد منهم يتذكر كيف سارت الامور على هذا النحو؛ ازيحت البنادق والخناجر، التى كان ينبغي ان يقتلوا وينحروا بها بعضهم بعضاً، فتركت، و عمدوا الى الايدي، وراحوا يوجهون اللكمات والضربات الى بعضهم البعض بانفعال شديد وتجلد.

كان الجنود يرافقون اربعة أسرى قوزاق من الستانيتسا، ويستجوبونهم على الماشي. وكانت وجوه هؤلاء الاسرى القوزاق مليئة بآثار دم وبقع زرقاء، وقد خبت وقدة عيونهم، مما جعلهم، وهم على هذه الحال، أشبه بالجنود.

– ماذا دهاكم يا كلاب، يا ألف خازوق في مؤخراتكم! لماذا بدأتم العراك؟ ألم يكن لديكم من سلاح؟

– ما العمل، لقد طيرت الخمرة عقولنا – وألتبس الأمر على القوزاق. فأحنوا رؤوسهم شاعرين بالذنب.

لمعت عيون الجنود:

– من اين حصلتم على الخمر؟

– ما ان بلغ الضباط اقرب ستانيتسا، الا و أخرجوا من باطن الارض ما يقارب من خمسة وعشرين برميلا من الخمر. اغلب الظن، قد جلبها رجالنا من أرمافير، حين نهبوا مصنع الفودكا، واخفوها في البساتين. صففنا الضباط وقالوا: «اذا افلحتم في احتلال الستانيتسا سمحنا لكم باحتسائها». اما نحن فأجبنا: «اسمحوا لنا بان نحتسي منها الآن شيئاً، بعد ذلك سنفرقهم شذر مذر مثل الدجاج... واعطوا كل مقاتل قارورتين. وفرضوا علينا احتساؤها بلا مزة، لكي تساور الفودكا رؤوسنا. هكذا، حين هجمنا صارت البنادق تضايقنا، فازدرينا بها.

– آخ، يا لكم من سفلة!! – انتفض جندي، – لقد فعلتم كالخنازير – ورفع قبضته ليضربه في فمه.

نصحه بقية الجنود:

– أياك! لقد سممه الضباط وانت تضربه؟

بعد أن اجتازوا منعطف الطريق توقفوا، وأخذ القوزاق يحضرون قبراً جماعياً لأنفسهم.

والعربات تمر، لا نهاية لها، محدثة سحابات خانقة من الغبار، تتقدم، تصر، وتلتوي في الدرب السهبي الممتد عشرات الكيلومترات، وهنالك في البعد، انداحت الجبال بلونها الازرق. وكانت تلوح في العربات وسادات حمراء مكومة ومجارف وفؤوس وبراميل، وتلمع المرايا والسماوارات لمعاناً حاداً، وتظهر رؤوس الاطفال وآذان القطط من بين الوسادات واكوام الملابس واللباد والخرق، وتقوقىء الدجاجات في السلال المجدولة. فيما البقرات المربوطة تمشي في المؤخرة، والكلاب الشعثاء تركض مسرعة، لاهثة، مادة السنتها، وراء العربات، محتمية بظلالها. تصر العربات والامتعة مكومة عليها، لأن النساء و الرجال كانوا يرمون بنهم كل ما تقع عليه اياديهم في العربات، عندما اضطروا مغادرة بيوتهم هرباً من القوزاق المعلنين العصيان.

وليست هذه هي المرة الأولى التى يواجه فيها النازحون من مناطق اخرى هذا المصير. ذلك ان شرارات فردية لعصيان القوزاق وتمردهم على السلطة السوفييتية كانت قد اجبرتهم اكثر من مرة في الفترة الاخيرة ان يتركوا مأواهم، غير ان ذلك لم يكن يستمر الا ليومين او ثلاثة؛ اذ سرعان ما كانت القوات الحمراء تعيد النظام الى نصابه، وتعود المياه الى مجاريها.

أما الآن، فلقد استمر النزوح وقتاً طويلا. فمضى عليه الاسبوع الثاني، بينما حملوا معهم من الخبز ما يكفي اياماً قليلة. انهم ينتظرون، كل يوم، ينتظرون بنفاد صبر أن يسمعوا، اخباراً تعلن لهم امكانية العودة الى بيوتهم. بيد ان الوضع يزداد تعقيداً خلافا لامالهم، وتلتبك الامور، ويمضي القوزاق في عصيانهم بغضب مستشيط، وتأتى الاخبار من كل مكان حاملة انباء عن المشانق التي نصبت في الستانيتسات، والنازحين الذين يعلقون عليها. فمتى تحل نهاية لهذا الوضع؟ وماذا سيكون مصير المتاع والخيرات المتروكة؟

تصر العربات، بمختلف انواعها، تلمع المرايا امام ضوء

الشمس. تتأرجح رؤوس الاطفال بين الوسائد، ويسير الجنود المرتدين ملابس متنوعة في الطريق، في الاراضي المحروثة على حافة الطريق، في البساتين، التي نظفوها من البطيخ الاحمر والاصفر والقرع وعباد الشمس مثل اسراب الجراد. لم تبق سرايا وكتائب وافواج، لقد اختلط كل شيء والتبك. كل يسير كيفما واينما اتفق. بعض يردد الاغاني. والبعض الآخر يناقش ويتصايح ويتبادل الشتائم، وبعض ثالث القى بنفسه في العربات، وغفا، مرنحاً رأسه في كل الاتجاهات.

لا أحد يفكر بالخطر، بالعدو، وينعدم الولاء للقادة. وعندما يحاول القادة تنظيم هذا السيل الهادر بعض الشيء، يرسلون بهم الى الشيطان. ويواصلون النواح باغان بذيئة معلقين البنادق من اكتافهم، اخامصها نحو السماء مثل هراوات، وهم يدخنون الغليون، ويقولون:

«ليس هذا العهد بالعهد البائد».

يضيع كوجوخ في هذا السيل غير المنقطع ويضيق صدره كأن حجرا يجثم فوقه، اذا أغار القوزاق ستهدد السيوف رقاب الجميع. ثمة أمل واحد فقط، وهو، حين يحدق الموت بالناس، يثبون جميعهم مثل أمس، بطاعة ووفاق، وينتظمون في صفوف استعداداً للقتال، والا يفوت الأوان؟ وكان يود لو امتلك اشارة انذار اكثر سرعة في حث الناس.

اما في السيل الصاخب على نحو غريب فكان الجنود المسرحون من الجيش القيصري والمنظمون الى جيش السلطة السوفييتية يسيرون ويسيرون. وكان يسير معهم متطوعون ملتحقون في صفوف القوات الحمراء، واكثرهم من الحرفيين الصغار - صناع براميل، برادون، سمكريون، نجارون، صناع احذية، حلاقون، وعدد كبير جدا من الصيادين. كل هؤلاء الناس الفقراء الذين بالكاد كانوا يحصلون قوتهم اليومي من ابناء المهاجرين من مناطق اخرى، كل هؤلاء الناس العاملون، كان مجيء السلطة السوفييتية بالنسبة لهم نقلة فجائية، فتحت عيونهم على الحياة، فأحسوا بغتة ان بمقدورها ألا تكون مثلما كانت عليه في السابق، اشبه بحياة الكلاب، ومع هذا فأن الغالبية الساحقة من الجماهير هي من الفلاحين. هؤلاء

الفلاحون تركوا استثماراتهم في كل مكان تقريباً، حيث لم يبق غير الاغنياء والضباط الذين لم يحرك القوزاق المدبرون فيهم ساكناً.

يمضي قوزاق الكوبان راكبين جياداً أصيلة. تتمايل قاماتهم الرشيقة، بسترات شركسية طويلة، ممنطقة بشدة، وتزوغ انظارهم دهشة. وهؤلاء ليسوا اعداء، انما هم اخوة ثوريون، هم قوزاق فقراء، و غالبيتهم من المقاتلين السابقين في الجبهة الذين اوقدت الثورة في قلوبهم شرارات لا تنطفىء، حينما كانت نار الحرب تلفعهم ويخنقهم دخانها، ويحصدهم الموت آلافا.

سرايا كثيرة من جنود الخيالة معتمرون باباخات كثة الشعر عليها شرائط حمر، متنكبون البنادق على الاكتاف، حاملون خناجر وسيوف سوداء وفضية لامعة... يسيرون بصفوف منتظمة، مرتبة، خلال التشتت والفوضى.

الجياد الاصيلة تهز رؤوسها.

سيحاربون مع آبائهم وأخوتهم. لقد تركوا في قراهم كل شيء: بيوتهم، ماشيتهم، متاعهم...، مزارعهم مخربة. يسيرون بصفوف منتظمة، تلوح شرائط مغراء قانية مربوطة بلباقة بباباخاتهم من قبل اياد لطيفة، ويغنون بأصواتهم الشابة الجهورية اغنيات اوكرانية.

يرنو كوجوخ اليهم بود: «بوركتم يا اولاد! كل الامل فيكم...» لكنه يصوب نظراته بود وحب عميقين، اكثر عمقاً، صوب حشود النازحين السائرين بتعب، كيفما اتفق، وسط سحابات الغبار، وهم حفاة عراة، لأنه هو من لحمهم ودمهم.

وتتبعه حياته، بلا انقطاع، مثلما يتبع الظل المتطاول المنحنى جسده، تلك الحياة التي يمكن التغاضي عنها، بيد ان الخروج من دائرتها شيء مستحيل. حياته أشبه بظل عادية قاتمة ممتدة على السهب، مفعمة بالعمل والجوع والفاقة والحرمان. والدته ما تزال شابة، لكن وجهها قد امتلأ بالغضون والتجاعيد، مثل فرس هزيل أضناه الكلل. لقد انجبت جمعاً من الاطفال، تراهم اما في حضنها او متحلقين حولها. والده أجير زراعي لدى القوزاق منذ نعومة اظافره، تصلبت عروقه من العمل، مع هذا، تراه صفر اليدين، خالي الوفاض.

عمل كوجوخ منذ السادسة من عمره راعياً. السهب، والوهاد،

والاغنام، والغابة، والابقار، والغيوم المتراكضة وظلالها المتسارعة على الارض – تلك كانت مدرسته.

ثم عمل خادما، حاذقا ونشناشا، في متجر احد الاغنياء في الستانيتسا، حيث تعلم القراءة والكتابة رويداً رويداً. بعد ذلك استدعي الى الجيش ليكون جندياً، وارسل الى الجبهة التركية... كان من اروع الرماة بالرشاشات. قاد فريقاً من الرماة بالرشاشات عبر الجبال الى خلف جبهة الجيش التركي، الى الوادي: كانت الجبهة التركية تمتد على طول السلسلة الجبلية. حينما تراجعت الفرقة التركية واخذت تنزل الجبل نحوه، راح يطلق النار ويحصد الاتراك بالرصاص، فسقط الجنود قتلى صفوفاً صفوفاً مثل اكوام الحشيش، وأخذ الدم الحار، المتبخر، يتدفق نحوه. لم يخطر بباله، من قبل، قط، ان دم الانسان قد يتدفق تيارا يصل الركبة. ومع ذلك كان هذا دم تركي سرعان ما دخل في دائرة النسيان.

وارسلوه الى مدرسة الضباط تقديراً وتثمينا لبسالته النادرة. ويا لها من ايام صعبة كانت. كاد رأسه ينفجر. بيد انه كان يواظب على السعي والدراسة بأصرار وعناد ثور، ومع ذلك... سقط! كان جميع الضباط يهزأون به، المربون منهم والمدرسون، وطلبة الكلية العسكرية: فلاح، ويريد ان يصبح ضابطاً! سافل مثل... فلاح... حيوان غبي! ها.. ها.. ها.. يريد ان يصبح ضابطاً!

كان كوجوخ، في قرارة نفسه، يكرههم كرهاً شديداً، يضغط على اسنانه، وينظر اليهم شزراً مقطب الجبين. أعادوه الى الفوج باعتباره غير لائق للدراسة.

من جديد الرصاص، وآلاف القتلى، والدماء، والانين. ومن جديد تحصد رشاشاته الاجسام (عيناه ثاقبتان حادتان) ويتساقط الناس صفوفاً صفوفاً مثل السنابل. فلم يكن يفكر ابان اللحظات الحرجة، المتشنجة اللاانسانية في المعارك، اثناء الموت الذى يحلق في كل لحظة حول رأسه، لم يكن يفكر لاى غرض تصل سيول الدماء الركبة: من اجل القيصر، الوطن، أم الدين الارثذوكسي؟ ربما، لكن كل ذلك كان غامضاً مثل ضباب. أما الشيء الواضح، بالنسبة له، وضوح الشمس، هو انه يسعى الى شق طريقه وصولا الى رتبة الضابط، خلال الأنين، والدماء، والموت،

وسوف يكون له ذلك، مثلما شق طريقه من راع الى خادم في دكان.

ولذلك كان يتصرف في الاماكن المتفجرة بالرصاص بمنتهى الهدوء، بفكيه القويتين كالحجر، وكأنه في مزرعته، اثناء الحصاد، وهذا الذي يتساقط حواليه ليس الا عشب محشوش.

ويبعثونه للمرة الثانية الى مدرسة الضباط. ذلك لأن الجيش كان يعانى نقصاً شديداً في الضباط، وعادة، اثناء الحرب، لا يكفي عدد الضباط، بينما هو، كان عملياً يؤدي مهمات ضابط، واحياناً يقود فصائل كبيرة، ولم يندحر مرة في معركة. لأنه، يعتبر بالنسبة للجنود من جماعتهم، نازح من اصلهم، فلاح مثلهم، ولهذا يتبعونه بطاعة، يتبعون هذا المجدور ذا الفكين القويين في سعير النار وعمق البحر. من اجل ماذا؟ من اجل القيصر، الوطن، أم الدين الارثذوكسي؟ ربما. لكن هذا الاستنتاج يعوم في ضباب دموي، غير واضح، والى جانبه تنبثق الفكرة التالية: لا بد ان نتبعه، وان اتباعه لا محالة... اذا تراجعنا اعدمنا رميا بالرصاص، فلهذا من الافضل الانقياد له، السير وراء رجل من جماعتنا، وراء مجدور، وراء فلاح.

يا للمشقة، ياللعذاب! يكاد رأسه ينفجر. فان تعلم العمليات الحسابية الاربع في الكسور العشرية أصعب بكثير من مواجهة الموت بهدوء تحت وابل من نار الرشاش.

اما الضباط فيضحكون – الضباط الذين تجمعوا في المدرسة بلا ضرورة او داع.. في اكثرية الحالات بلاداع، فالمؤخرة مكان هادىء دائما، ومزدحم بالهاربين من الجبهة الذين تستحدث من اجلهم آلاف المناصب المريحة غير الضرورية... الضباط ينفجرون ضاحكين: الفلاح الحقير، الاخرق، البهيمة الوسخة!.. ما اكثر تهكماتهم عليه ومساعيهم لافشاله فى اجوبته التى صارت صحيحة في آخر المطاف: فلقد امتلك ناصية العلم.

ولبث كوجوخ في الفوج مرة اخرى بسبب من... عدم لياقته للدراسة.

ومضات نار المدافع، شظايا الانفجارات، لعلعة الرصاص التى تصم الآذان. زوابع ضارب لونها الى لون النار والدم. «والموت

يزحف من كل الجهات، وتتحول ساحة المعركة الى جحيم» اما هو فيتصرف وكأنه في بيته... كأنه فلاح متدبر...

والفلاح المتدبر رجل صعب المراس، عنيد مثل ثور، اذا أدى عملا رمى عليه كل ثقله مثل صخرة. وليس عبثاً انه اوكراني، وجبينه العالي يطل على العينين - العينان الحادتان الصغيرتان.

وبسبب من حسن تدبيره واصراره على العمل بين براثن الموت أرسلوه الى مدرسة الضباط للمرة الثالثة.

والضباط يضحكون: هل عاد من جديد؟ الفلاح.. السافل.. المعدم! ويعيدونه الى الفصيل لعدم لياقته.

حينئذ اصدرت هيئة الاركان، في سورة غضبها، قرارا بمنحه رتبة ملازم ثان. وذلك نظرا لنقص هائل في الضباط.

هاي.. هاي! نقص هائل في الضباط: يقتلون اثناء المعارك، ويهربون الى خلف الجبهات.

قلدوا كوجوخ الرتبة بأحتقار. وظهر في السرية تلمع على كتفيه شارتان. كان كوجوح يعيش حالة هي بين الفرح والحزن..

يشعر بالفرح لأنه، على الرغم من كل شيء، تحقق اصراره المريع، الثقيل اللاانساني. ويشعر بالحزن، لأن الشارتين اللامعتين على كتفيه كانتا تقيمان جداراً بينه وبين جماعته، بين القريبين منه، بين المزارعين، بين الجنود. تقيمان جدارا بينه وبين الجنود، وفي الوقت نفسه لا تهدمان ذلك الجدار القائم بينه وبين الضباط. وهكذا بدأت حياة كوجوح تدور في حلقة فارغة.

لم يعد الضباط يوصفونه علناً بـ«الفلاح» و «السافل» و«اعدم»، الا انه كان يشعر اينما كان: في الربايا، في المطعم، في الخيم، وفي كل بقعة ارض اجتمع فيها ضابطان أو ثلاثة، يشعر بحلقته الفارغة. لأن هؤلاء الضباط، وان لم يتهمونه بالسافل علناً بلسانهم، فأن عيونهم، وملامح وجوههم، وكل حركة من حركاتهم كانت تصرخ بوجهه: «سافل، فلاح، نتن...»

كان كوجوخ يكرههم بهدوئه المعتاد، بصلابة ورباطة جأش قوية. كان يكن لهم اشد البغضاء ويحتقرهم. وبسبب من هذه الكراهية، والبغضاء، والانفصال عن الجنود، كان يتحلى ببرودة اعصاب، وبشجاعة نادرة، ابان المعارك التي يسقط فيها آلاف القتلى.

وفجأة زلزلت الارض زلزالها، فزلزلت معها كل شيء: جبال ارمينيا، الفرق التركية، الجنود، الجنرالات بوجوه تنم عن الحيرة والارتباك، المدافع الصامتة، قمم الجبال المكللة بثلوج آذار، وكأن الفضاء انشق وكشف عن اعاجيب غريبة، ورغم انها غريبة، فقد كانت دائما تعيش سراً، في الاعماق، لا تعلن عن نفسها، لكن - عندما تجلت الامور و فصحت - اصبحت هذه الاعاجيب الغريبة، عادية، واضحة، حتمية.

جاء اناس، عاديون، ذوو وجوه عمالية ضامرة، وأخذوا يمعنون في توسيع هذا الشق اكثر فأكثر وراحت تسح، من ثمة، الكراهية المطمورة قروناً عديدة، والاضطهاد المتواصل آلافاً من السنين، والعبودية الابدية المنتفضة.

ولاول مرة، ندم كوجوخ لأن ما سعى اليه طويلا بأصرار لمع على كتفيه اذ انه سرعان ما وجد نفسه في نفس الصف الذي يقف فيه اعداء العمال، اعداء الفلاحين، اعداء الجنود.

بعد ان تدحرجت أيام اكتوبر تباعاً نزع كوجوخ كتافيتيه بقرف، وحملته سيول الجيوش الهادرة القاصدة بيوتها، فاختفى في زاوية مظلمة من عربة قطار متقلقلة وسافر محاولا الا يراه أحد. كان الجنود السكارى يرفعون اصواتهم بالغناء ويبحثون لأصطياد الضباط المختبئين - فان كان لمحه أحد، لما وصل المكان المطلوب.

ولما صار هناك، كان كل شيء قد تقطع ارباً اربا. النظام البائد كله ، والعلاقات الاجتماعية القديمة، أما السلطة والعلاقات الجديدة فقد كانتا غامضتين، غير مفهومتين. القوزاق يتبادلون القبلات مع النازحين من مناطق اخرى، يصطادون الضباط، ويشطبونهم من الوجود.

تناثر العمال القادمون من المعامل، والبحارة الوافدون من البواخر الغرقى بين الناس الفرحين مثل حبات الخميرة، فاختمرت منطقة كوبان، كالعجينة، في انتفاضة ثورية. ودخلت السلطة السوفييتية الستانيتسات والقرى.

لم يكن بمستطاع كوجوخ التحدث بمصطلحات: «الطبقات، الصراع الطبقي، العلاقات الطبقية» و غيرها، لكنه تلقفها بقلبه من شفاه العمال، وشعر بها، وأحسها. وان كلمة «الضباط» التي

كانت تبعث فيه الكراهية الشديدة، بدت له الآن صغيرة، تافهة، امام هذا الشعور، امام هذا الاحساس العظيم بالصراع الطبقي: الضباط، ليسوا الا خدم مساكين للاقطاعيين والبرجوازيين.

اما آثار الكتافيتين اللتين حصل عليهما في حينه بمثل هذا الاصرار الذى يستحيل وصفه، فكانت تلدغ كتفيه: مع ان الناس كانوا يعرفونه كواحد من جماعتهم، لكنهم نظروا اليه بارتياب. وفي هذه المرة أيضاً، قرر برباطة جأش، بأصرار اوكرايني أن يزيح هذه الآثار بالحديد الحامي، بدمه، بحياته، وان يخدم كالسابق – بل يخدم اكثر بما لا يقاس – جمهور الفقراء الذين هو من لحمهم ودمهم.

وسنحت له فرصة... راح الفقراء يستأصلون البرجوازية. وبما ان هذا المفهوم شمل كل من يملك سروالا زائدا، اخذ الشباب يهاجمون البيوت، يكسرون الصناديق، ويأخذون ماتقع عليه ايديهم ويتقاسمونه، ويرتدونه مباشرة هناك: لانه كان ينبغي ان يجعلوا الجميع سواسية في الحياة.

ودخلوا ذات يوم بيت كوجوخ بغيابه، واستولوا على لباس عثروا عليه. وبقى كوجوخ كما كان – يرتدي قميصاً عسكرياً ممزقاً وقبعة قديمة مصنوعة من القش، وخفين مهلهلين. اما زوجته فلم تكن تملك غير رداء واحد. لوح كوجوخ بيده وهو مفعم بشعور واحد، بفكرة ملحاحة واحدة.

بدأوا بفرض المساواة بين القوزاق ايضاً، وحينما جاء وقت توزيع الاراضي غلت منطقة كوبان غلياناً شديداً، واسقطت السلطة السوفييتية بحركة يد.

يسير كوجوخ الآونة بين الصريف، والاحاديث، والضجيج، وصهيل الخيل، وسحابات الغبار اللامتناهية.

الفصل الثامن

تبلبل بابل في المحطة الاخيرة الواقعة في اطراف الجبال: ضجيج، صياح، بكاء، مسبات متذعة، وحدات عسكرية متفرقة، مجموعات منفردة من الجنود. بينما يتواصل من وراء المحطة صوت الرصاص، صياح، ضحك، وتهدر المدافع من حين لآخر.

حل كوجوخ مع طابوره ونازحيه. وبلغ سمولوكوروف الآن مع طابوره ونازحيه أيضاً، وتواصل قدوم الفصائل الاخرى، بلا انقطاع، من جميع الجهات، هرباً وتخلصاً من القوزاق. وفي هذه البقعة الاخيرة تحشدت عشرات الآلاف من الناس اليائسين: الكاديت والقوزاق لايرأفون بأحد، لا بالصغير، ولا بالكبير. يضربون رقاب الجميع بسيوفهم، ويعرضون صدورهم للرصاص، يعلقونهم على الاشجار، او يرمون بهم في الوديان العميقة، أو يواروهم التراب والحجارة وهم احياء.

لأكثر من مرة تسمع اصوات صارخة بأسى: «لقد خانونا.. خاننا القادة لقاء الخمر!» وعندما ازدادت نيران المدافع شدة قالت الاصوات فجأة:

- لينقذ نفسه من يتمكن الى ذلك سبيلا!.. اهربوا يا اولاد!..

كان الشباب في طابور كوجوخ يصدون هجوم القوزاق ويردعون الذعر بصعوبة بالغة، الا ان ذلك لن يستمر طويلا على ما يبدو.

كان القادة يتشاورون كل لحظة، لكن حصيلة اجتماعاتهم كانت لقلقة في بقبقة ليس الا، فلم يكن احد يعرف ماذا سيحدث في اللحظة المقبلة.

وافصح كوجوخ:

- المجال الوحيد الذي امامنا للخلاص هو اجتياز الجبال والالتفاف الحثيث سيراً بمحاذاة البحر، من اجل الالتحاق بقوانا الرئيسة. وسأبدأ انا الآن بالسير.

- اذا حاولت السير سأفتح عليك النار - قال سمولوكوروف الضخم ذو اللحية السوداء الكثيفة، والاسنان اللامعة البياض - لابد من الدفاع عن النفس بشرف وليس الهرب.

بعد نصف ساعة انطلق طابور كوجوخ، ولم يجرؤ أحد على الوقوف في طريقه. وماان سار طابور كوجوخ الا وتبعه فى ذعر عشرات الآلاف من الجنود والنازحين والعربات، والحيوانات،

متحشدين على الطريق العام، متزاحمين، كل يحاول التقدم على الآخر، ويلقي الذي يعيق دربه جانبا.

وزحفت في الجبال قافلة من الناس والعربات والحيوانات مثل أفعى طويلة.

الفصل التاسع

ساروا طوال النهار وطوال الليل، ودون ان يحلوا عدد الأحصنة، توقفوا، قبل الفجر، شاغلين عدة فراسخ من الطريق. وكانت ثمة نجوم كبيرة تتلألأ فوق المضيق، جد قريبة. وتناهى خرير المياه الصاخبة من الشعاب. الظلام والصمت يلفان كل شيء، وكأن ليس ثمة من جبال، أو غابات او جروف، ولم يعد يسمع مضغ الخيول. وما كاد الناس يطبقون جفونهم الا وتلاشت النجوم، وانداحت مرتفعات غابية بعيدة، وامتد ضباب حليبي الى الشعب. نهضوا من جديد وزحفوا على امتداد عشرات الفراسخ من الطريق.

سطعت من وراء سلسلة الجبال البعيدة شمس لافحة مغشية للعيون، فطردت الظلال الزرقاء بعيداً وراء الجبل. بلغ افراد مقدمة الطابور المضيق. بلغوا المضيق وفغروا افواههم من العجب: مضيق واسع جداً يقطع سلسلة الجبال، وتلوح في اسفله مدينة بيضاء، يرتفع من ورائها، بحر ازرق مثل جدار هائل، جدار على قدر كبير من الضخامة بحيث ان زرقته الكثيفة عكست لونها في عيون الجميع.

– أوه، انظر، بحر!

– لكنه، لماذا يقف مثل جدار؟

– يتعين تسلقه.

– لماذا عندما يقف المرء على شاطئه يراه مستوياً؟

– ألم تسمع كيف قاد موسى اليهود من مصر... ضربه بعصا؟ فقد حدث لهم مثلما يحدث لنا الآن، اصبح البحر جداراً وساروا عليه كما على اليابسة؟

– اما نحن ربما سيحاصرنا، ولن يسمح لنا بأجتيازه.

– هذا بسبب غاراسكا، له خفان جديدان، حتى لا يبتل.

– يتعين استدعاء قسيس، انه سيحل كل شيء...

– ضع قسيسك المشعر في سروالك...

تنزل الصفوف بخطى واسعة، يخطر الناس بأياديهم على نحو اكثر مرحاً، وتتسلل الضحكات والاحاديث بين الصفوف. يهبط الطابور اسفل فأسفل. ولا من احد يفكر بالباخرة الشبيهة بمكواة عظيمة سوداء، الساكنة بغيظ، والمدخنة، مقطبة وجه الخور الازرق – كانت تلك مدرعة المانية، تحيطها نسافات تركية، يرتفع منها ايضاً دخان اسود.

بينما تتدحرج من وراء قمة الجبل صفوف جديدة من الجنود المتخطين بمرح، وقد اذهل الجميع، على حد سواء، هذا الجدار الازرق الكثيف الممتد حتى السماء. تزرق العيون ويخطر الناس بأيديهم بنشاط، ويخطون خطوات اوسع في الطريق المتعرج الضارب الى البياض.

وفي هذا الطابور ارتال من العربات أيضاً. ترتج الخيول المقيدة رؤوسها في انيار. تركض الابقار خبباً بظرافة. يصعد الاطفال زاعقين فوق الحطب. يتسارع الكبار ساندين العربات المتدحرجة. يسير الجميع، منحدرين في تعرجات الطريق يمينا وشمالا متسارعين بفرح للقاء مصيرهم المجهول.

ارتفعت من الوراء قمة المضيق، حاجبة نصف السماء.

امتدت مقدمة الرتل الهابطة من الجبال، والملتفة حول المدينة بين الخور ومعامل السمنت مثل افعى لا نهاية لها، بعيداً في شريط ضيق. دنت جبال حجرية جرداء من الشاطىء من طرف، ومن طرف آخر تأوهت القلوب لمرأى رحابة البحر المترامية بمثل هذه الزرقة الحنونة.

لا دخان، ولا اشرعة بيض، ماخلا دوائر مائية لا نهاية لها وحدود شفافة تعوم وتختفي على الحجارة الرطيبة. ولا يسمع القلب في هذا الصمت الذي لا قرارة له الا انشودة الخليقة وحدها.

– انظروا، لقد تمدد البحر من جديد.

– وهل فكرت انه سيبقى منتصباً كجدار؟ ولم يكن ذاك غير سراب منعكس من طرف الجبال، والا كيف كان يمكن اجتيازه؟

– هيه، غاراسكا، ضاع خفاك الآن، انهما يبتللان تماما عندما تمشي عبر البحر.

بينما يخطو غاراسكا مغتبطاً حافياً حاملا بندقيته.

تتدحرج ضحكات أليفة بين الصفوف، ومع أن هؤلاء السائرين في المؤخرة لم يسمعوا شيئا ولا يعرفون عم يدور الحديث الا انهم يضحكون أيضاً بمرح.

ويقول صوت حزين:

– اصبح الأمر، بالنسبة لنا الآن، سواء، وليس من مفر امامنا: من هنا البحر، ومن هناك الجبال، بينما القوزاق من الوراء وكان يطيب لنا ان نيمم شطراً، لكن ليس ثمة من مكان. وليس من منفذ آخر غير السير الى امام!

امتدت مقدمة الطابور بعيداً في الشاطىء الضيق، واختفت وراء منحنى البحر. كان وسط الطابور يلتف حول المدينة باستمرار، اما مؤخرته فكانت تزحف مغتبطة في الطريق، وتهبط من سلاسل الجبال عبر تعرجات الطريق الضاربة الى البياض.

لاحظ الحاكم العسكري الالماني الذي مكث في المدرعة حركة غير متوقعة في مدينة غريبة، لكنها واقعة تحت مرمى مدافعه، وهذا يعني الاخلال التام بالنظام: واعطى الاوامر لأيقاف جميع هؤلاء الغرباء من الناس والعربات والجنود والاطفال والنساء السائرين بالقرب من المدينة، وارغامهم على تسليم اسلحتهم وذخيرتهم وعلفهم ومؤونتهم، وانتظار أوامر تالية.

الا أن تلك الافعى الرمادية المعفرة بالتراب ظلت تواصل زحفها مسرعة كالسابق، وواصلت الابقار المعتنى بها سيرها خبباً مسرعة كالسابق أيضاً. بينما دلى الاطفال ارجلهم من العربات. كان الكبار ينهالون بسياطهم على ظهور الخيول الساحبة للعربات بصمت. وارتفع وقع خطوات واسعة كثيف من الصفوف، يتردد صداه في الاعماق. بينما كان الغبار الابيض يعوم سحابات.

وأخذ ينسكب في هذا السيل اللامنتهي الذي تصاحبه فرقعات واصوات ملفوحة برياح البحر ومسبات مقذعة، سيل آخر من العربات المحملة كاسراً مصطدماً بعربات السيل الأول وعجلاتها. وكان يرى المرء في عربات السيل الثاني اجسام بحارة مكتنزة ومرصوصة، تزرق على قمصانهم البيضاء ياقات مقلوبة، وتتدلى من قبعاتهم شرائط بالخطوط السود – الصفر. اتحدت مع هذا السيل اكثر من ألف عربة

بمختلف انواعها، تحمل نساء متزينات ونحو خمسة آلاف بحار يطلقون اقذع انواع الشتائم.

انتظر الحاكم العسكري الالماني، لكن احداً لم يلب طلبه بالوقوف.

عندئذ، هدرت اطلاقة مدفع من المدرعة ممزقة الهدوء العميق، وراح دويها يتواصل في الجبال والشعب وكأنما حدث انهيار شديد. بعد هنيهة تردد صداها في الافق الازرق النائي.

وانبثق فوق الافعى الزاحفة بمرونة عمود ابيض من دخان، وانفجر بفرقعة ثقيلة، وراح يتبدد على مهل.

شب الكميت، الذي كان يبدو في الليل حصاناً ادهم، على حين بغتة، على قائمتيه، وهوى بضجيج وعجيج محطما عريش العربة. هب ما يقارب من عشرين شخصاً نحوه، امسك البعض بعرفه والبعض الآخر بذيله وقوائمه واذنيه وكشته، وجروا الحصان رأساً من الطريق الى الترعة، وانقلبت هناك أيضاً العربة والارتال الضخمة وامتلأت الطريق بعرضها بالعربات المتدحرجة الى امام. تناولت غاربينا وابنتها آنكا ما وقع تحت ايديهما، باكيتين، من العربه المنقلبة، ودستا حاجياتهما في عربات الآخرين وسارتا على قدميهما، بينما انتزع العجوز بيدين مرتجفتين العدة والنير من الحصان الميت.

اطلقت المدرعة، وللمرة الثانية، لساناً طويلا ساطعاً من النار، ومن جديد هدر دوي في المدينة، تدحرج الدوي في الجبال، بعد هنيهة تناهى صداه وراء سطح البحر الهادىء. وولدت من جديد في الأعالي الزرقاء الساطعة كتلة ثلجية، وسقط الناس هنا وهناك يرافقهم الأنين، بينما تراخى طفل كان يرضع من ثدي امه الشابة ذات الحاجبين الاسودين والقرطين في اذنيها، بين يديها في العربة، وهوت يداه الصغيرتان، وفغر فمه الذي برد مفلتا حلمة ثدى والدته من شفتيه.

صرخت الام بصوت غريب متوحش. اندفع الناس نحوها. الا انها لم تكن ترتكن لهم، كانت تتخلص من اياديهم وتدخل ثديها الذي كان ينقط قطرات بيضاء من الحليب في الفم البارد. بينما كان الوجه الصغير ذو العينين نصف المغمضتين يذوي ويكتسي صفرة.

وكانت الافعى تزحف وتزحف ملتفة حول المدينة. ولاح أناس

وخيول، ثمة، في أعلى المضيق، تحت الشمس مباشرة. كانوا صغارا جداً، بالكاد يميزهم المرء، يقومون بشيء ما ويتحركون بيأس بالقرب من الخيول، بعد ذلك تسمروا فجأة.

في اللحظة نفسها هدر مدفع اربع مرات متتالية وراح صوته يتكسر ويتدحرج بين الجبال. بينما في الأسفل على قارعتي الطريق، في اماكن مختلفة من الفضاء أخذت تظهر بسرعة كتل بيضاء، وتنفجر، في البدء عالياً، ثم على مستوى اكثر انخفاضاً، واقرب الى الطريق، وراح الناس، يسقطون تارة هنا وتارة هناك، وكذا الخيول والابقار في انين وجئير، وكانوا يضعون الناس بسرعة، دون اهتمام بانينهم، في العربات، بينما يسحبون الابقار والخيول الى جانب الطريق، وتواصل الافعى زحفها، دون ان تبتعد العربات بعضها عن بعض.

غضب الحاكم العسكري الالماني. لقد كان بأمكانه اطلاق النار على النساء والاطفال، لأن النظام كان يتطلب ذلك. وخاصة لم يتجرأ أحد على اطلاق النار، بدون موافقته، هو. انتصب خرطوم المدفع الطويل على المدرعة واطلق لساناً هائلا من النار، وتواصل صوت القذيفة طائراً عالياً فوق البحر الازرق، فوق الارتال، فوق الجبال، وتهادى صداها. وسقطت هناك، قريباً من المضيق حيث كان يلوح أناس صغار جداً وخيول وعربات. تململ الناس هناك من جديد. واخذت بطارية ذات اربعة مدافع ترد على نيران الحاكم العسكري الالماني بطلقة اثر طلقة من القذائف، وراحت تولد فوق المدرعة في السماء الزرقاء كتلا بيضاء. سكتت المدرعة غاضبة. وشرعت سبطاناتها تنفث اعمدة من دخان اسود، فتقدمت متجهمة، وراحت تسير ببطء من الخور الازرق في زرقة البحر القاتمة، ثم استدارت، و...

...واشتعل البحر والسماء في انفجار هائل. اظلمت زرقة البحر. واهتزت الارض تحت الاقدام اهتزازاً قويا لا مثيل له، وراح دوي هذا الانفجار يتسلل الى القلوب والرؤوس، وانفتحت النوافذ والابواب في البيوت، واصيب كل شيء بالصمم هنيهة.

ارتفعت سحابات من دخان أسود كثيف لا يخترقه ضوء الشمس عند المضيق. وفي خضم هذا الدخان هوت زمرة من القوزاق، التي سلمت من الموت، بسياطها على الخيول المنطلقة بأقصى سرعتها

نحو الجبال، حاملة معها بقايا المدافع، واختفت بعد دقائق وراء سلسلة الجبال. ومكثت سحابات دخان اخضر واسود جاثمة فوق المنطقة، الى ان راحت تتبدد رويداً رويداً.

انشقت الارض من جراء هذا الاهتزاز العظيم، وانفتحت قبور: لقد سقط قتلى في جميع الشوارع. سار الجميع في اتجاه واحد، ممتقعين، بعيون محمرة منتفخة، مرتدين اسمالاً بالية، مجرجرين اقدامهم، زاحفين، وقازلين، صوب الطريق. البعض كان يحرك قدميه بعذاب صامتاً، مركزاً انتباهه، دون ان يرفع عينيه، البعض الآخر كان يوسع الخطى رامياً جسده مقطوع الساق، وراء عكازه، وهو يسبق الآخرين، بعض ثالث كان يركض صارخاً بصوت غير مفهوم مبحوح.

وكان يتناهى من مكان ما صوت واه، مثل صوت طائر جريح:

– ما...ء، ما...ء، ما...ء، – كان يتواصل هذا الصوت الشبيه بصوت طائر جريح فوق المرج اليابس الاصفر.

يخطو شاب، لما يزل غلاماً بعد، يرتدي اسمالا ممزقة يظهر منها جسده المصفر، خطوات متثاقلة، وينظر دون ان يرى بعينيه المحترقتين.

– ما...ء، ما...ء ...

كانت ممرضة، مقصوصة الشعر مثل صبي، ذات شارة صليب باهتة على ردنها الممزق تركض وراءه حافية:

– قف يا ميتيا... الى اين؟ ساعطيك ماء، شايا... قف... لنرجع الى وراء... انهم ليسوا وحوشاً.

– ما..ء، ما..ء ...

تغلق الابواب والنوافذ سريعاً في البيوت المستأجرة. ويطلق النار في ظهور الناس من العلالي ومن وراء الاسيجة. ويخرج الناس من المستشفيات والمستوصفات ومن البيوت، زاحفين، واثبين من النوافذ، قافزين من الطبقات العليا ويركضون في اثر الارتال السائرة.

وها هي ذي معامل الاسمنت والطريق... وتعبر الابقار، الكلاب، الخيول، الناس، العربات، بسرعة، الطريق – ذنب الافعى يواصل زحفه.

يهرع الناس المقطوعو الارجل والايدي وذوو الرؤوس المعصوبة بلفائف متسخة، والبطون الملفوفة دون ان يرفعوا اعينهم المتقدة عن الطريق. بينما تتوارى العربات وتتوارى، والناس السائرون وراءها وجوههم متجهمة، صامتة، ينظرون امامهم حسب. ويقف أحدهم، مترنحاً، متوسلا:

– يا اخوان!.. يا اخوان!.. يا رفاق!..

تتناهى من كل مكان اصوات مبحوحة أو قاطعة تارة أو نافذة رنانة مسموعة عند الجبال، تارة اخرى.

– يا رفاق، انا لست مصاباً بالتيفوئيد، انا جريح. يا رفاق!

– وانا لست مصاباً بالتيفوئيد أيضاً... يا رفاق!

– وانا أيضاً لست مصاباً...

– وانا...

– وأنا...

تزحف العربات.

تشبث احدهم بعربة مليئة حتى اعلاها بالاطفال والامتعة، وكان يمسك العربة بيديه ويتقافز راكضاً وراءها على رجل واحدة. انحنى صاحب العربة ذوالشاربين الابيضين والوجه المسود من لفح الريح والشمس، وامسك رجله الوحيدة وسحبه الى العربة على رأس الاطفال الزاعقين بأسى...

– ماذا دهاك! انتبه، ستخنق الاطفال! – صاحت امرأة مطوحة العصابة.

كان وجه الرجل ذيالساق الواحدة وجه اسعد انسان في العالم. بينما ركض آخرون متعثرين، ساقطين، ناهضين، على امتداد الطريق، أو كانوا يلوحون، وقد سقطوا منهاري القوى على جانبي الطريق.

– يا اعزائي، لو استطعنا لأخذناكم جميعا، وهل يجوز هذا، الى اين نأخذكم؟ ما اكثر عدد الجرحى من ذوينا، بينما ليس ثمة شيء يأكلونه، يا للأسف... – تذرف النساء الدموع ويمسحنها بأياديهن.

يركز جندي ضخم الجثة، ذو وجه عبوس، وساق واحدة، نظره امامه، فيرمى عكازيه على مسافة طويلة امامه، ثم يسرع الخطى ويقول:

– كذا من امهاتكم... يا ذرية الكلاب!

بينما يسير الرتل ويسير. اصبح الغبار المتعالى من العجلات الاخيرة بعيداً وضعف الصرير المتواصل من المحاور الحديد. المدينة والخور، كلاهما صارا في الخلف، ولم يبق في الامام الا الطريق المقفرة، التى كانت تسير فيها وراء الارتال السائرة المتمددة، اشباح ممتقعة مثل جثث الموتى، رويداً رويداً تتوقف تلك الأشباح بوهن، تجلس وتنطرح على جانبي الطريق. ويصوب الجميع عيونهم الدامعة في ذلك الاتجاه حيث اختفت آخر عربة. ويهبط الغبار على مهل مع الأصيل.

يواصل الجندي الطويل المقطوع الساق الخطو كالسابق بعكازيه، ودفع جسده اقوى في الطريق المقفرة، مدمدماً:

– كذا من امهاتكم!! لقد ارقنا دماءنا من اجلكم... يا ذرية الكلاب!..

يدخل القوزاق المدينة من الطرف الآخر.

الفصل العاشر

يطول الليل مضنياً متعباً. والحركة الصاخبة، المستمرة، لا تهدأ لحظة واحدة. وسيل من الناس، قاتم اللون، يجري، ويجري.

لقد بدأت النجوم ترسل نوراً شاحبة بأعياء، وراحت تلوح جبال بنية اللون، محترقة قفراء، وأوقاط، وشعاب.

تنفس الفجر، وأخذ النور يغمر السماء أكثر فأكثر، وتكشف البحر على نحو لا يقاس، بلون متغير بأضطراد. فتراه مغطى بطبقة بنفسجية رقيقة، او بلون ضارب الى بياض مدخن تارة ومتدثرا بزرقة السماء المنعكسة فيه تارة.

استضاءت قمم الجبال، ولمعت الحراب الداكنة، المتململة، اللاحصر لها.

على امتداد الجرف الصخري، المنحدر حتى حافة الطريق الرئيسية، تظهر بساتين الكروم، و تلوح بيوت الاصطياف و الفيلات، بلونها الابيض. ثمة كان أناس قليلون حاملين مجارف ومعاول، معتمرين قبعات القش، وقفوا يمعنون النظر الى صفوف الجنود

الطويلة، المارة أمامهم، وهم يخطرون بأياديهم، و يهزون حرابهم الحادة التي لا تعد و لا تحصى.

من عساهم يكونون؟ من أين جاؤوا؟ والى أين يقصدون هكذا، بلا توقف، هازين اياديهم بكلل؟ وجوههم صفر كجلد مدبوغ. ملابسهم معفرة بالتراب، ممزقة. عيونهم محاطة بهالات سوداء. عرباتهم تصدر صريرا. خيولهم، المنهكة من التعب، تضرب حوافرها الأرض بتثاقل فيسمع منها وقع خافت. والأطفال يطلون برؤوسهم من العربات أكبر الظن انهم يسيرون بلا استراحة، فحتى الخيل اطرقت رؤوسها.

وراح اولئك الناس يرمون التراب بالمجارف. ما شأنهم!.. لكن عندما كانوا يعدلون ظهورهم تعبين وتنتصب قاماتهم، يجدون السيل ينقاد منعطفا بمحاذاة تعرجات الشاطئ، مواصلا سيره، تلوح حراب جنوده، الذين لاحصر لهم، مهتزة.

لقد صعدت الشمس فوق هامات الجبال عاليا، وغمرت الارض بدفئها، وغدا النظر الى انعكاس اشعتها من البحر مؤذيا للعين. وحشود الجنود تواصل سيرها... ساعة... ساعتين... خمس ساعات. حتى صار افرادها يترنحون في مشيتهم، و أخذت الخيل تتوقف عن السير بين الفينة والاخرى.

– لقد جن جنون كوجوخ!

وينطلق السباب المقذع من الافواه.

أخبروا كوجوخ ان طابوری جنود سمولوكوروف، مع ارتال تموينهما، المنضمين الى طابوره، انفصلا عنه، وقضيا ليلهما في القرية، التي صادفتهما في الطريق، وهم الآن، في الطريق الرئيسية، بعيدون عنه حوالي عشرة فراسخ. فضيق كوجوخ عينيه الصغيرتين مخفيا شبح ابتسامة ساخرة جاءت في غير اوانها، ولم يقل شيئا. بيد انهم واصلوا السير... فساروا وساروا...

– انه ينهكنا – سمعت أصوات خافتة في الطابور.

– ما فائدة انهاكنا: من هنا بحر، ومن هنالك جبال، فمن يستطيع ان يمسنا بأذى؟ وألا سوف نهلك جميعا من شدة العناء و التعب، بلا هجوم القوزاق. ها هي خمس خيول خارت قواها، فهي لا تقوى على السير و الناس يتمددون على قارعة الطريق.

– لماذا تسايرونه! – صاح البحارة، معلقين بأجسادهم مسدسات وقنابل و شرائط الرشاشات، متفادين في سيرهم العربات الداخلة بين صفوف الجنود. – الا ترون كيف يصر على رأيه؟ ألم يكن ضابطاً؟ حاملا لكتافيتين ذهبيتين ليس الا. انتبهوا، انه سيصيبكم بداهية. بعد ذلك ستعضون اصابعكم ندما، ويكون الوقت متأخراً.

عندما استقام ميزان النهار، وأخذت الظلال في القصر الى حدود دنيا، توقفوا ربع ساعة. اوردوا الخيل، وروى الناس المبللين عرقاً عطشهم، ثم تحركوا من جديد فى الطريق الرئيسية الملتهبة، مجرجرين اقدامهم الثقيلة بصعوبة بالغة. كانوا يسيرون ويسيرون، والهواء المحرق يتصاعد، والبحر يسطع سطوعاً حاداً غير محتمل... يسيرون دائماً... تصاعدت دمدمة خافتة، حاولت، بشكل واضح تفريق الصفوف على نحو رهيب. اذ أعلن بعض قادة السرايا و الكتائب لكوجوخ بأنهم مقدمون على الطلب من وحداتهم التوقف، وفصلها عن الطابور العام، ليتصرفوا في سيرهم على هواهم.

عامت سحابة قاتمة فوق وجه كوجوخ، ولم يجب بكلمة. واصل الطابور سيره بلا توقف...

وتوقفوا ليلا. فلمعت نيران المواقد، تحت جنح الظلام على مسافة عشرات الفراسخ على طول الطريق. قطعوا شجيرات شوكية خشنة يابسة، إذ ليس في هذه الصحراء غابات؛ و عمدوا الى حمل الاخشاب من اسيجة بيوت الاصطياف، وكسروا اطارات النوافذ، وأخرجوا الكراسي و الطاولات وغيرها من الادوات المنزلية المصنوعة من الخشب، وجعلوها طعماً للنار. وسرعان ما غلى الطبيخ في القدور المعلقة فوق النار.

كان من المنتظر، و المتوقع، على ما يبدو، ان ينطرح الجميع على الأرض، وينام مثل الميت، بسبب من تعب وارهاق شديدين، هما فوق طاقة البشر. بيد ان الظلام، الذي انقشع زاحفاً امام ضياء المواقد الحمراء، راح يتحرك ويتململ. فباتت تسمع احاديث، و ضحكات، والحان الهارمونيكا. و تدلع الجنود فأخذوا يدفعون بعضهم بعضا في النار وخرجوا الى فصائل التموين مداعبين الفتيات. كانت العصيدة تطبخ في القدور، وألسنة نيران المواقد الكبيرة تلحس

حافات قدور السرايا السود. وقلما كانت تترك المطابخ العسكرية لتدخن.
يظهر، ان هذا المخيم مترامى الاطراف قد حط. رحاله هنا لفترة طويلة.

الفصل الحادي عشر

كان الليل يمضى ململما أطرافه. لكن ما ان حطت تلك الجموع رحالها، حتى تجزأ، وراح كل جزء منه يعيش على هواه.
جلست غوربينا القرفصاء بالقرب من موقد صغير، علق فوقه قدر صغيرة أفلحوا في اخراجها بسرعة مع بقية المتاع، والمؤونة، من عربة متروكة. كانت المرأة شعثاء تشبه، أمام الضوء الضارب الى الحمرة، ساحرة خبيثة. نام زوجها العجوز قريباً منها، على قفطان جوخ قديم مفروش على الأرض، مغطيا وجهه بطرف القفطان. ورغم ان الليل كان دافئا، كانت غوربينا جالسة أمام الموقد تنوح:
- ليس عندنا اكواب ولا ملاعق... حتى البرميل الصغير تركناه. من نصيب من سيصبح ياترى؟ كان برميلا جيداً وقوياً من الاسفندان. هل سنملك حصانا مثل غنيدكو ذاك؟ اي نشيط كان، ابداً لا حاجة للسوط معه تعال كل يا عجوز.
تناهى صوت من داخل القفطان الجوخ الذي التف به:
- لا اشتهى.
- ماذا جرى لك، لترفض الأكل؟ ان لم تأكل مرضت. هل تريد أن اضطر لحملك عندئذ؟
العجوز صامت متمدد على الأرض، ووجهه غارق فى العتمة.
على مبعدة خطوات، قرب العربة الواقفة في الطريق، تلوح بين طيات الظلام قامة فتاة هيفاء. ويتعالى صوت فتاة اخرى:
- يا للمصيبة! يا روحي، هيا اعطينى اياه! لا يجوز هكذا...
أجساد النساء الواقفات حول العربة مغلفة بوشاح من غموض غير ان أصواتا مختلفة، عديدة، تترامى منها:
- اعطيها اياه! يا ربنا ينبغي ان نودع الروح الملائكية الى مثواها... ليغمدها الله بواسع رحمته...

الرجال واقفون صامتون.

وتقول النساء:

– لقد انتفخ ثدياها بالحليب، حتى صار من المتعذر الضغط عليهما...

تمد النساء ايديهن ويحاولن اخراج ثديي الأم البارزين الجامدين تحت الأصابع. تنحني امرأة حاسرة الرأس، ذات عينين لامعتين في الظلمة، مثل عيني قطة، على الثدي الناهد، الابيض، الظاهر من القميص المشقوق، وتمسك به بأصابع معتادة، وتضعه بلطف ورقة وتأن في فم الرضيع البارد، الجامد.

– كالحجر!

– لقد زحم، بحيث غدا التنفس متعذراً.

تعالت اصوات الرجال:

– لا فائدة من اقناعها... خذوا الرضيع و خلاص!

– يا للمصيبة! فهل يجوز هكذا؟ يجب دفن الطفل.

ينتزع رجلان قويان ضخمان الطفل من بين يدي امه المتشبثتين به. يمزق زعيق شديد التأثر، وحشي، الظلام، فيسقط صداه على مسامع الناس عند المواقد المشتعلة على طول الطريق. انتشر الزعيق عائما فوق البحر المعتم اللامرئى، طائراً في البرارى، و مرتقيا اعالي الجبال طارقا اسماع من كان يختفي في دياجيرها. اهتزت العربة، واصدرت صريراً قوياً من اثر المصارعة المحتدمة.

– تعض!

– دعوها... لقد غرزت اسنانها في يدي.

يتراجع الرجلان. تقف النسوة مكتئبات من جديد. ثم ينفرط عقدهن رويداً رويداً. تأتي نساء اخريات، يلمسن النهدين المنتفخين:

– ستموت هي الاخرى... تخثر الحليب...

ما تزال المرأة، ممزقة الملابس، في العربة، تتلفت فيما حولها كل دقيقة. تلمع عيناها الحيوانيتان الجافتان، غير مطرقتين. وهي على استعداد، كل دقيقة، ان تهب للدفاع عن طفلها بكل ضراوة. بين حين وآخر، تضع حلمة ثديها في فم الطفل الصغير البارد المتخشب.

ترتفع ألسنة النيران خافقة، ويختفي لهبها بعيدا في الظلمة.

– يا روح قلبي، اعطنا اياه، اعطنا اياه! لقد توفي. سنذهب نحن لتوديعه الى مثواه، الأخير، اما انت! فلماذا لا تبكين؟

تضم فتاة الى صدرها هذا الرأس الأشعث، الشبيه برأس ساحرة خبيثة، تضيء فيه، وسط الظلمة، عينان ذئبيتان. اما المرأة الشعثاء فتقول بعناية مبعدة رأسها، وبصوت مبحوح:

– الزمي الهدوء... يا آنكا... اش... انه نائم لا توقظيه. سينام طول الليل، وفي الصباح، سيذهب للعب والتجوال وانتظار ستيبان. وما ان يصل ستيبان حتى يبدأ اللعاب يسيل من فم الطفل فرحا، فيراوح قدميه في الهواء فرحا، ويشرع بالثغاء. آه، اي طفل لطيف هو، اي طفل ذكي، و فطن!..

و تضحك ضحكات خافتة مكبوتة.

– أش...

– آنكا! آنكا! – يتواصل صوت من الموقد، لماذا لا تأتين للعشاء..؟ العجوز لم يذق لقمة، و انت أيضا ضعت... يا لك من فتاة لعوب! انظري كيف ضمر جسدك.

تتوافد النساء يلمسن نهديها يتأسفن، يذهبن، او يقفن مسندات ذقونهن على اياديهن، يمعن النظر في المشهد. يدخل الرجال الغلايين، يأخذون نفساً اثر نفس، فتتوهج للحظة وجوههم الغامضة.

– يجب ان نرسل في طلب ستيبان. و الا سيتعفن الطفل بين يديها، ينتشر فيه الدود.

– لقد ارسلوا في طلبه.

– هرع اليه ميكيتكا الأعرج...

الفصل الثاني عشر

هذه النيران غريبة. وهذه الأحاديث، والضحكات، وصيحات النساء المداعبة، و الشتائم المقذعة الغليظة، ورنين القناني الزجاجية، كلها غريبة أيضا. تسمع، هنا، فجأة، ضربات مفاجئة على الماندولين والقيثار والبلاليكا، و كأن اوركسترا كاملة تعزف على اوتار مرنة، غير مدوزنة، لآلاتها الموسيقية. تطلق الحانا غير متناسقة مع ساعات الليل، مع سلسلة النيران الممتدة في العتمة.

الجبال السوداء واقفة بلا حراك؛ البحر غير المرئى ساكت اخرس، كي لا يزعج احداً بضخامته.

كل شيء غريب ههنا، حتى الناس: انهم ضخمو الجثث، عريضو الاكتاف، واثقو الحركات. وعندما يجدون أنفسهم في حلقة نار الموقد الحمراء المتراقصة، تغدو اجسامهم ممتلئة، برونزية، مرتدية بناطيل سوداء فضفاضة، وقمصان بيضاء لجنود البحارة مفتوحة الصدور. تتراقص على ظهورهم الشرائط المتدلية من القبعات المستديرة. ولاتسمع، في هذا الحشد، كلمة واحدة دون ان ترافقها شتيمة، ولا ترى حركة واحدة دون ان تقترن بها مسبة.

تلوح قامات النساء التى تقع عليها ومضات النار المتراقصة من بحر العتمة، مثل بقع زاهية. تتعالى الأصوات زعيقا وصراخا، دالة على دلع لطيف. تجلس النساء القرفصاء، ململمات اطراف تنوراتهن الملونة، يطبخن فوق المواقد، مترنمات كلمات اغان، بأصوات مبحوحة وعلى نحو مريب، وقد فرشن على الأرض سفرا مربعة بيضاء سرعان ما امتلأت بعلب الكافيار وعلب السردين والشبوط وقناني الخمر والمربى والفطائر والحلوى والعسل. ينطلق في هذا المخيم رنين جلبة وضوضاء و ضحكات لاحياء فيها، وشتائم وصيحات، تصدح وتختفى بين طيات الظلام، والحان الماندولين والبلاليكا تعزف متناسقة، على غير انتظار، على اوتار مدوزنة. او تمتلىء اجواء الليل بأصوات جماعية ثملة تغني، لكنها تؤدي اللحن على نحو تام، وبتوافق. ثم تجدها قد اقلعت عن الغناء: هل سمعتم أي موهبة لنا؟ نحن نقدر على كل شيء! بعد ذلك، ومن جديد: جلبة ضحكات، احاديث، زعيق، مسبات مازحة.

– ايها الرفاق!

– سمعا وطاعة.

– كفاية.

– اعزف، اعزف يا ولد، كذا من ابيك وجدك، و حتى سابع ظهر من اصلك وفصلك!

– آه منك يا كامبوز!.. لقد قطعت سوارى... تباً لك! سواري ضاع...

انقطع الصوت.

– لماذا نحن هنا يا رفاق؟.. ام ان عهد ضباط الجيش القيصرى قد عاد؟ لماذا يصدر كوجوخ اوامره علينا؟.. من قلده رتبة جنرال؟ هذا استغلال للشعب الكادح يا رفاق. الاعداء والمستغلون...

– اضربوهم، أولاد القحبة!..

وتعود الاصوات مجتمعة تغني بألفة وتناسق...

وسعوا الخطى يا رفاق بجرأة واندفاع
وقووا عزمكم في النضال والصراع.

الفصل الثالث عشر

جلس رجل مستنيرا بضوء الموقد، محتضنا ركبتيه، بلا حراك، اطل وراءه، من بين طيات الظلام، رأس حصان، وولج حلقة الضوء الاحمر المنثال من الموقد، تلتهم شفتاه الناعمتان اللينتان الحشيش الملقى على الارض، فيمضغه بصوت مسموع. تلمع عيناه الكبيرتان السوداوان بحكمة وانتباه وبلون ضارب الى البنفسجي.

– هكذا، – خاطب الرجل الناس، وأطرق، محتضنا ركبتيه، ممعناً النظر، دون ان تطرف عيناه، في هذه النار المتراقصة، وشرع يتكلم: طردوا الفاً وخمسمائة من الجنود البحارة. جمعوا كل من تمكنوا من اسره. الاغبياء! قالوا: نحن في البحر، ومهماتنا بحرية، فلن يمسونا بأذى. لكن ساقوهم الى مكان وقالوا لهم: «احفروا». بينما احاطت بهم رشاشات ومدفعان وقوزاق مدججون بالبنادق. اما الاسرى التعيسون، فظلوا يحفرون ويحفرون ويرمون التراب بالمجارف. كل هؤلاء البحارة كانوا شبابا اشداء. اكتظ المكان بالناس. النساء يبكين. الضباط يخطون حاملين مسدسات، ويطلقون النار على البحارة الذين كانوا يحفرون ببطء. يطلقون النار على بطونهم كيما يتعذبوا طويلا. فيئنون ويزحفون، والدم يسيل منهم بغزارة. يجر الناس المجتمعون الحسرات. اما الضباط فيقولون: «اسكتوا، انتم ذرية الكلاب!»

الجميع مطرقون، يصيخون السمع لكل كلمة يقولها الرجل، مع انهم، كانوا يعرفون بعضاً مما كان يرويه من مصادر مجهولة.

البعض يتحلق حوله، مستندا على بنادقه، حاسر الرأس، تلقي النار ضوءاً احمر على وجهه، والبعض الآخر راقد على بطنه يتسمع و تنداح رؤوس شعثاء من بين طيات الظلام، شاحذة انتباهها، مستندة على الاكواع. يطأطيء العجائز رؤوسهم فتميل لحاهم حتى تلمس صدورهم. وتلوح نساء متكدرات. عندما تخبو جمرات النار في الموقد يجد الرجل نفسه وحيدا، يجلس محتضنا ركبتيه. ينكس الحصان الواقف وراءه رأسه دقيقة، ثم ما يلبث ان يرفعه، وهو يمضغ بصوت مسموع فتلمع عيناه الحكيمتان، المتسعتان لمعانا أسود. ويبدو ان الظلام دامس لا حدود له، ولا من احد بقي في ذلك المكان عدا شخص واحد فقط. وتستعيد أنظار الناس مشهداً أليماً: السهب، والطواحين، وحصان يعدو خبباً و يبلغ الحشد، ويسقط من فوقه الفارس المطعون المدمى مثلما يسقط حمل ثقيل. بعد ذلك يتبعه آخر. يثب بسرعة من على صهوة جواده ويسرع في وضع اذنه على صدر القتيل: «يا بني... يا بني...».

يرمي احدهم فوق جمرات النار الخابية فروع شجيرات شوكية عوجاء يابسة تصدر هسيسا، ثم تلتهب، مزيحة الظلمة فيغدو من الميسور، من جديد، رؤية البعض واقفين، متكئين على بنادقهم، ومشاهدة الشيوخ مطأطيء الرؤوس، حتى تلمس لحاهم صدورهم، والنساء المكتئبات. تلقي النار ضوءها على وجوه من اسندوا رؤوسهم على قبضات ايديهم، و اصاخوا السمع بأمعان.

– عذبوا الفتاة كثيرا... آه، كيف كانوا يغتصبونها! القوزاق... مائة. كاملة... واحد اثر آخر يغتصبها الى ان فارقت الحياة تحت اجسادهم. كانت الفتاة ممرضة في مستشفى قواتنا، سبق لها ان عملت في مصنع، قصيرة الشعر، مثل صبي، حافية القدمين، منمشة الوجه، خفيفة الحركة. لم ترغب في ترك جرحاها، لانه لم يكن ثمة أحد آخر يقوم برعايتهم بدلا عنها، او يقدم الماء لهم حين الحاجة. كان المرضى المصابون بالتيفوئيد كثيرون. حوالي عشرين الف رجل. قتلوهم جميعا، رموهم من الطابق الثاني على رصيف الشارع مباشرة. وكان الضباط والقوزاق يتجولون في

شوارع المدينة شاهرين سيوفهم، يقتلون من يصادفهم رجلا اثر آخر، فامتلأت المدينة بدمائهم الغزيرة.

توارت النجوم. اختفت الجبال المظلمة في بحر العتمة نهائيا. ولم يبق الا الصيحات تسيطر على الاذهان: «يا رفاق!.. انا لست مصاباً بالتيفوئيد، انا جريح!..» - و يقف هذا المشهد امام عيون الناس ثم ينمحى اثره...

ارخى الظلام سدوله. سبحت النجوم في عليائها. والرجل يواصل حديثه بهدوء وتأن. ويتملك الجميع، مرة اخرى، الاحساس بما لا يرد في كلامه: هشموا رأس ولده، ذا الاعوام الاثنى عشر بأخمص بندقية؛ جلدوا والدته العجوز بالسوط؛ اغتصبوا زوجته ما تمكنوا الى ذلك سبيلا؛ بعد ذلك شنقوها وعلقوها بالحبل من شادوف بئر؛ اما طفلاه الآخران الصغيران فلا احد يدري اين اختفيا. - لا يحكى الرجل عن ذلك، لكن الجميع يعرف، لسبب ما، ما لحق به من اهوال ومصائب.

يطبق صمت جليل، يكلل بشكل غريب سواد الجبال المكتنفة بالاسرار والبحر المترامي الاطراف الملتحف بالظلام. لا صوت يصدر ولا شرارة تقدح.

تلألأ انعكاس ضوء احمر، فزعزع الدائرة المحاصرة بالظلام. يجلس الرجل مستنيراً ببقعة ضوء، محتضنا ركبتيه. الحصان يمضغ العشب بصوت مسموع.

و على حين فجأة، ضحك شاب كان يتكىء على حربة بندقية، فلمعت اسنانه البيض، بلون وردي تساقط على وجهه حليق الشاربين.

- فى ستانيتسانا، ما ان جاء القوزاق من الجبهة، الا والقوا القبض على ضباطهم، فنقلوهم الى مدينة تقع على شاطىء البحر. وهناك ساقوهم الى المرسى. علقوا حجرا في رقبة كل منهم وراحوا يقذفون بهم من المرسى الى البحر. القوا بهم في الماء، فغرقوا و نزلوا الى الاعماق رويدا رويدا، كانت مياه البحر رقراقة صافية، كالدموع. والله كنت هناك، ورأيت بام عيني، كيف بلغوا قعر البحر وكيف تطلب ذلك وقتا كبيرا. كانت اياديهم وارجلهم تلوح بين الفينة والفينة، مثل ذيول السرطانات.

ضحك الشاب مرة اخرى كاشفا عن اسنانه البيض، المغطاة قليلا بلون ضارب الى الحمرة. كان الرجل المحتضن ركبتيه جالسا امام الموقد. ثمة حيث يخترق الظلام الق احمر. وازداد حشد الناس المتحلق حوله تحت جنح الظلام.

– وما ان بلغوا قعر البحر اخذوا يتشبثون بعضهم ببعض بحركات متشنجة، ثم يتكومون فوق بعضهم بعضاً بلا حراك. كان بميسور المرء ان يرى كل شيء بوضوح. يا للغرابة!

اصاخوا السمع، فاذا بنغمات اوتار متناسقة تحوم برقة بعيدا بعيدا وتهمس للقلوب بشيء ما.

– البحارة! – قال احدهم.

– أما في قريتنا، فقد وضع القوزاق الضباط في أكياس، وشدوا اعناقها، ثم انشأوا يرمون بها الى البحر.

– كيف يجوز اغراق الناس وهم داخل اكياس – قال احدهم بمرارة، وبصوت مبحوح، ثم سكت. بعد ذلك علق آخر، غير مرئي، بصوت مفعم حزنا:

– حتى الاكياس لم تعد تحصل عليها الآن. وبدون الاكياس لا تدبر امورك الزراعية، لأنها لم تعد تأتي من روسيا.

ران الصمت من جديد. ربما لأن الرجل المحتضن ركبتيه كان يجلس ساكتا بلا حراك امام الموقد.

– في روسيا الآن سلطة سوفييتية.

– في موسكو!

– اينما يوجد فلاحون هناك توجد سلطة سوفييتات.

– لقد جاء العمال الى ديارنا فمنحونا الحرية، وأقاموا سوفييتات فى الستانيتسات، وقالوا بالاستيلاء على الأرض.

– اعادوا الينا كرامتنا المهدورة، وطردوا البرجوازيين.

– أو ليس العمال من الفلاحين؟ ترى كم من رجال لنا يعملون في مصنع الاسمنت، والمعصر، و مصنع الآلات، و في سائر المصانع فى المدن!

تناهى صوت واه، من مكان ما، الى الاسماع.

– اوي... ماما...

ثم اعقبه بكاء طفل. وصوت نسائى كان يستميله. لا بد ان

مصدر الصوت الطريق الرئيسية، جيث تقف العربات في الظلمة الحالكة.

رفع الرجل يديه المشبكتين، الحاضنتين ركبتيه، وهب واقفا، مستنيرا بلون ضارب الى حمرة من الجهة نفسها. سحب الحصان الذي كان منكسا رأسه نحو الأرض اليه، وهو يمسك به من عرفه. سرعان ما لجمه وجمع من الارض ما تبقى من الحشيش و وضعه في كيس. القى البندقية على كتفه، ووثب على السرج، وغرق في الظلام دفعة واحدة. كان وقع حوافر الحصان مسموعا فترة طويلة، ثم ابتعد وخفت، وتلاشى.

وخيل من جديد، كأن ليس ثمة ظلمة، بل سهب لا نهاية له، و طواحين. تصاعد وقع حوافر الخيل من الطواحين، وركضت ظلال طويلة منحنية في اثر الرجل، وقالت اصوات: «الى اين؟ هل جننت؟.. ارجع!..»

– لقد بقى اهله هناك، بينما يرقد ولده هنا ميتا...

– هيه... السرية الثانية!

اطبق الظلام مجددا. وثمة سلسلة طويلة من النيران ظلت مشتعلة.

– ذهب الى كوجوخ يخبره بالأمر، انه يعرف كل شيء تماماً عن القوزاق.

– آه، كم قتل منهم، حتى النساء والاطفال!

– الا ترى ان كل ما يرتديه قوزاقي. السترة الطويلة، البابا خا... القوزاق يعتبرونه واحدا منهم: «من اي فوج انت؟» – «من كذا فوج»... ويواصل سيره. يصادف المرأة، ينحرها بالسيف. و الطفل الصغير يطعنه بالخنجر. واذا سنحت، له فرصة، اطلق النار على قوزاق من وراء زاوية او من كداس. انه يعرف جيداً كل ما لديهم: وحداتهم، وعدد افرادها ومواقعها، و يقدم كل المعلومات لكوجوخ.

– ما ذنب الأطفال الأبرياء؟ – سحبت امرأة مستندة برأسها على كفها حسرة، ماسكة بكوعها.

– هيه... السرية الثانية، ام اصابكم الصمم؟

نهض من كان راقدا بتمهل. تمطى. تثاءب. ثم ذهب. تناثرت

نجوم جديدة فوق الجبال. تحلق الناس حول القدور، على الارض، وراحوا يأكلون العصيدة.

ترتفع الملاعق بسرعة من قدور السرايا، وتنزل. تحترق الحلوق. كل جندي يحاول ان يأكل بأقصى سرعة، كي لا يتأخر عن زملائه. فيحترق لسانه، سقف فمه، ويبلع اللقمة بألم، ويسرع غاطساً ملعقته في القدر المدخن من جديد. وفجأة انتزع احدهم قطعة لحم وقعت فى ملعقته. اخذها و وضعها في جيبه. سيأكلها فيما بعد. وغطس ملعقته من جديد في القدر بعجالة، بينما كان الجنود الآكلون يصوبون نحوه نظرات شزراء حاسدة.

الفصل الرابع عشر

حتى في الظلام، كان المرء يشعر انهم يسيرون حشدا عاصفا، صاخبا، يلوح بلون ابيض. وكانت الاحاديث تسير معهم ايضا، مضطربة، مبحوحة، اما بتأثير الريح او بتأثير الخمر، مفعمة بالشتائم المبطنة على نحو لا يصدق. تلفت اولئك الجنود الذين كانوا يغرفون ملاعقهم بسرعة في القدر، برهة:

– بحارة...

– لا يعرفون الهدوء.

تقدموا صوبهم ورجموهم بشتائم مقذعة دفعة واحدة:

– اولاد الفاعلة!.. تجلسون هنا، تملأون بطونكم بالعصيدة، ولا يهمكم اطلاقا فيما اذا احبطت الثورة... يا لكم من سفلة! برجوازيين!..

– ماذا دهاكم تشتموننا هكذا!.. يا ثرثارون!..

وينظر الجنود الى البحارة شزرا. البحارة مدججون بالمسدسات وشرائط الرشاشات والقنابل من اعلاهم حتى اسفلهم.

– هل فكرتم الى اين يقودكم كوجوخ؟.. نحن قمنا بالثورة... لقد اغرقنا الاسطول كله دون ان نعير موسكو اذنا صاغية. هنالك البلاشفة يغازلون فيلهلم*، اما نحن فلن نسكت عن خيانة مصالح

---

* الامبراطور الالماني. **الناشر.**

الشعب ابدا. فمن استخف بمصالح الشعب يجب اعدامه رأساً! وكوجوخ... من عساه يكون؟ انه ضابط وانتم قطيع اغنام. تجرجرون اقدامكم وراءه مطأطئي الرؤوس! آخ يا بهائم بريئة!

تعالى صوت من وراء موقد علق فوقه قدر السرية الاسود:

– التحقتم بنا، و معكم قحبات. ان ماخوراً كاملا يتنقل معكم.

– وما شأنكم؟ هل تحسدوننا؟.. لا تدخلوا انوفكم فيما لا يعنيكم، والا قطعوها. من حقنا ان نعيش مثلما نشاء... من قام بالثورة؟ البحارة طبعا. على من كان القيصر يطلق النار؟ على البحارة طبعا. من كان القيصر يغرق في اعماق البحار ويعلق بالحبال؟ البحارة طبعا. من كان يقوم بنقل المنشورات السرية من الخارج؟ البحارة بالطبع. من ضرب البرجوازية؟ البحارة! تزوغون أنتم بأنظاركم الخرقاء في حين نحن البحارة سالت دماؤنا في النضال. وبعد ان فدينا انفسنا قرابين للثورة بدأتم توجهون حراب بنادقكم القيصرية الى صدورنا. يا سفلة! ما جدواكم يا ابناء الحرام!

رمى بعض الجنود ملاعقهم الخشبية من ايديهم، وتناولوا بنادقهم، ثم هبوا واقفين. وبغتة توارت المواقد عن الانظار وانسكب الظلام دفعة واحدة فوق رؤوسهم.

– يا شباب، اقبضوا عليهم!..

اتخذ الجنود وضع الاستعداد، ووضعوا اصابعهم على ازندة بنادقهم.

سحب البحارة مسدساتهم بيد، واخرجوا القنابل باليد الاخرى، في عجلة.

تلقف أوكرايني عجوز، أبيض الشاربين، خاض غمار الحرب الامبريالية كلها على الجبهة الغربية وترقى الى رتبة ضابط صف بفضل جسارته ورباطة جأشه واباد في بداية الثورة ضباط سريته، – تلقف هذا العجوز بشفتيه العصيدة الحارة على عجل، وراح يضرب بملعقة على حافة القدر، نافضاً عنها بقايا العصيدة، ثم مسح شاربيه بيده، وقال:

– مثل الديكة تماما؛ كوكو... كوووكووو! لماذا لا تصيحون مثلها. ها؟

ضحك الجميع.

5*

– من عساهم يكونون كي يسخروا منا! – تلفت الجنود نحو العجوز مستشيطين غيظاً.

لاحت فورا المواقد في سلسلة طويلة.

اعاد البحارة مسدساتهم الى قراباتها، و القنابل الى مواضعها.

– انتم لا تساوون بصقة بالنسبة لنا، اولاد القحبة!..،

وغادر البحارة صاخبين شاتمين، مثل زمرة مشاغبة. كانت اجسادهم تلوح في العتمة بغير وضوح بعد ذلك ابتلعهم الظلام، وامتدت سلسلة المواقد. من جديد.

غادر البحارة، لكن ثمة شيئا ما تبقى منهم.

– لديهم الكثير من براميل الخمر.

– لقد اغتصبوها من القوزاق.

– كيف اغتصبوها؟ لقد دفعوا سعر كل شيء.

– بلى، لديهم من النقودكثرة كاثرة.

– نهبوا كل السفن، بالطبع.

– لماذا يسمحوا للاموالتضيع ما دامت السفن تغرق؟ من كان سيستفيد منها؟

– ما ان وطأت اقدامهم ستانيتسانا، حتى بدأوا باستئصال البرجوازيين، ووزعوا ممتلكاتهم على الفقراء. طردوا البرجوازيين، واطلقوا النار على فريق منهم، وشنقوا فريقا آخر على الأشجار.

– أوه... انظروا... تساقط شهب.

واسترق الجميع السمع: من تحت، من حيث لم يكن يوجد أحد، من حيث القفار المترامية المظلمة، تناهى صوت. كان اما صوت بعيد قادم من صفحة البحر، او لعلعة رصاصة.

ران صمت.

– ان البحارة على حق. عم نبحث نحن، مثلا؟ لقد عشنا لحالنا، وكان لكل منا حقل وماشية، اما الآن...

– صحيح. فاني اقول حقيقة ايضا: نبحث راكضين وراء ضابط عن شيء لم نضعه.

– اي ضابط هو؟! مثلنا انا واياك.

– ولماذا لا تقدم لنا السلطة السوفييتية اية مساعدة؟

ان قادتها يجلسون في موسكو، يلعبون، بينما نحن علينا، ان نتحمل هنا نتائج لعبتهم:

كانت تترامى من بعيد، حيث تلوح نيران المواقد، اصوات ضعيفة بفعل المسافة، وضجيج - البحارة يعربدون ويتنقلون من موقد الى موقد، ومن حضيرة عسكرية الى اخرى.

الفصل الخامس عشر

شرع الليل يغلب على الناس. بدأت المواقد تنطفىء في اماكن مختلفة، الى ان اختفت السلسلة الذهبية تماما، وبسط الظلام جناحيه، واطلق صمت مهيب. ولم يعد يسمع شيء، حتى صوت مضغ الخيول للعشب، الذي كان يستحوذ على وحشة الظلام.

ثمة شبح داكن اللون يتسلل بين العربات السوداء الواقفة. وحيث يتسنى له يركض بحذاء الطريق، واثباً من فوق الأجساد المستغرقة في النوم. شخص ثان... مثله تماما: شبح اسود غامض، يضلع على رجل واحدة بالكاد يستطيع ان يلحق به. يستيقظ قرب العربات شخص ما، يرفع رأسه، فيودع بنظرته الجسدين المختفيين بسرعة فى الظلام.

- ماذا يريدان؟ من هما؟ ربما جاسوسان...

لابد من النهوض وأمساكهما. ولكن النعاس يغالبه، ويعود الى النوم.

الظلام والصمت نفساهما. الشابان يركضان مسرعين وهما يقفزان من فوق الاجساد النائمة، ويشقان طريقهما في اماكن مزدحمة. تقلع الخيول عن المضغ، تنصب آذانها مصيخة السمع.

صدرت اطلاقة بعيدة من جهة اليمين، ربما من سفوح الجبال الضارب لونها الى السواد. انطبع رجع صوتها في الظلمة على حدة، غير ذي أهمية. وسط هذا الهدوء المطبق، وصوت مضغ الخيول الأليف، وسط هذا العراء ثم اطبق الصمت من جديد. لكن هذا الصدى غير المسموع لبث يخيل للمرء مسموعا ولم يتلاش. ركض الشبحان باقصى سرعة.



طراق... طراق... طراق...! ثمت ايضا، في جهة اليمين، في سفوح الجبال، حتى وسط الظلام يمكنك ان تتميز كيف يشتد السواد في فوهة الشعاب الفاغرة. وبغتة تتواصل لعلعة الرشاش: تا.. تا.. تا! ومرة اخرى: تا... تا... وكأنه يكمل ما فاته.

يرفع احدهم رأسا أسود. يتبعه ثان... يجلس آخر في فراشه. ينهض ثالث متعجلا، ويتلمس بندقيته بين البنادق الموضوعة على شكل هرم. يخطىء هدفه.

– يا غريتسكو اسمع... هيا اسمع!

– حل عني.

– اسمع... القوزاق يطلقون النار!

– تفو... الشرير!... حل عني والا ادميت لك اسنانك!... اكلمك بجد... والله بلا مزح...

هز الرجل رأسه، حك ظهره وعجزه، ثم ذهب صوب معطفه المفروش على الارض، انبطح فوقه، مزحزحا كتفيه، كي يتخذ وضعاً اكثر ملاءمة في نومه...

...تا.. تا.. تا...

طراق!... طراق!... طراق!...

تظهر نيران خاطفة رفيعة مثل وخز الدبابيس للحظات في فوهة الشعاب المظلمة.

– اولاد القحبة! لا يهدأون. قبل قليل فقط وصل الناس مرهقين متعبين، و دون ان يدعوا احدا بأخذ قسط من الراحة شرعوا بالهرج والمرج! مثل الكلاب تماماً. لتنفجر بطونكم، الملعونون! هيا، قاتلوا حتى الرمق الاخير، حتى، لو تطلب ذلك، الطحن بالاسنان! ولكن ما دام الناس انتهزوا فرصة الاستراحة، لا تمسوهم. فلا فائدة من هذا، الا ضياع الرصاص: خلاص، ولن يذوق الناس طعم الراحة!

بعد دقيقة، يختلط صوت آخر مع الصوت الاليف لمضغ الخيول، الا وهو، صوت انفاس انسان مستغرق في النوم.

الفصل السادس عشر

قال الذي تقدم الآخر متنفسا الصعداء:

– اين هم؟

اجاب الآخر راكضا:

– هناك هل ترى تلك الشجرة، انهم هناك في الطريق الرئيسية. وصرخ:

– غوربينا!..

رد عليه صوت من وسط العتمة:

– ماذا؟

– هل انتما هنا؟

– نعم هنا.

– اين العربة؟

– هنا ايضا، على يمين المكان الذي تقفان فيه، عبر الخندق.

وفي اللحظة نفسها، شرع صوت اشبه بهديل يمامة يقول، فجأة، مقترنا ببكاء.

– ستيبان! ستيبان!.. لقد فقدناه...

ومدت يديها، تسلم له جسدا صغيرا، فاستلم هذا الجسد المقمط البارد على نحو غريب. كان رخوا، رجراجاً، تنبعث منه رائحة ثقيلة. بعد ذلك ضمت رأسها الى صدره. وانفجرت، وسط الظلام بغتة، بنشيج رنان يعتصر القلب ألما، وانهمرت دموع حزينة لاتعوض.

– لقد فقدناه، ستيبان...

توافدت النساء حالا. انهن لا يعرفن طعم النوم ولا الكلل. تلوح اشباحهن حول العربات غير واضحة. يرسمن اشارة الصليب يتنهدن، ويقدمن النصائح.

– لأول مرة تبكي.

– البكاء يسهل من امر مصيبتها.

– ينبغي مص الحليب من ثديها، والا سوف يؤذيها.

واخذت النسوة، واحدة بعد اخرى، يجسن ثدييها.

– كأنهما حجران.

بعد ذلك انشأن برسم اشارة الصليب، وتمتمة الصلوات.

ثم قربن شفاههن من ثديها وأخذن يمصن الحليب منهما ويبصقن ثلاثا اتقاء لاصابتها بالعين, ويعدن، من جديد، الى رسم اشارة الصليب.

حفروا وسط الظلمة، بين شجيرات شوكية قصيرة حفرة صغيرة. كانت المجارف ترمى بالتراب فتوقفت. ووضع الرجال شيئاً ما ملفوفا في الحفرة، وواروها التراب، ثم سويت مع الارض.

– لقد فقدناه... ستيبان.

يلوح شخص غير واضح الملامح. يحضن بيديه شجرة شوكية. خرخر الشخص انفه، وارتج جسده، لا يعرف المرء هل كان يشهق بنشيج أم يقهقه. اما اليمامة فطوقت عنقه بيديها:

– ستيبان!.. ستيبان!..

ومن جديد، تألقت دموع رنانة في الظلام.

– لقد فقدناه... ستيبان!.. فقدناه!..

الفصل السابع عشر

ساد الليل. فلم يعد يرى بصيص نار، ولم تعد تسمع همهمة حديث، خلا صوت المضغ الصادر من اخطام الخيول. بعد ذلك توقفت الخيول عن المضغ. وقد انبطح بعضها على الارض. قريبا سينشق الفجر.

يضرب لون المخيم المترامي الاطراف على امتداد سلسلة الجبال السوداء، الخرساء، الى السواد، ويستحوذ عليه الصمت.

ولم يفلح الظلام المنعس قبيل الفجر بشكل لا مناص منه، ان يسيطر على مكان واحد فقط، على ذلك البصيص من النار الذي ظل يلوح خلال اشجار البستان الغافي، مشيرا الى ان احدا بقى سهرانا من اجل راحة الجميع.

في غرفة الطعام الكبيرة، المزينة بلون البلوط التي طعنت ومزقت اللوحات الثمينة المعلقة على جدرانها، يشاهد المرء على ضوء الشمعة الباهت سروجا مرماة فى الزوايا وبنادق اسندت على بعضها البعض على شكل هرم. كان الجنود يشخرون و هم

نيام على ستائر باهظة الثمن، مفروشة على الارض، في اوضاع غريبة، كالموتى، بينما تملأ المكان رائحة ثقيلة لعرق البشر و الخيول.

كان الرشاش يطل من الباب بفوهته الضيقة، القاتمة.

تشبثت عينا كوجوخ الصغيرتان، اللتان لا يمكنك التملص من نظراتهما، وهو ينحني على طاولة منقوشة على نحو بديع، مصنوعة من خشب البلوط، ممتدة ككتلة ضخمة وسط غرفة الطعام بالخارطة المنبسطة عليها. يتلألأ ضوء خافت لبقايا شمعة، ينقط منها سائل شمعي ما يلبث ان يتجمد، وتتحرك ظلال نشطة بسرعة على الارض والجدران والوجوه.

ينحني الياور على الخارطة محدقا في البحر الازرق، في سلاسل الجبال الشبيهة بأم الاربعين الشعثاء.

يقف المراسل حاملا حقيبة وقد علق على كتفه بندقية، وفي جنبه سيف بينما تتململ عليه الظلال المتحركة.

انطفأت بقية الشمعة دقيقة. عندئذ تسمر كل شيء في مكانه.

– ها من هنا، – وغرز الياور اصبعه بسلسلة الجبال على الخارطة، قائلا: – من هذا الشعب ايضا يمكن ان يهاجمونا. – لن يفلحوا في شق طريقهم الى هنا. ان الجبل عال، يستحيل اجتيازه، وليس بامكانهم ان يبلغونا من تلك الجهة.

نقط الياور على يده قطرة شمع حارة.

– ليتنا نصل هذا المنعطف فقط، فلن يجرأوا على الهجوم حينئذ هناك. ينبغي علينا ان نسير بكل ما اوتي لنا من قوة.

– ليس لدينا موؤنة.

– البقاء لا يغير من الامر شيئاً، ولا يمنحنا الموؤنة. لا يمكن الخلاص الا في المسير. هل ارسلتم في طلب القادة؟

– سيأتون الآن كلهم – تململ المراسل فتراقصت الظلال على وجهه وعنقه.

الا ان ظلام الليل الدامس خيم على النوافذ الكبيرة الساكنة.

تا... تا... تا...

تواصلت من مكان ما بعيد، في الشعاب المظلمة، رشقات الرشاش، لتعبىء الليل من جديد بالاخطار.

تناهى وقع اقدام ثقيلة ترتقي درجات السلم، ثم سمعت في الايوان، وما لبثت ان دخلت غرفة الطعام؛ وبدا انها تحمل معها اما هذه الاخطار، او الأخبار عنها. حتى ان لهب الفتيل المتبقى من الشمعة كشف عن ان القادة الداخلين معفرون بطبقة غزيرة من الغبار، وان وجنات وجوههم النحيفة بارزة، من شدة الارهاق، والحر، ومن المسير المتواصل.

– ماذا يحدث هناك؟ – سأل كوجوخ.

– لقد اجبرناهم على الهرب.

كان الغموض، والابهام يستحوذان على غرفة الطعام الكبيرة، والتي كان النور بالكاد يتوزع في ارجائها.

– ليس ثمة ما يمكنهم ان يقاتلوا به – قال آخر بصوت مبحوح اجش – لو كانوا يملكون ما يكفي من السلاح... لكن، ليس في حوزتهم غير رشاش محمول واحد.

تحجر كوجوخ في مكانه، وقطب جبينه. فأدرك الجميع، أن الأمر لا يخص هجوم القوزاق.

تكدسوا قرب الطاولة. بعضهم يدخن، بعضهم يمضغ فتات خبز، وبعض آخر يمعن النظر في الخارطة تعبا دون ان يفقه من كنهها شيئا. وكانت الخارطة المفروشة على الطاولة نفسها غامضة و مبهمة.

قال كوجوخ مخرجا الكلمات من بين اسنانه المطبقة:

– انتم لا تنفذون الاوامر.

تململت حالا، الظلال المطرفة على الوجوه التعبة، على الاعناق المعفرة بالتراب، وامتلأت غرفة الطعام بأصوات حادة، معتادة على اصدار الاوامر في العراء.

– أضنى الجنود تعباً.

– بالنسبة لوحدتي فلن توقظها الآن...

– اما جنودي ما ان عادوا فانطرحوا ارضا، على الفور، حتى انهم لم يشعلوا المواقد، ورقدوا رقود الاموات.

– ليس من المعقول ان نخطو مثل هذه الخطوات. فاذا خطونا هكذا سنهلك الجيش في اقصر مدة.

– أحوالنا تافهة...

وجه كوجوخ جامد. عيناه الضيقتان المحشورتان في جمجمته لا تقويان على النظر، بل تنتظران لا غير، وفيما كان هو يصيخ السمع باهتمام يعشش ظلام دامس في النوافذ المفتوحة على مصاريعها، اما وراءها، فيرقد الليل، والأعياء الكامل، وقلق مشوب بالخطر. لم تعد تسمع اصوات الرصاص من جهة الشعاب، فيشعر المرء ان الظلام هنالك اكثر حلكة.

– انا على كل حال، لست مقدما على التضحية بوحدتي! – صرخ احد العقداء كأنه يصدر أوامر – تقع على عاتقي مسؤولية اخلاقية، هي الحفاظ على حياة و صحة ومصير الناس الموكول امرهم بيدي.

– صحيح تماما – قال آمرلواء مبرزا قامته، واثقا من نفسه، وكان قد اعتاد على اصدار الاوامر أيضا.

كان آمر اللواء هذا ضابطا في الجيش القيصري، شعر في آخر المطاف، انه قد جاءت اللحظة المناسبة ليظهر كل قوته، وكل المواهب التي يمتلكها، والتي كانت مخفية، بلا تخطيط، وبلا تعقل، بين ثنايا الجيش القيصري.

– .... مضبوط تماماً، اضافة الى ذلك، ان خطة المسير لم تعد كاملة. يجب ان يكون ترتيب الوحدات على نحو مغاير تماما لأننا معرضون لموت محتم في كل لحظة.

– لو كنت انا، – ايده قائد مائة كوبانية يلبس سترة شركسية محزومة بشدة بحزام يتدلى منه، على نحو منحرف، خنجر فضى، ويعتمر باباخا مائلة بتهور – لوكنت مكان القوزاق لقمت فورا بغارة من الشعبة: طب، فالمدفع قد اصبح اثرا بعد عين.

– واخيرا، ليس لدينا خطة هجوم لقواتنا، ولا أوامر. فمن نحن اذن، قطيع ام شقاة؟

قال كوجوخ متمهلا:

– من الذي يقود الجيش: انا أم انتم؟

وانطبع ما قاله بشكل لا يمحى في ارجاء غرفة الطعام. كانت عينا كوجوخ الصغيرتين، الثاقبتين الحادتين تنتظران كل شيء عدا الجواب.

من جديد تململت الظلال، مغيرة الوجوه، وتعابيرها.

ومن جديد ارتفعت الاصوات المبحوحة، عاليا اكثر من المطلوب، في الغرفة:

- تقع على عاتقنا، نحن القادة مسؤولية ايضا، مسؤولية ليست أقل من مسؤوليتك.

- حتى في عهد القيصر، كان القائد يجتمع مع الضباط في الاوقات العصيبة، اما الآن فنحن في عهد الثورة.

وكانت تقف وراء هذه الكلمات معان أخرى:

«انت انسان بسيط، قصير، لك قامة غير متسقة، فلاح لاتفهم، وليس بامكانك فهم كل تعقيدات الوضع لقاء خدمتك في الجبهة تمت ترقيتك الى رتبة ضابط. و في الجبهة، من قلة الضباط الاحقاق، يمكن ترقية اي واحد و الآن، انتخبتك الجماهير، و الجماهير عمياء...»

هكذا كانت تعبر عيون، وملامح وجوه، واجساد ضباط الجيش السابقين، اما القادة الذين سبق ان عملوا صناع براميل، نجارين، سمكرية، حلاقين، فكانوا يقولون.

«انت من صلبنا، بماذا تتفوق علينا؟ لماذا انت تقود القوات ولسنا نحن؟ نحن سنتدبر الامور افضل منك...»

سمع كوجوخ هذه وتلك من الاحاديث وما يخفى وراءها من معان، وواصل الاصغاء، مضيقا عينيه كالسابق، الى الظلمة وراء النوافذ، منتظراً...

وأخيرا، أثمر انتظاره وترقبه.

تناهى من مكان ما بعيد وسط الليل صوت خافت. وكان وقع خطوات السائرين في الظلام يملأ الليل رويداً رويداً، اكثر فأكثر، اوضح فأوضح، ويزداد، على نحو منخفض، ثقيل واخرق. بلغت الخطوات المرقاة، أضاعت ايقاعها، أخلت بنظامها، وغدت تتقدم كيفما اتفق، وتصعد الشرفة فغمرتها، وتدفق الجنود سيلا متواصلا الى غرفة الطعام المضيئة بشحوب، عبر الابواب السود المتطلعة، المفتوحة على مصاريعها، كانوا يدخلون غرفة الطعام جماعات جماعات الى أن امتلأت بهم وكان يصعب على المرء تبينهم، ذلك لانهم كانوا كثرة كاثرة و متشابهين. فتحلق القادة

حول الجانب الآخر من الطاولة حيث بسطت خارطة بالكاد تضيؤها بقية شمعة.

يسعل الجنود في الغسق، يمخطون، يبصقون على الأرضية، يمسحون البصقات باقدامهم، يدخنون السكائر ويزحف الدخان النتن، غير المرئي، فوق الحشد المضطرب.

– ايها الرفاق!...

ساد الصمت على الغرفة الضخمة المليئة بالناس والظلام الخفيف.

– ايها الرفاق!...

اخرج كوجوخ الكلمات من بين اسنانه بجهد:

– انتم ايها الرفاق ممثلو السرايا، وانتم ايها الرفاق القادة، كيما تعرفوا بأي حال نحن. القوزاق يحتلون المدينة والميناء وراءنا وبقي هنالك عشرون الف من الجنود الحمر الجرحى والمرضى، وجميعهم ابيدوا من قبل القوزاق بأوامر الضباط. ويعدون نفس الشيء بالنسبة لنا. ان القوزاق يلاحقون مؤخرتنا في الرتل الثالث. البحر من اليمين، والجبال من اليسار. وبينهما – ثغرة. ونحن في هذه الثغرة. القوزاق يسرعون وراء الجبال شاقين طريقهم صوبنا عبر الشعاب، بينما علينا أن ندافع عن انفسنا كل دقيقة. وهكذا سيواصلون ملاحقتنا حتى نبلغ المكان الذي تنحرف فيه السلسلة الجبلية عن البحر – هنالك الجبال شاهقة وعريضة. ولن يلحقنا القوزاق. وأمامنا، للوصول من هنا الى محاذاة البحر، الى توابسه، ثلاثمئة فرسخ. وثمة شق طريق عام عبر الجبال، سنعود فيه من جديد الى كوبان، حيث قوانا الرئيسة، ملاذنا. لا بد من السير بكل ما اوتى لنا من قوة. مؤونتنا لا تكفى الا لخمسة ايام، وسنموت جوعاً. يتعين عليكم المشي والمشي وثم المشي، الركض والركض وثم الركض، لا نوم، لا شرب، لا اكل، المشى حسب بكل ما اوتى لنا من قوة – في هذا يكمن الملاذ، ولابد من شق الطريق اذا ما أخذها علينا أحد!..

سكت دون أن يعير أحدا اهتماما.

ران صمت في الغرفة المكتظة بالناس والظلال الأخيرة لبقية الشمعة المشتعلة. وكان يرين صمت مشابه ايضا فى الليل

البهيم وراء النوافذ السوداء وعلى البحر الهائل غير المرئي وغير المسموع.

وأضاءت مئات العيون غير المرئية، لكنها المتحسسة، كوجوخ بشعاعها وتدفقت من جديد خلال اسنانه المطبقة فقاعات اللعاب البيضاء.

– ليس من خبز وعلف في الطريق. ينبغي الركض والركض حتى الخروج الى السهل.

لاذ بالصمت من جديد، مخفضا عينيه ، ثم قال متمهلا:

– اختاروا لانفسكم قائداً آخر، انني اتنازل عن مسؤولية القيادة.

اشتعلت بقية الشمعة حتى النهاية، فاطبق ظلام دامس. وساد صمت ساكن.

– ألا يوجد ثمة من شموع بعد؟

– يوجد، – قال الياور شاخطا عيدان الكبريت التى كانت اما تشتعل، وعندئذ كانت تشخص مئات العيون، ساكنة أيضاً، فى كوجوخ بلا انقطاع، أو تنطفىء ويغرق الجميع في العتمة بلمح البصر. وأخيرا اشتعلت الشمعة الرفيعة، وكأن اشتعالها هذا قد شق الصمت: تحدثوا، تحركوا، وراحوا يسعلون، يمخطون، يبصقون على الارض، يمسحونها باقدامهم متبادلين النظرات بين بعضهم البعض.

– ايها الرفيق كوجوخ، – قال صوت آمر اللواء، والذي كأنه لم يسبق له أن اصدر الأوامر من قبل – نحن ندرك جميعا أي صعاب وعقبات تعترض طريقنا. الموت من الوراء، ومن الامام أيضا، فيما اذا تأخرنا، ويتحتم علينا السير بأقصى سرعة ممكنة. وانت حسب بمراسك وفطنتك تتمكن من انقاذ الجيش وآمل ان يكون هذا أيضا رأى رفاقي.

بالضبط!.. صحيح!.. نرجوك!.: – اجاب القادة جميعهم بسرعة.

لما تزل المئات من عيون الجنود المتلامعة في الغسق تحدق بأصرار في كوجوخ.

– كيف ترفض، – قال قائد فصيل خيالة دافعا باباخته الى

الخلف بثقة، حتى كادت تسقط من على رأسه - طالما أنتخبت في اجتماع حاشد.

كان الجنود يدققون النظر بعيون لامعة صامتين.

نظر كوجوخ غير موافق من تحت جبينه المقطب.

- حسنا يا رفاق. سأضع شرطا لا بد منه وعليكم ان توقعوا عليه وهو: كل من يرفض تنفيذ الأوامر، ولو قليلا يعدم رميا بالرصاص. عليكم ان توقعوا عليه.

- وهل نحن...

- لماذا؟..

- ولم لا نوقع...

- نحن دائما بلا... - قال القادة بأصوات مرتبكة و متباينة.

- يا شباب! - قال كوجوخ كازاً اسنانه بقوة - ماهو رأيكم يا شباب؟

- الاعدام! - هدرت مئات الاصوات، لم تستوعبها غرفة الطعام، فانطلقت خلف النوافذ المظلمة المفتوحة، غير ان احداً لم يسمعها هناك.

- رميا بالرصاص!.. ابن الزانية... طالما لا ينفذ الأوامر لماذا ننظر اليه ... اقتلوهم!

تململ الجنود من جديد، التفتوا الى بعضهم بعضاً ملوحين بالأيدي، ممخطين، متدافعين، مدخنين سكائرهم بعجالة وساحقين اعقابها تحت اقدامهم.

تحدث كوجوخ ضاغطا فكيه، مدخلا الحديث في رؤوس السامعين.

- كل من يخل بالنظام، سواء كان قائدا أو جنديا يعرض نفسه للرمي بالرصاص.

- رميا بالرصاص!... الرمي بالرصاص لذرية الكلاب سواء كانوا قواداً ام جنوداً!... هدرت غرفة الطعام الضخمة بحماس من جديد وبصورة متراصة: ضاقت الغرفة بالاصوات فانطلقت الى ظلام الليل.

- طيب. ايها الرفيق ايفانكو، اكتب على ورقة: يتعرض كل من لا ينفذ أقل أمر أو يفتح المناقشة للرمي بالرصاص بلا محاكمة. وليوقع هذه الورقة جميع القادة.

تناول المرافق من جيبه قصاصة ورق، واختار لنفسه مكاناً قرب الشمعة، وشرع بالكتابة.

– و انتم يا رفاق، عودوا الى اماكن تواجدكم، وابلغوا الفصائل بالمرسوم الجديد: النظام حديدي ولا يرأف بأحد...

أنشأ الجنود بالخروج حشوداً متدافعين و فارغين من تدخين سكائرهم الى الشرفة، ثم الى الحديقة، وكانت اصواتهم تعيد الحياة الى الظلام ابعد فابعد.

وطفقت السماء بالتنور فوق البحر.

أحس القادة فجأة ان ثقلا انزاح عن كواهلهم. وتبين ان كل شيء أمسى بسيطاً، واضحا، ومضبوطاً، وأخذوا يتبادلون النكات، يضحكون، ويتقدمون واحداً تلو آخر للتوقيع على الامر بالاعدام.

وراح كوجوخ يعطى الأوامر بجبين عال مطل على العينين، وكأن كل ما حدث الآن لم يمت بأي صلة الى ذلك الأمر الهام والكبير الذي يتوجب عليه القيام به.

– ايها الرفيق فوستروتين، خذ سرية و...

تواصل وقع حوافر حصان قادم عدوا، وانقطع عند الشرفة. وتناهي كيف ان الحصان – يجب ان يكونوا قد شدوه – همز فانتفض عاليا واصدرت الركائب رنينا.

لاح في الغسق المتلألىء بضوء خافت رجل من كوبان معتمرا باباخا.

– ايها الرفيق كوجوخ، – قال الرجل، – توقف الرتلان الثاني والثالث للنوم على مبعدة عشرة فراسخ الى الوراء. ويطلب الآمر الانتظار لحين وصول الرتلين اليكم، لكي تسيروا معاً...

تفرس فيه كوجوخ بملامح ساكنة متحجرة.

– وماذا بعد؟

– ان البحارة يسيرون زمراً زمراً بين الجنود والعربات يصرحون ويحرضون الجنود على رفض أوامر القادة، ويطلبون الى الجنود ان يقودوا هم انفسهم، ويقولون: يجب ان تقتلوا كوجوخ...

– وبعد؟

– القوزاق طردوا من الشعب. صعد رماتنا الشعب، وطردوا القوزاق الى الجهة الأخرى. الآن كل شيء هادىء. لدينا ثلاثة جرحى وقتيل واحد.

لاذ كوجوخ بالصمت. ثم قال:

– طيب. اذهب.

غدت الوجوه والحيطان في غرفة الطعام اكثر وضوحا. و تحرك في اطار لوحة بحر ازرق خلقته ريشة فنان باعجوبة، بينما تحرك فى اطار النوافذ البحر نفسه، ازرق رائع الجمال.

– ايها الرفاق القادة، خلال ساعة تنطلق جميع الوحدات ذاهبة. يكون السير بأقصى سرعة، ولا يتوقف أحد الا لارواء ظمأ الناس وايراد الخيل. توضع في كل شعبة سلسلة من الجنود حملة الرشاشات. لاتسمحوا بابتعاد الوحدات عن بعض. راقبوا الجنود بشدة كيلا يسيئوا الى الاهالي. ارسلوا لي التقارير عن وضع الوحدات بواسطة رسول خيال!

– سمعا و طاعة! – هدر القادة.

– يا رفيق فوستروتين، أنت انقل سريتك الى المؤخرة، اعزل البحارة ولا تسمح لهم بالسير معنا. ليسيروا مع الارتال الاخرى.

– سمعا وطاعة.

– خذوا معكم الرشاشات، واذا ما اعترضوا اطلقوا النار عليهم.

– سمعا وطاعة.

تقدم القواد دفعة واحدة نحو الباب.

وشرع كوجوخ يملي على الياور، من من القادة يقصى من مهامه، ومن ينقل، ومن منهم يرقى الى رتبة اعلى.

بعد ذلك طوى الياور الخارطة وخرج مع كوجوخ.

وران صمت في الغرفة الضخمة الفارغة. الملطخة بالبصاق، المليئة ارضيتها باعقاب السيكائر، والتي كانت تسودها رائحة ثقيلة خلفها الناس وتلألأت بقية الشمعة بضوء أحمر في الغرفة التي غادرها الجميع، وبدأت الاخشاب تتعتم تحت الشمعدان وتتعفن وأخذ يرتفع منها دخان خفيف. اما البنادق والسروج فغابت عن النظر.

وكان ضباب ضارب الى الزرقة يرتفع فى ذلك الفجر من البحر المرئي في الابواب المفتوحة على مصاريعها.

تناثرت طبول الايقاظ مثل الحمص على امتداد الشاطيء، فى الجبال، وبعيدا في الأمام وفي الوراء. وأخذت الابواق تعزف في مكان ما بالضبط مثل زعيق سرب احمق من البجع. وكان صدى هذا الزعيق النحاس يسمع عند سفوح الجبال، وفي الشعاب، وعلى الشاطىء، بينما مات في البحر، لأن البحر انفتح على نحو لا حد له. وارتفع عمود ضخم من دخان فوق الفيلا الرائعة التي تركها الناس قبل قليل، اذ فعلت بقية الشمعة المنسية فعلتها.

الفصل الثامن عشر

تأخر الرتلان الثاني والثالث السائران وراء رتل كوجوخ مسافة بعيدة. اذ لم يرغب أحد ببذل مزيد من جهد بسبب من الحر والتعب. كانا يتوقفان للنوم باكرين وينطلقان في السير متأخرين صباحاً. وكانت المسافة بين رتل كوجوخ والرتلين المتأخرين في الطريق العام تزداد اكثر فاكثر و تلوح بيضاء خاوية.

حين توقفوا للنوم، اتخذ المخيم ايضا، مكانا للمبيت بطول عدة فراسخ على امتداد الطريق العام بين الشاطىء والجبال. وكذا ايضا ما ان خلد الناس المعفرين بالغبار، التعبين، المضنين من القيظ الى الراحة، الا واشعلوا المواقد بفرح؛ وارتفعت بينهم الضحكات والاحاديث ونغمات الهارمونيكا وصدحت الاغاني الاوكرانية العزيزة، تارة الحميمة والرقيقة منها وطورا الرهيبة والغاضبة منها، مثل تاريخ هذا الشعب.

وكذا ايضا بالضبط، كان البحارة المطرودون من الرتل الأول يتجولون بين المواقد معلقين القنابل والمسدسات بأجسادهم، مطلقين الشتائم، و قائلين:

— أ أنتم قطيع؟ والا فمن انتم؟ وراء من تسيرون؟ وراء ذي كتافيتين ذهبيتين في الجيش القيصرى. ومن عساه يكون كوجوخ؟ ألم يخدم القيصر؟ خدم بالطبع، وهاهو الآن قد اصبح بلشفيا. وهل تدرون انتم من هم البلاشفة؟ لقد جلبوهم من المانيا في

عربات مختومة بشمع احمر. فتبين انه يوجد في روسيا مغفلون يركضون وراءهم ركضا اعمى. وهل تعلمون انهم عقدوا اتفاقاً سرياً مع غليوم؟ هنا عقدة المسألة، يا لكم من قطيع اعمى! تحطمون روسيا وتبيدون شعبها. أجل، نحن الاشتراكيين الثوريين لم نعر احدا اذنا صاغية: لقد اعطت الحكومة البلشفية من موسكو لنا الأوامر بتسليم الاسطول للألمان، فلم ننصع لها، واغرقناه، وسلام! انظروا ماذا ابتغوا.. انتم أيها الصعاليك، يا قطيع اغنام، لا تعرفون شيئا، تسيرون مطأطئي الرؤوس. لقد باع البلاشفة روسيا بكل احشائها لغليوم، واستلموا بالمقابل قطارا مليئا بالذهب الالماني. يا سفلة، يا حيوانات جرباء، يا ابناء الزني!

– ماذا جرى لكم لكي تنبحوا هكذا كالكلاب! اغربوا عن وجوهنا يا اولاد الفاسقات!..

كان الجنود يشتمون البحارة، لكن ما ان يغادر البحارة الا ويشرعون بالكلام تأثرا بأقوالهم:

– الحقيقة هي الحقيقة دائماً... وان كان البحارة اناسا ثرثارين فانهم يقولون الحقيقة. لماذا لا يقدم لنا البلاشفة المعونة؟ لقد أغار علينا القوزاق فلماذا لا يرسلون الينا الامدادات من موسكو – انهم لا يفكرون الا بأنفسهم.

وتناهت ايضا من شعب محلولك وسط الظلام اصوات اطلاقات، وكانت تشتعل شرارات النار وتنطفىء في لحظات فى اماكن مختلفة. و طقطق الرشاش قليلا ثم ساد الصمت والهدوء على المخيم رويداً رويداً.

وكذا أيضا بالضبط، اجتمع قادة الرتلين في بيت صيفى فارغ تطل شرفته على بحر لامرئى. ولم يكن يفتتح الاجتماع ما لم يهرع رسول مستحثا حصانه بأقصى سرعته ويجلب الشموع من البلدة. وكذا ايضا، بسطت خارطة على مائدة طعام، وامتلأت ارضية الغرفة باعقاب السيكاير، وعلى الحيطان لوحات فنية ثمينة، ممزقة، منسية.

يجلس سمولوكوروف الضخم، أسود اللحية، طيب القلب لا يدري اين يدفع بقواه الجسمانية، يجلس مرتديا قميص بحارة

ابيض مباعدا بين ساقيه ، يرتشف الشاي، ومن حوله قادة الوحدات.

كان المرء يشعر من طريقة تدخينهم ورميهم اعقاب السيكاير والدوس عليها بالاقدام انهم لا يعرفون من اين يبدأون؟!

وكذا ايضا بالضبط، كان كل واحد من المجتمعين يحسب ان من واجبه انقاذ هذا الحشد الكبير، وقيادته.

الى اين؟

الوضع غامض غير محدد. ماذا ينتظرهم في الأمام؟ لايعرفون غير انهم كانوا يدركون امراً واحداً حسب، الا وهو ان الهلاك من ورائهم.

– من الضروري جدا انتخاب قائد عام للأرتال الثلاثة – قال احد القادة.

– مضبوط!.. صحيح!.. – هدر الآخرون.

وكل واحد كان يود ان يقول:

«بالطبع، اختاروني انا» – الا انه لم يستطع ان يقول ذلك.

و لأن جميعهم كانوا يرغبون بتبوأ منصب القائد العام، لذا لاذوا بالصمت ودخنوا دون أن ينظروا فى وجوه بعضهم البعض.

– ينبغي في آخر المطاف القيام بعمل ما، ينبغي انتخاب احداً ما، انني ارشح سمولوكوروف!..

– سمولوكوروف!... سمولوكوروف!

فجأة تم العثور على مخرج للوضع الغامض – وفكر كل منهم: «سمولوكوروف رفيق ممتاز وشاب يعول عليه. وهب نفسه للثورة بتفان. صوته مسموع على بعد فرسخ. يخطب جيدا في الاجتماعات لكنه سيفشل في هذا الموقع!.. عندئذ، بالطبع، سيرشحونني أنا...»

وصرخ الجميع بصوت أليف من جديد:

– سمولوكوروف!... سمولوكوروف!...

فتح سمولوكوروف يديه الكبيرتين مرتبكا:

– انا... انتم بأنفسكم تعرفون، أنا بحار، وفى البحر انني لقادر على قلب أسرع السفن الحربية المدرعة، اما هنا، فنحن على اليابسة!

— سمولوكوروف!.. سمولوكوروف!..

— مهلا انا... طيب، اوافق، لكن بشرط ان تساعدوني انتم جميعا يا اخوان، والا فانا وحدي... طيب، ننطلق غداً، اكتبوا الأمر.

كان الجميع يعرف جيداً، انهم اذا كتبوا الأوامر او لم يكتبوها فأن لامفر أمامهم من ان يجرجروا أقدامهم مواصلين السير. ذلك لأنه لا يجوز الوقوف في مكانهم ولا العودة الى الوراء حيث القوزاق، الى الموت. وكان الجميع يدرك انه ليس من عمل آخر غير الانتظار وترقب سمولوكوروف بأعطاء ايعازات خاطئة وكسر رقبته بنفسه. زد على ذلك انه ليس لديه من شيء يكسر به رقبته غير الركض وراء رتل كوجوخ.

وقال احدهم:

— يتعين ابلاغ كوجوخ بانتخاب قائد جديد.

— سواء بالنسبة له، سيصر على رأيه. زعق القادة من حوله.

ضرب سمولوكوروف قبضته بشدة على المائدة، فأنت الواحها تحت الخارطة.

— سأرغمه على الانصياع، سأرغمه! لقد ذهب صوب المدينة مع رتله. هرب بشكل مخز. كان يتعين عليه البقاء ودخول المعركة، لكي ترقد عظامه في القبر بشرف.

تفرس الجميع في سمولوكوروف. فهب واقفا بقامته الفارعة الطول، وكان مقنعا ليس بكلماته بقدر ما كان بضخامة جسمه ويده الممتدة بتناسق. وشعروا فجأة انهم وجدوا المخرج: كوجوخ هو المسؤول عن كل شيء. انه يركض الى امام، ولا يسمح لأحد باظهار نفسه واستثمار قابلياته، ويتعين بذل كل الجهود، كل المساعي في النضال ضده.

وجرى العمل على قدم وساق. هرع احد المراسلين الى كوجوخ قبل منتصف الليل. انشأوا مقر قيادة. اخرجوا الآلات الكاتبة. نظموا مكتبا فاشتغلت الماكنة.

وشرعوا بطبع نداءات على الآلات الكاتبة موجهة الى الجنود

بهدف تربيتهم وتنظيمهم: «تذكروا، ايها الرفاق، ان جيشنا لا يخشى الصعوبات...»

وكانت هذه الاوامر توزع وتقرأ في الفصائل وسرايا الخيالة. وكان الجنود يصيخون السمع بلا حراك، دون ان يرف لهم جفن، بعد ذلك كانوا يحصلون على الاوامر بجهد جهيد، وبحيلة، وبشجار في بعض المرات، ويسوونها على الركب ليصنعوا منها اللفائف ويدخنوها.

وارسلوا اوامر الى كوجوخ أيضا. الا انه كان يتقدم برتله الى امام كل يوم اكثر فأكثر، وتزداد المسافة الفاصلة بينه وبينهم على الطريق العام الخالي من الناس. وكان هذا الأمر يثير غيظهم.

- ايها الرفيق سمولوكوروف، كوجوخ لا يساويك بقرش. انه يواصل السير الى امام - قال القادة - ويبصق على أوامرك.

- ماذا ستفعلون معه - كان يضحك سمولوكوروف ويجيب بطيبة قلب - انني غير قادر على تدبير الامور في البر، انا متخصص في البحرية...

- لكنك انت القائد العام للجيش كله. ولقد انتخبناك، بينما كوجوخ ليس غير واحد من مرؤوسيك.

يلوذ سمولوكوروف بالصمت دقيقة، ثم يستشيط جسده الضخم غيظا:

- طيب، سأوقفه عند حده!.. سأوقفه !..

- علام نجرجر اقدامنا وراءه!؟ من الضروري وضع خطة لأنفسنا. خطتنا الخاصة. انه يريد بلوغ الطريق العام عبر المضيق الجبلي، الطريق التي تمتد من البحر عبر الجبال الى سهوب كوبان، بينما نحن نتحرك الآن من هنا عبر المتن، عبر دوفينوفكا - ثمة طريق قديمة عبر الجبال، ستكون اقصر.

- ارسلوا امرا عاجلا الى كوجوخ، - هدر سمولوكوروف - يفرض عليه عدم التحرك هو ورتله من مكانه، ويبلغه بالحضور الى هنا باقصى سرعة للاجتماع! سيتحرك الجيش من هنا عبر الجبال. اذا رفض التوقف سأعطى الايعاز للمدافع بتحطيم رتله.

لم يستجب كوجوخ لهذا الأمر وظل يسير ويسير بحيث اصبح لا يبلغ.

أمر سمولوكوروف ان ييمم الجيش شطر الجبال. حينئذ تصيد رئيس هيئة اركانه، وسبق له ان كان في الاكاديمية، ويستطيع ان يراعى الاوضاع، لحظة غياب القادة الذين تثور ثائرة سمولوكوروف في حضورهم، فقال باحتراس، اذ كان سمولوكوروف عنيدا بشكل غير معقول:

– اذا ما سرنا في هذا الطريق، عبر السلسلة الجبلية، اضعنا في الجبال صعبة الاجتياز جميع العربات، والنازحين، والاهم من كل هذا، جميع المدافع. لانه ليس ثمة في الجبال طريق سالكة، انما هناك نقب ضيق، بينما يتصرف كوجوخ تصرفا صحيحاً: يتوجه الى ذلك المكان حيث يمر الطريق العام عبر الجبال، من دون المدافع سيأخذنا القوزاق اسرى بلا سلاح، اضافة الى انهم سيقسموننا قسمين – كوجوخ على جهة ونحن على جهة.

على الرغم من ان هذا الأمر كان واضحا لكنه لم يكن مقنعاً. وكان المقنع في الأمر ان رئيس هيئة الاركان كان يتحدث بحذر وتدارك شديدين بالنسبة لسمولوكوروف، فهو قد تعلم في اكاديمية حربية، وانه لا يتبجح بهذا!

– اعطوا الاوامر للتقدم في الطريق العام – قال سمولوكوروف متجهما.

وسالت من جديد حشود الجنود، والنازحين، والعربات بصخب وبلا نظام.

الفصل التاسع عشر

بدلا من ان يخلد رتل كوجوخ المتوقف للمبيت وسط الظلام الى الراحة، تتعالى منه، كالمعتاد، الاحاديث، نغمات البلالايكا، الحان الهارمونيكا، وضحكات الفتيات او تنساب منه اصوات متناسقة. منتظمة مفعمة بمرونة الشباب، والمعانى الخفية، المحفزة للنشاط، مالئة الليل وباعثة فيه الحياة.

تزعق الجبال المتموجة وتئن
في البحر الضارب الى الزرقة
يبكى القوزاقي ويحن
في العبودية التركية.

تارة ترتفع الاصوات وطورا تنخفض. أليس هو البحر الذي ترتفع و تنخفض أمواجه في هذه الاصوات الشابة؟ وهل انساب الحنين في ظلام الليل - يعاني القوزاق، يعاني الشباب وأليست الأغاني عنهم، وأليسوا هم الذين انعتقوا من عبودية الضباط والجنرالات والبرجوازيين، وأليسوا هم الذين يسيرون لخوض المعارك من اجل الحرية؟ ألم ينساب الشجن، الشجن - الغبطة في الظلام المفعم توترا؟

في البحر الضارب الى الزرقة...

والبحر هنا ايضا، فى الاسفل، تحت الاقدام، الا انه أخرس وغير مرئي.

وانسيابا مع هذا الشجن - الغبطة ارتدت اطراف الجبال لوناً ذهبيا خفيفا. وغدت هياكلها بتأثير ذلك اكثر سواداً، اكثر حزنا - وارتدت كسور الجبال المسننة لوناً ذهبياً خفيفاً.

بعد ذلك انساب ضوء القمر المنثال طويلا عبر السروج، عبر المضايق، عبر الشعاب كالدخان، وامتدت الى جانبهم ظلال الأشجار، والصخور، والهامات، اكثر سواداً واكثر كثافة - اكثر حزنا واكثر حلكة.

حينذاك رفع القمر رأسه من وراء الجبال، هل بسخاء، وتغير وجه العالم، بينما اقلع الشباب عن الغناء. وتراءى الفتيان والفتيات جالسين على الاحجار، على الاشجار المتساقطة، على الصخور، ولاح البحر من تحت الصخور، وكان من غير الممكن النظر اليه. ذلك لانه كان يتدفق منه، و يفيض فيه ذهب بارد منصهر. كان منظرا لا يحتمل النظر.

- ثمة من يتنفس - قال أحدهم.

– يقال ان الله قد خلق كل هذا.

– علام الأمر هكذا؟ اذا سرت في طريق مستقيم وصلت رومانيا، او اوديسا او مدينة سيباستوبول، الى حيث يتوجه عقرب البوصلة.

– اما نحن يا اخوان، فكان يحدث على الجبهة التركية ما ان تبدأ المعركة الا ويبدأ القس بتلاوة الصلوات. ومهما كان القس يزيد من صلواته فان عدد القتلى من اخواننا كان يتزايد على نحو هائل ايضا.

تقتحم دفعات جديدة زرقاء مضببة، تتمدد على الجرف، تتكسر على الحافات الناتئة، تارة تبرز زاوية الصخرة البيضاء، وتارة الاشجار الممتدة الاغصان أو الجرف النازل الذي تضربه الشقوق طولا وعرضا، ويلوح كل شيء بشكل حاد، واضح، وحيوي.

فى الطريق العام صخب، احاديث، وقع خطوات، سباب كاللعنة، وشتائم مقذعة. رفع الجميع رؤوسهم، تلفتوا...

– من هؤلاء؟ اي سفلة هناك يتبادلون الشتائم! يا أولاد الفاعلة!

– انهم البحارة يبحثون عما لا يستحقونه.

سار البحارة حشدا كبيراً غير منظم، تارة مغمورين بضوء القمر، وتارة مختفين في الظلمة، وكانت تعوم فوقهم سحابة خانقة من الشتائم المقذعة مثل غيمة نتنة. أطبق ضجر. شعر الشباب والشابات بالتعب، وتمطوا متثائبين، و اخذوا يتفرقون.

– ينبغي النوم.

وصل البحارة بصخب وضجيج، مصحوبين بالشتائم، الجرف الحجرى، كان كوجوخ نائما في عربة واقفة في ظل القمر الكئيب.

– الى اين؟! – سد حارسان عليهم الطريق بالبنادق.

–اين القائد؟

وكان كوجوخ في هذه الاثناء قد وثب، واشتعلت عينان متوحشتان في الظلمة فوق العربة. اتخذ الحارسان هيئة استعداد.

– سنطلق النار!

– ماذا تريدون؟ – تناهى صوت كوجوخ.

– لقد جئنا اليك أيها القائد. نفدت مؤونتنا كلها. ماذا نفعل،

هل نموت جوعاً؟! ان عددنا خمسة الاف نسمة. ولقد وهبنا حياتنا كلها للثورة، اما الآن فنموت من الجوع!

لم يكن يرى وجه كوجوخ، لانه كان واقفا في ظلمة حالكة. الا ان الجميع كان يرى عيناه المتوحشتان المتوقدتان.

– انضموا الى صفوف الجيش، سنمنحكم البنادق، ونصرف لكم تعينا. موادنا الغذائية على وشك النفاد. ولا نتمكن من اطعام أحد سوى المقاتلين من حملة السلاح، والا فلن نوفق في الاجتياز. وحتى حصص المقاتلين قد قلت.

ألسنا نحن مقاتلين؟ لماذا تجبروننا على الانتساب بالقوة؟ نعرف بأنفسنا كيف نتصرف. عندما يتطلب الأمر ذلك سنقاتل. سنقاتل ليس اسوأ منكم، بل أفضل. انتم لن تعلمون الثوار القدماء. اين كنتم عندما زعزعنا عرش القيصر؟ كنتم تخدمون ضباطا في الجيش القيصري. اما الآن فبعد ان وهبنا الثورة كل شيء علينا ان ننفق... لقد استشهد الف وخمسمائة من رفاقنا، واراهم الضباط التراب وهم أحياء.

– اجل، هؤلاء استشهدوا بينما انتم تمرحون هنا مع النساء...

زمجر البحارة مثل قطيع من الثيران:

– وتتجرأ ان تدخل اصبعك في اعيننا نحن المناضلين!..

يزمجر البحارة، يلوحون بالايدي امام الحارسين، الا ان الشرارتين الوحشيتين المنبعثتين من عيني كوجوخ لن يخدعهما أحد. فانهما تريان كل شيء: انهم هنا يزمجرون ويلوحون بالايدي، بينما في الاطراف، من الجوانب، من الخلف تتسلل اشباح منفردة منحنية، راكضة عبر خطوط قمرية زرقاء داكنة، وهي تفك القنابل في عدوها. وفجأة انقضوا من جميع الجهات على العربة المحاصرة.

وفي اللحظة نفسها لعلع الرصاص: تا.. تا.. تا..

تلألأت نيران الرشاش في العربة. وما ان اذعن الرشاش لهاتين العينين المتوحشتين في خطوط الظلام المتموجة وضوء القمر الداخن الا وابتعدت كل الطلقات ولم تصب احداً، غير ان رياح الموت هبت بشكل مفزع على قبعات البحارة. وتفرق الجميع بسرعة:

– اما من شيطان! ياله من شاطر!.. لوكان كل رماة الرشاشات مثله...

يرقد المخيم بلونه الفضي المعتم في مساحة رحبة من الارض. ترقد الجبال الداكنة في الافق. بينما تنساب الطريق على امتداد البحر متشنجة.

الفصل العشرون

لم تلحق السماء بالتنور الا ومد الرتل رأسه بعيدا، وراح يزحف في الطريق العام.

على اليمين – المرتع الازرق نفسه، على اليسار – ترتفع جبال كثيفة الغابات، تنتصب فوقها صخور ملساء.

ويهب من وراء المتون الصخرية قيظ محترق. في الطريق العام سحابات الغبار نفسها، واسراب من الذباب لا تني تلتصق بالناس، بالحيوانات – انه ذباب سهوب الكوبان يرافق المتراجعين من بيوتهم بوفاء، ينام معهم، وما ان ينبلج الفجر الا و ينهض معهم أيضا.

يزحف الطريق العام عائما بسحابات الغبار، متمايلا مثل تنين ابيض، في عمق الغابات. صمت. ظلال باردة. تلوح الصخور خلل الأشجار. على مبعدة خطوات من الطريق العام تواجه المرء ادغال كثيفة يصعب عليه اجتيازها؛ تتشابك فيها حشائش الدينار و الليبان المتسلقة. تبرز ابر الشجيرات الشائكة الكبيرة، وتوخزه اشواك معقوفة لشجيرات غريبة. تصادفه اوكار دببة، قطط وحشية، ماعز، أيائل، و الوشق يصيح في الليل صياحا اشبه بمواء القطط. يسير المرء مئات الفراسخ ولا يعثر على اي اثار للناس. ولا من شيء يسمع عن القوزاق.

عاش الشركس هنا في زمن ما مبعثرين في الجبال. فشقوا الدروب المتعرجة في الشعاب والغابات. ونادرا ما كانت تلوح الساكلات* رمادية، مثل الحبات، تحت الصخور بينما يصادف ان يرى المرء بين الغابات البكر ساحات صغيرة مزروعة بالذرة الصفراء، أو بساتين معتنى بها جيد اعتناء قرب الماء في الشعاب.

---

* ساكلا: مسكن في جبال القفقاس – **المترجم**

قبل حوالي سبعين سنة طردت الحكومة القيصرية الشركس الى تركيا. ومنذ ذلك الحين نمت الخمائل الكثيفة على الدروب، واستوحشت البساتين الشركسية، وانبسطت قفراء جبلية عطشى واوكار وحوش على امتداد مئات الفراسخ.

يشد الرجال الاحزمة على بطونهم اقوى فأقوى، ذلك لأن كمية الطعام المقدمة كانت تقل مع كل وجبة.

تزحف العربات، يجرجر الجرحى اقدامهم متشبثين بالعربات. تترنح رؤوس الاطفال تشد خيول المدفعية الضامرة الى اعنة المدفع الوحيد.

والطريق العام ينعطف مثل انشوطة متعرجا منحدرا نحو البحر بالذات. والدرب الذي ترسمه الشمس في البحر يمتد ساطعاً، يعشي العيون، في ابعاد زرقاء لا نهاية لها.

وتأتي غضون مائية شفافة، كالزجاج، بالكاد ترى من مكان ما، بعيد، تغسل على نحو رطيب الحصى الغزير على الشاطىء.

يزحف الجيش العرمرم في الطريق العام دون ان يتوقف دقيقة واحدة، ويركض الفتيان والفتيات، والاولاد الصغار، والجرحى القادرون على الركض على الجرف، نازعين، في ركضهم، اسمالهم من بناطيل وقمصان وتنانير، راصفين بنادقهم على شكل هرم بسرعة ورامين فورا أنفسهم في المياه الزرقاء. فيرتفع رذاذ الماء، متلألئاً ويقدح قوس قزح. وينفجر ضحك، زعيق، صياح، واصوات دهشة، وصخب حيوى – لقد بعثت الحياة على الشاطىء.

سكن البحر، وراح يلحس الشاطىء المفعم حيوية واجساد الناس الصفراء التي تتحرك بانفعال في خضم الصراخ والعويل والضحكات، مثل وحش ضخم ذي تجاعيد حنونة ذكية.

الرتل يزحف ويزحف.

يخرج البعض من الماء فينتزعون من الارض بناطيلهم وقمصانهم وتنوراتهم، وبنادقهم، ويركضون متأبطين ملابسهم الفائحة برائحة نتنة، وتهتز قطرات الماء مثل لآلىء على أجسادهم المشمسة، ويلحقون بجماعتهم ويرتدون في الطريق العام ملابسهم المتشربة عرقا مستعجلين، وسط ضحكات ومداعبات مرحة ونكات مبهجة.

يركض بعض آخر منهم الى اسفل، نازعين ملابسهم في الطريق،

رامين انفسهم في هذا الصخب، والضجيج، والرذاذ، و اللألئة. ويلعق هذا الوحش الهادئ بنفس تجاعيده الشفافة السابقة المتسارعة أجسادهم بحنان.

بينما الرتل يزحف ويزحف.

لاحت بيوت الاصطياف، لاحت بيوت البلدة، متناثرة على نحو شحيح على الشاطئ المقفر. ويقترب كل شيء من الطريق العام الضارب الى البياض - السبيل الوحيد للحركة خلال الغابات، الصخور، الشعاب، وجروف البحر.

كان الشباب يركضون مسرعين الى بيوت الاصطياف، يفتشون كل مكان فيها فلا يجدون شيئا غير الغرف الفارغة المهملة.

و في البلدة كان اليونانيون السمر ذو الانوف الكبيرة والعيون السوداء الداكنة، المنطوون على انفسهم، ساكتين بحقد دفين.

- ليس لدينا خبز... ليس لدينا... نحن جوعى ايضاً...

انهم لا يعرفون من هم هؤلاء الجنود، من اين والى اين ولماذا هم سائرون، فلا يستوضحون شيئا، انهم منطوون على انفسهم بحقد.

شنوا حملة تحر، فتأكدوا بالفعل انه ليس لديهم خبز. الا انه كان يظهر من وجوههم انهم يخفون خبزا، ونظراً لكون هؤلاء غرباء، يونانيين، انتزعوا منهم كل الماعز على الرغم من نواح اليونانيات السوداوات العيون.

وكانت ثمة قرية روسية في شعب يفصل جبلين، لا احد يعرف كيف رميت هناك. كان يلتمع في اسفل الشعب نهر ذو التواءات، بيوت، مراع. وكان يلوح حقل أصغر تزرع فيه الحنطة - انهم من ذوينا، من اهالي بولتافا، يتحدثون بالاوكرانية.

تقاسموا معهم، كل ما تمكنوا اليه سبيلا من الخبز والذرة، وأخذوا يتساءلون الى اين ولماذا. لقد سمعوا انه اطيح بالقيصر وجاء البلاشفة، اما كيف ولماذا فلا يعرفون. شرح لهم الشباب كل شيء، وأخذوا منهم كل الدجاج، والوز، والبط تحت صياح ونواح النساء على الرغم من شفقتهم عليهم، ومع ذلك فان هؤلاء من ذويهم!

يمر الرتل ممتدا بلا توقف.

– نريد الأكل، – يقول الشباب وهم يشدون الحبال اكثر فأكثر على سراويلهم.

يتحرى الخيالة بيوت الاصطياف، وفي آخر بيت عثروا على حاك وعدد من الاسطوانات. ربطوا الحاكي على سرج احد الخيول، و صدح عبر الصخور، عبر صمت الغابات، في سحب الغبار البيضاء.

– برغو – و... و...ث! برغو و.. و.. – كان الصوت خشنا، اشبه بنهيق. انه صوت انسان، لكن مع ذلك لا تحسبه صوتا انسانيا.

كان الشباب يخطون و يقهقهون من اعماقهم.

– هيا..! هيا ادر اغنية البرغوث! مرة اخرى!

بعد ذلك وضعوا الاسطوانات في الحاكي تباعاً: «سأخرج الى النهر...»، «لا تغويني...»، «بنىآدم على الارض...»

وغنت احدى الاسطوانات: «يا ربنا احفظ قيصرنا».

صخب الجميع حول الحاكى:

– لتذهب امه والرب الى...!

– ضعه على...ك!

انتزعوا الاسطوانة من الحاكى ورموها على الطريق العام تحت اقدام السائرين التي لا تعد ولا تحصى.

ومنذ ذلك الحين لم يعرف الحاكى هدوءاً لحظة واحدة، فكان يزعق بالاغاني و الرومانسات والاوبرات من الفجر وحتى ساعة متأخرة من الليل بصوت ابح صارخ. وكان يتنقل من فصيل خيالة الى فصيل خيالة آخر، من سرية الى اخرى، وحين كانوا يؤخرونه كان يصل الأمر الى الشجار. واصبح الحاكى حبيب الجميع، وغدوا يعاملونه معاملة مخلوق حي.

الفصل الحادي و العشرون

رجل من كوبان يعتلى صهوة جواد، منحن على السرج، مزيح باباخته على قفاه، يركض خببا للقاء السائرين صارخاً.

– اين القائد؟

كان وجه الفارس عرقا، والحصان يحرك جنبيه المبتلين بمشقة.

وعامت على الجبال الكثيرة الغابات غيوم كبيرة مدورة لامعة بيضاء، محدقة في الطريق العام.

– ربما سترعد السماء.

توقف رأس الرتل في مكان ما وراء منعطف الطريق العام. وكانت تتوقف صفوف المشاة، متكاثفة ومتوحدة. واخذت العربات تتوقف متكئة على مؤخرات العربات الاخرى، محرفة اوجه الخيول. وتحركت موجة التوقفات على طول الرتل حتى آخره.

– ماذا حدث؟ لم يحن آوان الاستراحة بعد.

وسكب وجه رجل الكوبان المتسارع، وجنبا الحصان المتشنجان بعجالة، والتوقف في غير محله، اضطرابا غامضا في الرتل. في مكان ما بعيد، في الامام، صدحت اطلاقات واهية وسكتت مضفية على كل شيء معا مغاز ومعان وخيمة. فانطبع صدى صوتها في الصمت المرين ولم ينمح.

سكت الحاكي. سار كوجوخ في عربة الى رأس الرتل متسارعا. بعد ذلك رمح من هناك خيالة وسدوا الطريق مطلقين شتائم غليظة:

– ارجعوا الى وراء!.. سنطلق النار!.. حتى تنفقوا جميعكم ههنا...

– ... نحن نوجه الكلام اليكم... ستنشب هناك الآن معركة، وانتم تدسون انفسكم. لا يجوز لقد امر كوجوخ باطلاق النار عليكم.

واصبح الجو فجأة معبأ بالقلق، وارتفع بكاء وصراخ النساء، الشيوخ، العجائز، الفتيات، الاطفال:

– الى اين نذهب؟ لماذا تطردوننا، ماذا سنفعل؟ نحن معكم في السراء والضراء.

الا ان الخيالة كانوا بلا رحمة.

– أمر كوجوخ بان تكون هناك مسافة خمسة فراسخ بينكم وبين الجنود، لانكم تعيقون الجنود عن العراك.

– السنا نحن من ذويكم؟ ان زوجي ايفان هناك.

– وميكيتا.

– واوباناس أيضا.

– ستذهبون انتم ونبقى نحن ستتخلون عنا.

– أتفكرون انتم بأطيازكم؟ لقد قلنا لكم انهم يقاتلون من اجلكم. وما ان ينظفوا الطريق نسمح لكم بالسير على الطريق وراءنا. والا فانكم تقفون عقبة امامنا. ستنشب معركة.

تكومت العربات جميعها على بعضها البعض. احتشد السائرون، الجرحى، وارتفعت ولولة النساء. تجمد رتل العربات مالئاً الطريق العام نحو عشرات من الفراسخ. ابتهج الذباب وغطى بغزارة ظهور وجوانب واعناق الجياد، والتصق بالاطفال، وراحت الخيول تحرك رؤوسها وحوافرها تحت بطونها. بدا البحر ازرق خلل اوراق الاشجار. الا ان الجميع لا يرون شيئا من الطريق المسدود من قبل الخيالة، بينما يقف الجنود من اقرباء النازحين وأعزائهم وراء الخيالة شاهرين بنادقهم، تارة يجلسون، وتارة يلفون السكائر من اوراق الحشيش العريضة، ناثرين فيها عشبا يابسا.

ها هو الرتل قد تململ، وانهض الناس بتكاسل، وتحركوا، وراح الطريق العام ينفتح أوسع فأوسع امامهم، لكن هذه القطعة الواسعة العريضة من الارض المغمورة بالغبارتخفى خطرا وتعاسة.

الخيالة عديمو الشفقة. تنصرم ساعة، واخرى. ويلوح الطريق الخاوى في الأمام ضارباً الى البياض بمشقة كالموت. تنشج النساء بعيون منتفخة ويدمدمن. يلوح البحر ازرق خلل الاشجار، بينما تنظر الغيوم الى البحر من وراء الجبال الغابية.

يتناهى صوت مدفع مرن ودائري من مكان ما مجهول، يليه ثان، فثالث. صدحت دفعة من الاطلاقات المدفعية وراح صداها ينتشر في الجبال، فى الغابات، وفي الشعاب. اطلق رشاش رشقة من الرصاص على نحو ميت وخامل.

عندئذ أخذوا بضرب الجياد بشدة، بكل السياط الموجودة لديهم. اندفعت الجياد الى امام، الا ان الفرسان انهالوا بسياطهم على ابوازها وآذانها وعيونها، بكل ما لديهم من قوة مطلقين شتائم جنونية. بينما شرعت الجياد تحتبط بين عرائش المركبات وهي تشب على قوائمها، ترفس، شاخرة، مديرة رؤوسها، فاتحة مناخيرها الحمراء القانية، موسعة عيونها. وكان آخرون يهرعون من عربات

اخرى، يصرخون بشكل غير انساني، ملهبين ظهر حصان بعشرات السياط. عاط الاطفال كالمطعونين، ضربوا بالاعواد على ارجل الجياد، صرخت النساء على نحو هستيري، ساحبات الاعنة بكل ما لديهن من قوة، وهوى الجرحى بعكازاتهم ايضا على جنبات الخيول.

اندفعت الخيول الجامحة بجنون، فداست بأقدامها وقلبت الفرسان وبعثرتهم، محاولة التخلص من عددها الواهنة، شاخرة بفزع، راكضة في الطريق العام مشرئبة اعناقها منكسة آذانها. هب الرجال الى العربات. وكان الجرحى يركضون متشبثين بالاسيجة، مجرجرين اقدامهم، وما أن تنفصل أياديهم عن الاسيجة الا ويقعوا في ترعة الطريق العام.

يتناهى هدير العربات بين دوامات الغبار الضاربة الى البياض وطقطقة الجرادل المعلقة غير المحتملة، والصيحات الحادة القانطة. ولاح البحر ازرق خلال اوراق الاشجار.

ولم يتوقفوا عن هذا ويأخذوا بالسير بطيئا الا بعد ان لحقت بهم وحدات المشاة.

لم يكن احد يعرف شيئاً. يقول البعض انهم القوزاق اولئك الذين فى الامام. الا أن من المحال ان يظهر القوزاق هنا. ذلك لأن جبالا عظيمة تحيل منذ مدة بينهم وبين الرتل، ويقول بعض آخر انهم قوم اما من الشركس او الكلميك او من الجيورجيين او اقوام غير معروفة، وجيشهم عظيم لايقهر. بتأثير هذا كان النازحون يسرعون بتقريب عرباتهم من وحدات الجيش، وكان من غير الممكن فصلهم، الا باطلاق الرصاص على الجميع فردا فردا.

الحياة عزيزة وان كان هناك قوزاق او جيورجيون او شركس او كلميك وغنى الحاكي على الحصان من جديد:

اهدأ يا قلق أشواقي

ردد الشباب الاغنية فى مختلف اطراف الرتل. ساروا كيفما اتفق في الطريق العام. وتسلقوا من الطريق العام الى الجبال، ممزقين اسمالهم بالاغصان، بالاشواك، بالابر، كانوا يبحثون عن تفاحات مستوحشة صغيرة حامضة جداً ويملأون بطونهم بالحميض مغضنين وجوههم بشكل فظيع. كانوا يجمعون البلوط من تحت الاشجار

ويمضغونه فيسيل من افواههم لعاب مر. بعد ذلك خرجوا من الغابة، عراة، مخرمشين، ساترين عوراتهم ببقايا خرقهم الممزقة.

يشق الجميع طريقهم وسط الغابة: النساء، الاطفال، الفتيات. صياحات، بكاء، ضحكات: فتنغرز الابر في أجسادهم، تخرمشهم الاشواك تتلوى نباتات الليان بقوة، ويتعذر عليهم التحرك لا الى امام ولا الى وراء. لكن الجوع يرغمهم على التسلل الى الغابة.

احيانا تنفرج الجبال، ويصفر على منحدراتها حقل صغير للذرة الصفراء غير ناضجة بعد: تقع قرية صغيرة في مكان ما تحت جرف الشاطئ، الناس يغطون الحقل رأسا كسرب من الجراد. يقطف الجنود اكواز الذرة الصفراء، ثم يسيرون في الطريق ويفركونها بايديهم، وينتقون حباتها غيرالناضجة، ويرمونها في الافواه، بعد ذلك يمضغونها بنهم فترة طويلة.

والامهات ايضا بعد ان ينقين حبات الذرة الصفراء يمضغنها جيداً الا انهن لا يبلعنها بل يدفعن بألسن دافئة هذا السائل اللعابي في افواه الاطفال.

اما هنالك، في الامام، فقد كانت الطلقات تصدح من جديد، ويصدر الرشاش رشقة اخرى، لكن لا أحد يعير له اهتماما — لقد اعتادوا عليه . سكتت الاطلاقات. فانطلق صوت الحاكي كتغريد الطيور:

لم أعد الآن اثق الموثوقين...

يتصايح الناس ويضحكون في الغابة، ويتناهى غناء الجنود من مختلف الجهات، تتوحد عربات النازحين على نحو لا ينفصم مع الوحدات الاخيرة للمشاة، ويتدفق الجميع بلا راحة في الطريق العام عبر سحابات من غبار لا حدود لها.

الفصل الثاني والعشرون

قطع الأعداء الطريق للمرة الأولى — أعداء جدد.

لماذا؟ ماذا يبتغون؟

يدرك كوجوخ — ان الطريق هنا مسدودة. من اليسار — الجبال. من اليمين — البحر. وبينهما — طريق عام ضيق. وفي الطريق العام ثمة جسر من طراز جسور القطارات على النهر السريع المزبد.

ليس من درب بجانبه ليستطيع المرء المرور فيه. بينما وضع الاعداء امام الجسر رشاشات ومدافع. ففي هذا الشق المباشر والمجدول من اعمدة حديدية يمكن ايقاف اى جيش كان. آه، لوكان بالامكان الانتشار! ان الامر مختلف تماما في السهوب!

يسلمونه امر هيئة اركان سمولوكوروف حول كيفية التحرك ضد العدو. يدعك الأمر بيده مصفرا مثل الكركم ضاغطا فكيه، دون ان يقرأه، ثم يرمي به على الطريق العام. يلتقطه الجنود بحذر، يسوونه على ركبهم، ويلفون سكائر، بعد نثر اوراق يابسة عليه.

امتدت القوات على طول الطريق. فرنا كوجوخ الى افرادها: ممزقوا الثياب، حفاة، نصفهم يحمل طلقتين اوثلاث لكل فرد، اما النصف الباقي فلا يحمل غير البنادق مدفع واحد حسب، وست عشرة قذيفة. الا ان كوجوخ نظر الى الجنود ضاغطا فكيه وكأن كل جندى يملك فى حقيبته ٣٠٠ اطلاقة، وتبدو البطاريات رهيبة وصناديق الشحن مليئة بالقذائف، بينما فيما حواليه السهب المألوف الذي سينتشر فيه الرتل حسب العادة حتى آخر شخص فيه.

وبمثل هاتين العينين وهذا الوجه يقول كوجوخ:

– ايها الرفاق! لقد حاربنا ضد القوزاق، ضد الكاديت، ونحن نعرف لماذا حاربنا ضدهم: لأنهم يريدون خنق الثورة.

يحدق الجنود فيه متجهمين، وقائلين بنظراتهم:

«نعرف ذلك من دونك. وماذا في الأمر؟.. ورغم كل شيء سوف لا ندس انفسنا في فسحة الجسر...»

– ... ابتعدنا عن القوزاق، وتفصل بيننا وبينهم الآن جبال وهذا يمهلنا فترة راحة. الا ان اعداء جدد سدوا الطريق علينا هذه المرة. فمن هم؟ انهم الجورجيون المناشفة، الذين لا يفرقون عن الكاديت بشيء، يتعاونون مع البرجوازيين مثلهم. انهم يحلمون باسقاط السلطة السوفييتية...

بينما تقول عيون الجنود:

«انت تتغازل مع سلطتك السوفييتية بينما نحن عراة وحفاة، جوعى، وليس لدينا ما نأكله».

كان كوجوخ يفهم نظراتهم، ويدرك ان هذا الأمر لهو الهلاك بعينه. وخاطب الخيالة لاعبا ورقته الاخيرة:

- ان مهمتكم ايها الرفاق، هي الاستيلاء على الجسر بلا توقف وانتم على صهوات خيولكم.

وادرك الخيالة جميعهم هذه المهمة الطائشة التي وضعها القائد امامهم، والتي تتطلب العدو واحدا تلو آخر (اذلا يمكن الانتشار على الجسر) تحت نيران الرشاش صوب الجسر. وهذا يعني ان جثث نصفهم ستغطى الجسر، بينما لا يجد النصف الثاني امكانية العدو خلالها، وسيقتل حين يندفع الى الوراء.

الا انهم كانوا يرتدون سترا شركسية رائعة و يحملون اسلحة آبائهم واجدادهم اللامعة بالفضة، ويعتمرون الباباخات والكوبانكات المصنوعة من فراء الخرفان بشكل متهور. وكانت الخيول الكوبانية السهبية الرائعة تهز رؤوسها، منتزعة الاعنة، بينما الجميع يتطلعون اليهم، على الاغلب متعجبين - بحيث صاحوا بصوت واحد:

- سنستولى عليه، ايها الرفيق كوجوخ!..

وأخذ المدفع المخبأ يطلق قذيفة اثر اخرى، مالئا الشعاب والصخور والجبال صدى غريبا متزايدا، فى ذلك المكان وراء الجسر الذي كانت تختفى فيه اعشاش الرشاشات. بينما انطلق الخيالة من وراء المنعطف معدلين باباخاتهم، صامتين، بلا صياح او اطلاق النار، وتوجهت الخيول منكسة الآذان، مشرأبة الاعناق بمناخير منتفخة، حمراء قانية صوب الجسر، وعبره.

وتذكر فجأة، الرماة الجورجيون الذين داهمهم الدوي المتعاظم في الجبال، وانكمشوا تحت سحب انفجارات «الشربنل» دون ان ينتظروا مثل هذه الوقاحة وأخذوا يطلقون رشقات من الرصاص. سقط حصان، ثم آخر، فثالث، واذ وصلوا منتصف الجسر، فآخره سقطت القذيفة السادسة عشرة... هربوا.

- هوررررا !! - وراحوا يقطعون الاجساد.

انطلقت وحدات الجورجيين التي كانت تطلق النار واقفة على مبعدة من الجسر نحو الطريق العام واختفت وراء المنعطف.

اما الذين كانوا يقفون بالقرب من الجسر فقد اخذ عليهم الطريق فهربوا صوب الشاطئ. الا ان الضباط الجورجيين افلحوا فى الوثوب الى القوارب قبل ذلك، وتوجهت القوارب بسرعة نحو البواخر.

اخذت سحابات الدخان ترتفع من مداخن البواخر التي شرعت بالابتعاد في عرض البحر.

كان الجنود الجورجيون يصرخون، يلعنون، يحلفون بحياة اطفالهم، ويمدون اياديهم نحو السفن الذاهبة، وهم واقفون في المياه التي كانت تصل حتى رقابهم، بينما كان الخيالة يقطعون رؤوسهم ورقابهم واكتافهم، وتعوم دوائر دموية فوق سطح الماء.

اصبحت البواخر في الافق الازرق تبدو مثل نقاط سوداء، ثم اختفت، ولم يعد أحد على الشاطىء يتوسل او يلعن.

الفصل الثالث والعشرون.

ارتفعت قمم صخرية فوق الغابات والشعاب. حين تهب الريح من هنالك يشعر المرء بنسائم باردة، اما في الاسفل، فى الطريق العام فحر شديد، وذباب وغبار.

امتدت الطريق العامة مثل ممر ضيق، ذلك لأن الصخور كانت تتزاحم على جانبيها. وكانت جذور الاشجار المغسولة معلقة فوق الطريق. والمنعطفات تخفى عن العين، بلمح البصر، كل ما يقع في الأمام وفى الخلف. ليس بامكان المرء تغير مجرى الطريق ولا الانحراف عنها. تسيل الحشود الحية بلا انقطاع باتجاه واحد في الممر. حجبت الصخور البحر.

تتوقف الحركة. تتوقف العربات، الناس، الخيول. الكل يتوقف فترة طويلة بضنى ثم يتحرك من جديد، ويتوقف مجددا. لا احد يعرف شيئا، وحتى لا يرى شيء ما خلا العربات في الامام. وهنالك منعطف و جدار. بينما في الاعالي قطعة من سماء زرقاء.

صوت واه:

– ماما، الحميض!

ومن عربة اخرى:

– ما... ما!

ومن عربة ثالثة:

– اسكتوا من اين نجلب لكم الحميض! هل نتسلق الصخور؟ ألا ترى الصخر؟

لا يهدأ الأطفال، يبكون، ثم يصرخون شاقين حناجرهم، باعلى اصواتهم:

– ما... ما! اعطيني الذرة!.. اعطيني الحميض!.. اعطيني... اعطيني!..

تتلفت الامهات ويضربن اطفالهن مثل ذئاب مصطادة متلألئة العيون.

– اسكتوا! ليس عليكم قصاص! متى تموتون، لقد نفضتم ارواحنا – ويبكين بغيظ ووهن.

يتناهي صوت اشتباك خافت من مكان ما بعيد. لا احد يسمع، لا أحد يعرف.

وتوقفوا ساعة، ساعتين، ثلاث ساعات. تحركوا. ثم توقفوا من جديد.

– ماما... اعطيني ذرة!..

تنبش الامهات في العربات مستشيطات غيظا وينتشلن مطلقات المسبات، من داخلها سيقان الذرة، فيمضغنها فترة طويلة بعذاب، كازات اسنانهن بقوة، بحيث يتدفق الدم من لثاثهن، ثم ينحنين على افواه الاطفال المفتوحة بنهم، ويدفعن فيها السنتهن الدافئة. يأخذ الاطفال عجينة الذرة ويحاولون بلعها، الا ان قش الذرة ينغرز في البلاعيم، فيختنقون ويسعلون، ويبصقون العجينة نائحين:

– لا اريد! لا اريد!

تضرب الامهات اولادهن بغيظ محتدم:

– اى شيطان تريدون اذن؟

يمسح الاطفال الدموع المتسخة من وجوههم، تغص بلاعيمهم، ويبلعون عجينة سيقان الذرة عن لاحيلة.

ينظر كوجوخ في المنظار، ضاغطا على فكيه، من وراء الصخر الى مواقع الاعداء. يتحشد القادة، ينظرون في المنظار ايضا، بينما يرى الجنود مضيقين عيونهم ليس اسوأ من النظر بمنظار.

توسع الشعب وراء المنعطف. وازرقت جبال بعيدة في شقه الواسع. وزحفت غابات عظيمة بكثافة وراء جبل يحجب الشعب. رأس

هذا الجبل صوانى، وتقع قمته جرفا عموديا علوه اربع ساجينات – هناك خنادق الاعداء، والمدافع الستة عشر تنظر بنهم الى الطريق العام الخارج من الممر حين حاول الرتل التحرك من الباب الصخرى تناثر فوقه الرصاص من بطارية المدافع والرشاشات – ولم يبق مكان دون ان يسقط الرصاص فوقه : تراجع الجنود الى الوراء، خلف الصخور. اصبح الأمر واضحاً بالنسبة لكوجوخ – فلن ينقذ نفسه هنا طائر. وليس ثمة من مكان للانتشار، فهناك طريق واحدة حسب– الطريق العام، وفيها يكمن الهلاك. ينظر كوجوخ الى مدينة صغيرة ضاربة الى البياض، بعيدا في الاسفل، الى خليج ازرق حيث تلوح فيه بواخر جورجية سوداء. لا بد من ابتداع شيء جديد، لكن ماذا؟ لا بد من مخرج آخر، لكن اي مخرج؟ ويجثو كوجوخ على ركبتيه ويبدأ الزحف على الخارطة المفتوحة على الطريق العام الأغبر، دارساً اصغر التعرجات فيها، جميع الثنايا، جميع الدروب.

– ايها الرفيق كوجوخ! – يرفع كوجوخ رأسه. فيرى جنديين يترنحان فى السكر.

«انذال! – لقد وجدا وقتاً لشربها...»

الا انه ينظر اليهما بصمت.

– هكذا يا رفيق كوجوخ يستحيل علينا المرور في الطريق العام. ستقتلنا جورجيا جميعاً. لقد كنا الآن، يعنى، فى استطلاع... ذهبنا متطوعين.

قال كوجوخ دون ان يحيد عنهما نظره:

– ازفر. لا تأخذ شهيقا، بل ازفر علي. هل تدرى ان الاعدام عقوبة هذا الأمر؟

– احلف لك بالمسيح انها رائحة الغابة. كنا نسير في الغابة طيلة الوقت. فتعلقت بنا رائحتها.

– حبذا لو كانت هنا خانات!–اردف الآخر ذو عينين اوكرانيتين لعوبتين مزحتين – ليس في الغابة غير الاشجار.

– تحدث عن صلب الموضوع.

– هكذا يارفيق كنا نسير، انا واياه، وكنا نتحدث حديثا جديا: اما ان نموت جميعا هنا في الطريق العام، او ان نعود لنقع في ايدي القوزاق. ما العمل هنا؟ تلفتنا، فرأينا وراء الاشجار مشربا. زحفنا

الى هناك، فكان اربعة جورجيين يحتسون الخمر ويأكلون الشواء، هذا يعني ان الجورجيين سكارى. وكانت تنبعث منهم رائحة غير محتملة. كانوا يحملون مسدسات. فوثبنا من وراء الاشجار وقتلنا اثنين منهم: «قف ولا تتحرك مكانك! انكم محاصرون يا اولاد القحبة!.. ارفعوا اياديكم» لقد شده الجورجيون، فانهم لم يتوقعوا هذا. لقد قتلنا واحداً آخر، بينما شددنا وثاق هذا، وذعر صاحب المشرب حتى الموت. الحقيقة، نحن أكلنا الشواء المتبقى من الجورجيين، الذين كان عليهم ان يدفعوا ثمنه، اما الخمر فلم نذقه، حسب اوامركم، وخلاص.

– اللعنة عليه هذا العقار الشيطاني... لينقلب وجهي الى وراء ان كنت تشممته. فلتخرج احشائي كلها...

– هيا الى صلب الموضوع.

– اخذنا الجورجيين القتلى الى الغابة، انتزعنا منهم اسلحتهم. اما الرابع فجئنا به الى هنا، وصاحب المشرب ايضا، لكي لا يخبر عنا. ومن جديد التقينا خمسة رجال مع نساء و فتيات. انهم من اهالى هذه المنطقة، من ضواحي المدينة، روس من ذوينا، اما الجورحيون فيرغبون جدا بنسائنا الشقراوات. اذن، ترك هؤلاء كل متاعهم وتوجهوا نحونا، يقولون انه يمكن خلل الدروب الالتفاف حول المدينة يقولون العبور صعب، هناك، غابات، جروف، شعاب، الا انه يمكن اجتياز الطريق. ويقولون ان السير في الطريق المستقيم غير واقعي. انهم يعرفون الدروب جيدا كمعرفتهم لاصابعهم. لكن الصعاب لا تحصى، باختصار مميتة، ومع ذلك يمكن العبور.

– اين هم؟

– هنا.

يتقدم قائد كتيبة:

– ايها الرفيق كوجوخ، لقد كنا الآن قرب البحر، فمن المستحيل العبور من هناك. الشاطيء صخري، ينحدر جرفا شاقوليا مباشرا في الماء.

– هل هو عميق؟

– عند الصخر يصل الماء حتى الخصر، وربما حتى الرقبة، واحيانا الى الرأس.

— وماذا في الأمر — يقول أحد الجنود الذي كان يتسمع مهتما، وكان مرتديا ملابس متهرئة، حاملا بندقية في يده — وماذا في الأمر، حتى لوكان عمق المياه الى الرأس... فاذا كانت الاحجار قد سقطت من الجبال الى البحر، يمكن التقافز من فوق حجر الى آخر كالارانب.

تصل الى كوجوخ من كل الجهات اخبار، اوامر، شروحات، خطط، واحيانا مباغتة، ذكية ساطعة. تصبح الحالة العامة واضحة.

— يجمع كوجوخ اعضاء القيادة. فكاه مضغوطان وعيناه الواخزتان تحت جبينه المقطب لا تتركان أحدا دون ان تمسحانه بنظراتهما.

— هكذا ايها الرفاق. فصائل الخيالة الثلاثة تقوم بالتفاف حول المدينة. الالتفاق صعب: دروب، وغابات، وصخور، وشعاب، اضافة الى ان الالتفاف يكون في الليل. الا انه لا بد من القيام به.

«سنهلك... لن يرجع حصان واحد...» — كانت هذه الكلمات تختفي في العيون ولا تتجرأ الالسن البوح بها.

— لدينا خمسة ادلاء وهم روس، من سكان المنطقة، لقد الحق الجورجيون اضرارا بهم. وان عوائلهم موجودة لدينا وافصحنا للأدلاء بان عوائلهم رهينة لدينا بدلا عنهم. يتعين العبور من وراء المؤخرة والدخول الى المدينة...

صمت كوجوخ، ناظرا في الليل الزاحف على الشعاب. وقال باختصار:

— القضاء، على الجميع!

اعدل الخيالة باباخاتهم على رؤوسهم، ورفعوها الى قذالهم.

— ستنفذ اوامرك ايها الرفيق كوجوخ — وأخذوا يعتلون صهوات خيولهم برشاقة.

كوجوخ يقول:

— فوج المشاة... انزل ايها الرفيق خروموف فوجك من الجرف وتسلل به عبر الصخور الى الميناء. اهجموا مع الفجر دون اطلاق النار وسيطروا على السفن في المرسى.

وبعد ان سكت، قال من جديد:

— اقتلوا الجميع!

— «سيضع الجورجيون راميا واحدا في البحر وسيتم القضاء على افراد الفوج كل على حدة على الصخور...»

ولكنهم قالوا علنا بصوت واحد:

— سمعا وطاعة ايها الرفيق كوجوخ.

أحضروا فوجين للهجوم المباشر.

شرع الضوء الارجواني لقمم الجبال بالانطفاء واحدا اثر آخر: سادت زرقة كثيفة رتيبة على كل شيء. وزحف الليل في الشعاب.

— سأقودكم.

ويتصور الجميع في الصمت المكفهر: غابات كثيفة، ووراءها مرتقى حجري، وعلى المرتقى شاقول صخري وحيد كالموت الاعمى... مر شريط التصورات من امام اعينهم وانمحى... زحف الليل الى الشعاب. صعد كوجوخ على سطح صخرة. ورأى في الاسفل تمتد صفوف من الاسمال، واقدام عارية، تغرق بينها كالشوك كثرة من الحراب المتقاربة.

كان الجميع ينظر الى كوجوخ بلا انقطاع — وكان يكمن عند كوجوخ سر حل مسألة الحياة والموت: يتعين عليه ان يرشدهم الى مخرج، ذلك المخرج، كما رأى الجميع بوضوح من الحالة التي لا مخرج منها.

وقال كوجوخ مشجعا هذه الآلاف المؤلفة من العيون الساعية بنظرها اليه، و المرجوة منه، شاعرا بنفسه انه مالك لهذا السر الخفي للحياة والموت.

— يا جماعة! ليس لدينا خيار آخر: اما نموت هنا، او يعذبنا القوزاق جميعاً حتى آخر شخص. الصعاب التي تواجهنا لاتقهر: ليس لدينا اطلاقات و لا قذائف للمدفع، يتوجب علينا الهجوم بأيد عارية، بينما يوجه ١٦ مدفعا نحو صدورنا من هناك. واذا هب الجميع دفعة واحدة... — سكت هنيهة، وتحجر وجهه الحديدي. وصرخ بصوت غريب غير شبيه بصوته، فاقشعرت اجسام الجميع: — اذا ما ضرب الجميع دفعة واحدة فان الطريق الى ذوينا مفتوحة امامنا!

كل جندي، حتى آخرهم، كان يعرف جيدا ما قاله كوجوخ بدون ذلك، الا انه حين صرخ بصوت غريب ادهش الجميع بأقواله، وصرخ الجنود:

– على بكرة ابينا!!! اجتياز الطريق او الموت!

ضاعت آخر ملامح الصخور الضاربة الى البياض. ولم يعد يرى شيء: لا الجبل، لا الصخور، ولا الغابات. وغرقت اكفال آخر الخيول الزاهية في الظلام. ولم يعد الجنود الذين تناثر الحصى من تحت اقدامهم يظهرون للعيان، وكانوا يهبطون متشبثين باسمال بعضهم البعض في مجرى المياه نحو البحر واختفت الصفوف الاخيرة للفوجين في الغابة المكفهرة التى كانت يبدو وكأن قطعا صخريا تطبق عليها.

تسمر رتل العربات في صمت الليل الهائل: لا مواقد، لا احاديث، لا ضحكات، بينما ينطرح الاطفال صامتين بوجوه غائرة جوعا.

صمت. ظلام.

الفصل الرابع والعشرون

كان ضابط جورجي ذو شاربين خفيفين، يتجول فى منبسط الجبل، يتلفت احيانا هنا وهناك، مرتديا سترة شركسية شد عليها الحزام بقوة، وبكتافيات ذهبية، وبعيون لوزية سوداء تثير اعجاب النساء اللامحدود (وكان يدري بذلك جيدا). خنادق، درئيات، اعشاش الرشاشات.

على مبعدة عشرين ساجينا جرف شاقولي صعب المنال. وكان يقع تحته منحدر حجري ساقط، ثم غابة مظلمة لا تخترق. بينما وراء الغابة شعاب صخرية ينبع منها مجرى الطريق العام الابيض الخاوي. تتوجه المدافع المخبأة افواهها الى هناك. ثمة حشود الاعداء.

يمر الحراس بالقرب من الرشاشات، متمهلين، متأنقين، ببدلات جيدة.

لقد اطلق النار صباح اليوم على هؤلاء الخنازير الجوعى، عندما حاولوا الخروج من وراء الصخور الى الطريق العام – اياهم ان يتجرأوا مرة اخرى!

انه هو، العقيد ميخيلادزه (اصبح عقيدا وهو في مثل هذا العمر الشاب!) لقد اختار موقعا في هذا المضيق، والح عليه في هيئة الاركان. ان هذا الموقع لهو المفتاح الذي يقفل الطريق بمحاذاة الشاطيء.

نظر من جديد الى منبسط الجبل، الى الجرف الشاقولي، الى صخور الشاطيء المنحدرة عموديا على البحر – اجل، لقد اجتمعت كل العقبات دفعة واحدة كيما توقف مسير اي جيش.

لكن هذا قليل. عدم السماح لهم بالعبور قليل – يتعين ابادتهم. ولقد وضع خطة، وهي ارسال البواخر الى مؤخرة قواتهم، حيث يهبط الطريق العام نحو البحر، وقصفهم من البحر، وانزال القوات، وسد الطريق على أولئك العراة المتعفنين من الامام ومن الوراء، هكذا سينفقون مثل الفأر في المصيدة.

انه هو، الأمير ميخيلادزه صاحب ضيعة غير كبيرة لكنها رائعة في ضواحي كوتايسي، انه هو الذي سيقطع بضربة واحدة رأس الحية السامة، التي تزحف على الشاطيء.

الروس اعداء جورجيا، جورجيا العظيمة الرائعة. انهم اعداء ايضا مثل الارمن، الاتراك، الاذربيجانيين، التتر، الانجاريين. البلاشفة اعداء البشرية، اعداء الحضارة العالمية. بينما هو ميخيلادزه اشتراكي. اشتراكي حقيقي، ذو فهم عميق لآلية الاحداث التاريخية، وعدو لدود لجميع المغامرين، الذين يؤججون ادنى الغرائز في اوساط الجماهير تحت قناع الاشتراكية.

انه ليس هادرا للدماء، ويمقت سكب الدماء، لكن، عندما يتعلق الأمر بالحضارة العالمية، يتعلق الأمر بعظمة وخير شعبه، فانه لا يرحم، وهؤلاء سيبادون فرداً فرداً.

يسير حاملا المنظار المقرب، ينظر الى السفح المرعب شديد الانحدار، الى عتمة الغابات الكثيفة، الى شريط الطريق العام الابيض الراكض من تحت الصخور بالتواء والخالي من الناس، الى القمم المتوقدة حمرة، ويتسمع للصمت، الصمت الساكن، والمساء الهابط رويداً رويداً.

و هذه السترة الشركسية المخاطة من جوخ رائع الجودة الملائمة لقوامه الممشوق، وهذا الخنجر والمسدس الثمينان المطعمان بالذهب، وهذه البابانخا الناصعة البياض التي صنعها عثمان، اسطى القفقاس المشهور الوحيد، كل هذه المظاهر تشده الى القيام بمأثرة، بعمل خصوصي يجب ان يقوم به، هذه المظاهر تميزه عن الجميع، عن الجنود الذين يقفون امامه كالاصنام، عن

الضباط الذين ليس لديهم مثل خبراته ومعارفه ، وعندما يمشى بقامته المرفوعة يشعر انه يحمل فى نفسه ثقل وحدته.

- ايه!

يهرع المراسل، وهو جورجي شاب ذو وجه اصفرباش، وبنفس العينين السوداوين الرطبتين مثل عيني العقيد، يقف باستعداد ويرفع يده مؤديا التحية العسكرية.

- ماذا تأمرون؟

«اجلب لي هذه الفتاة... اليونانية...» الا انه لم ينطق بذلك، بل قال بنظرة صارمة:

- هل حان وقت العشاء؟

- نعم، السادة الضباط ينتظرون.

مر" العقيد بأبهة بجانب الجنود ضامرى الوجوه المثوثبين والواقفين باستعداد واعتدال: لم يكن ثمة من مؤونة. وكان الجنود يستلمون فقط حفنة من الذرة ويعانون الجوع. كانوا يؤدون التحية ويودعونه باعينهم بينما كان هو يلوح بقفازه الابيض بلا اهتمام. سار بالقرب من مواقد نار مسائية مدخنة قليلا دخانا ازرق بالقرب من زرائب خيول المدفعية، وبين بنادق المشاة الموضوعة على شكل اهرام، ودخل فى خيمة طويلة منيرة كانت تمتد فيها من طرف الى آخر، مائدة طويلة مليئة بالقناني والصحون والجفنات والكافيار والجبن والفاكهة. اقلعت جماعات الضباط الشباب ايضا المرتدين سترا شركسية جميلة عن الحديث بسرعة، وقام الجميع:

- تفضلوا، - قال العقيد وأخذ الجميع بالجلوس وراء المائدة.

وحين رقد في خيمته ، كانت رأسه تدوخ بطيب، وفكر مقدما رجله الى المراسل الذي نزع عنها الجزمة اللماعة:

«انني هباء لم ارسل في طلب اليونانية... بالمناسبة، من الافضل انني لم ارسل في طلبها...».

الفصل الخامس والعشرون

جوف الليل عميق واسع، لدرجة انه ابتلع الجبال والصخور، والغور الجبار الممتد أمام الجبل الذي تتخلل الغابات اعماقه. ولم يعد يرى الآن شيئا.

وكان حارس يتمشى على دريئة الخندق. ويبدو أسود مخمليا، كما كل شيء، في هذا السواد المخملي. يخطو عشر خطوات وئيدة، يستدير ببطء، ويرجع ادراجه على مهل. حين يسير في احد الاتجاهين يتراءى شبح الرشاش بغير وضوح، اما فى اتجاه آخر فيحس المرء ان الجرف الصخرى غارق في الظلام حتى نهايات حافاته. ويبعث هذا الجرف الشاقولى غير المرئي، و الذي يتعذر ان يتسلق عليه حرذون، في النفس مشاعر الهدوء و الثقة.

ومن جديد يخطو الحارس الخطوات العشر الوئيدة المتمهلة، يستدير ببطء، ويرجع ادراجه ...

في البيت بستان صغير، حقل ذرة صفراء غير كبير، وزوجته نينا، و في حضن الزوجة الرضيع سيرغو. حين خرج من البيت نظر سيرغو طويلا في عينيه الدعجاوين، ثم تراقص في حضن امه، مد يدين سمينتين وابتسم. ابتسم مخرجا الفقاعات من فم جميل بلا اسنان. عندما أخذه والده سال لعابه على وجهه. هذه الابتسامة من فم جميل بلا اسنان، وهذه الفقاعات لا تنمحي في الظلام من ذاكرة ابيه عشر خطوات وئيدة، رشاش ظاهر بغير وضوح. استدارة متمهلة. و ايضا طرف الجرف الشاقولي المبهم في الظلام و من جديد...

لم يجلب له البلاشفة أي سوء... مع هذا فانه سيطلق النار عليهم من هذا العلو. ولن يعبر حرذون في الطريق العام... البلشفيون اسقطوا عرش القيصر، و القيصر كان يمص دماء جورجيا – جيد جدا... يقال، انهم في روسيا، منحوا الارض كلها للفلاحين... تنفس عميقا انه مجند وسيطلق النار، فيما اذا اصدروا له الأوامر، على اولئك الذين هناك وراء الصخور.

تعوم ابتسامة الفم بلا اسنان والفقاعات اللعابية على سطح ذاكرته دون ان يثيرها شيء، ويشعر بالدفء فى صدره، يبتسم في داخله، بينما تكتسي وجهه هيئة من الجدية والصرامة.

يمتد الصمت نفسه الغارق في الظلام حتى نهايات الحافات. يتعين ان ينشق الفجر قريبا – وهذا الصمت يجثم بثقله... الرأس ثقيل على نحو لا يطاق، وها هو يطأطىء نحو الاسفل اكثر

فاكثر... جفل ورفع رأسه الى اعلى. وكانت الجبال، حتى وسط ظلام الليل، تتميز بحلكتها المتكسرة. في حين تتلألأ نجوم وحيدة في المنعطفات.

تناهت تغريدة طائر ليلي بعيدة وغير أليفة. لماذا لم يسمع مثل هذه الاغرودات في جورجيا؟

كل شيء معبأ بالخطر، ويأتي لملاقاته عائما على بحر من الظلام، ساكنا ومتمهلا. وليس من دواعى الاستغراب ان تأتي كل الأشياء لملاقاته ساكنة متمهلة لا تقهر.

– أ هذه انت يا نينا؟.. و اين سيرغو؟..

فتح عينيه، بينما يتأرجح رأسه على صدره، وقد أسند نفسه على متراس الخندق. عام امام عينيه، في اللحظات الاخيرة من غفواته المتقطعة، غور من ظلام.

هز رأسه، تجمد كل شيء. ارسل نظرة متشككة: الظلام الساكن نفسه، المتراس المرئي بغير وضوح نفسه، نهاية الجرف، الرشاش، الغور المبهم الوجود، لكنه غير مرئى. غرد طائر في مكان بعيد. ليس ثمة مثل هذه الطيور في جورجيا...

يرسل نظره بعيدا. الحلكة المتكسرة نفسها، وفي انكساراتها تتلألأ نجوم صغيرة نائسة تغير موضعها. و في الأمام محيط من ظلام أخرس، و هو يعلم ان في قعر هذا الظلام ثمة غابات كثيفة. يتثاءب ويفكر: «لا بد من التمشى ذهابا وايابا و الا...» – و لم يكمل فكرته، وفي نفس اللحظة عام من جديد ظلام ساكن من تحت الجرف، من الغور، ظلام لا نهاية له ولا يقاوم، وشرع قلبه يختنق باكتئاب.

سأل:

«وهل يمكن ان يعوم ظلام الليل؟»

اجابوه:

«يمكن»

الا ان الجواب لم يأت بالكلمات، بل بضحكة صدرت عن لثتين حسب.

أخذه الرعب من ان الفم كان لينا، خاليا من الاسنان. مد يده، بينما اسقطت نينا رأس الطفل، تدحرج الرأس الرمادى (تجمد

رعبا) الا انه توقف عند الحافة النهائية!.. تملك الفزع زوجته: آه... ليس بسبب سقوط رأس الطفل، أصدر هذه الآهة و انما بسبب فزع آخر: لاحت في الغسق الصباحي المشوب بالخطر على طرف الجرف رؤوس كثيرة، خيل اليه انها متدحرجة... كانت الرؤوس ترتفع اكثر فاكثر، تظهر لها اعناق، وتنبت لها اياد، ترتفع تحتها الاكتاف. ومزق صوت حديدي، مقعقع، متكسر، كأنه صدر من بين فكين مطبقين بقوة الذهول و الصمت:

– الى الامام!.. الى الهجوم!!

فجر الهدير غير المطاق كل شيء فيما حواليه. اطلق الجورجي النار، تدحرج، وهمدت انفاس الطفل المتراقص في حضن امه، والذي كان يمد يديه و يخرج فقاعات اللعاب من بين شفتيه المبتسمتين المنفرجتين على اللثة حسب. همدت انفاسه دفعة واحدة في خضم الألم الممزق الفظيع.

الفصل السادس والعشرون

انطلق العقيد من الخيمة و هب نحو الاسفل، الى حيث الميناء. كان الجنود يتطايرون في ضوء الفجر المنبلج في جميع الجهات متقافزين من فوق الاحجار، ومن فوق الساقطين. و تلاحق من الخلف عويل شديد وحشي لا مثيل له ابداً. انطلقت الخيول من مرابطها، وراحت ترمح مرعبة ساحبة وراءها بقايا الانشوطات... .

اندفع العقيد قافزاً من فوق الاحجار والشجيرات مثل صبي لعوب بسرعة متناهية لدرجة لم يلحق قلبه موازنة ضرباته. ولم يكن يرى غير الخور... السفن... الانقاذ...

و بالسرعة نفسها التي اطلق فيها ساقيه للريح، خطر في رأسه، بل وفي جسده كله، خاطر يقول:

«. . . اللهم . . . اللهم . . . اللهم احجموا عن قتلي ورأفوا بحالي. انني على استعداد ان افعل لهم ما يريدون . . . سأرعى لهم الماشية و الدجاج الرومي . . . أغسل الاواني . . . احرث

الارض... اجمع الازبال... من اجل الا يقتلوني... يا الهي! ما اغلى الحياة...»

الا ان وقع الاقدام الهادر، الذي يهز الارض، يتواصل على نحو مرعب قريبا من جميع الجهات. ويغرق الليل الذي كان يلفظ آخر انفاسه في صياحات و حشية غريبة و شتائم غليظة تطلقها أصوات مبحوحة، قادمة على نحو جنوني من الخلف.

وللتأكيد على رعب هذه الصياحات كان يسمع هنا تارة وهناك تارة: طراق!.. طراق!.. فيدرك انهم بالاخامص القوية يحطمون الجماجم كالبيض. ترتفع صيحات كأنها زعيق الارانب، وتتوقف فجأة. ويدرك انها صيحات المقتولين بالحراب.

ينطلق كازا على اسنانه بشدة، و تنفث انفاس حارة كالبخار من منخريه.

«...لو بقيت على قيد الحياة حسب... لو رأفوا بحالي فقط... ليس لي لا أم ولا وطن... لا إحترام ولا حب...! لو اتمكن من النجاة... سيكون لي فيما بعد كل هذا من جديد... اما الآن فلا اريد غير البقاء على قيد الحياة...»

خيل اليه انه استنفد قواه، الا انه وتر رقبته، شد رأسه، ضم قبضتي يديه المهتزتين، واندفع بحيث هبت الريح المعاكسة في وجهه، وأخذ الجنود الراكضون بجنون يبطئون، وحملت صيحاتهم المميتة العقيد الهارب على جناح السرعة.

طراق!.. طراق!..

ازرق الخور... البواخر... آه، ايها الملاذ!..

حين هرع صوب السلم توقف هنيهة: فقد كان شيء ما يجرى على البواخر، على السلم، على الرصيف، على المرطم، وكان يتصاعد من جميع الجهات: طراق... طراق!..

أصابه الذهول لأن هنا ايضا كان عويل متواصل وصوت ضربات اخامص البنادق. و كانت ترتفع وتخمد صيحات مميتة.

واستدار بلمح البصر و ولى الادبار من الخور باقصى سرعة، و لمعت في عينيه للمرة الاخيرة و لهنيهة واحدة زرقة البحر المترامية...

«الحياة!.. الحياة!..»

مرق كالطير بالقرب من بيوت بيض كانت تحدق بجفاء بنوافذها السوداء الخرساء، وهرع نحو طرف المدينة، هناك حيث يمتد الطريق العام ابيض هادئاً متجها صوب جورجيا. ليس في جورجيا البلد العظيم، ليس في جورجيا موطن الثقافة، ليس في جورجيا حيث منح رتبة عقيد، بل في مسقط رأسه العزيز الوحيد، حيث رائحة الاشجار المزهرة في الربيع، حيث يكلل الثلج قمم الجبال وراء الغابات، حيث القيظ المفرقع، حيث تفليس، حيث نهر كورا المزبد، حيث كان يلعب في طفولته...

«... الحياة... الحياة... الحياة!..»

أخذ عدد البيوت التي كانت تفصل بينها مزارع الكروم يقل، واصبح العويل المخيف و الاطلاقات المنفردة بعيدة، في الخلف، في الاسفل عند البحر.

«انها النجاة!!»

و في اللحظة نفسها امتلأت الشوارع كلها بوقع ثقيل للغاية لحوافر خيول؛ وانطلق من وراء الزاوية فرسان تعدو خيولهم خببا، يصاحبهم عويل مميت مقرف دائما... و تلألأت السيوف الرفيعة.

ارتد الامير السابق ميخيلادزه، الذي كان في زمن ما عقيدا جورجيا، بلمح البصر، الى اعقابه...

«النجاة!»

وهرع على طول الشارع الى مركز المدينة كاتما انفاسه. ونطح خوخة مرة او مرتين - فكانت الخوخان والبوابات مقفولة بترابيس حديدية وكأن سكنة البيوت فارقوا الحياة، ولم يعد يهمهم ابداً امر ما يحدث في الشارع.

ادرك ميخيلادزه عندئذ ان النجاة تكمن عند الفتاة اليونانية حسب. و انها تنتظره بعينيها السوداوين اللامعتين المترعتين بالشفقة. انها الانسان الوحيد في الدنيا... و انه سيتزوجها ويقدم لها ضيعته، امواله، و سيقبل طرف ثوبها...

انفجرت رأسه وتقطعت ارباً ارباً.

في الحقيقة انها لم تتقطع اربا اربا، بل انشطرت بضربة مواربة لسيف متلألئ.

الفصل السابع والعشرون

القيظ في أشده. يجثم ضباب غير مرئى، ميت وثقيل فوق المدينة. الشوارع، الساحات، الرصيف، الاحواش، الطريق العام، كلها مسدودة. جثث الناس ملقاة اكواما بلا حركة بأوضاع مختلفة. بعضهم لوى رأسه على نحو مخيف، وبعض آخر بلا رؤوس، وسقطت امخاخها الرجراجة على الارض. سالت الدماء المتخثرة، كما فى مسلخ، قانية على امتداد البيوت، و الاسيجة الحجرية، وساحت من تحت البوابات.

انهم بوجوههم الناعمة وشواربهم السود الرفيعة الفتية، في كل مكان: على البواخر في غرفها وعنابرها وعلى اسطحها وفي مستوقدات الآلات البخارية واقسام المكائن.

تتأرجح جثثهم عبر حاجز الرصيف ساكنة، وحين ينظر المرء الى المياه الرقراقة الشفافة يراها غامرة بهدوء على الاحجار الزلقة الضاربة الى الخضرة تسبح فوقها اسراب رمادية من السمك.

يتناهى من مركز المدينة حسب صوت اطلاقات متواصلة، و تكتكات الرشاش المستمرة السريعة: لقد استحصنت حول الكاتدرائية سرية جورجية، وراح افرادها يموتون ببطولة. لكن هؤلاء ايضا سكتوا.

الموتى راقدون، اما الاحياء فقد ملأوا المدينة، الشوارع، الباحات، البيوت، الساحل. و على مقربة من المدينة، في الطريق العام. على السفوح و في الشعاب عربات وأناس وخيول. ململات، صيحات، ضحكات، ضوضاء.

يمر كوجوخ في هذه الامكنة الميتة - الحية.

- النصر، يا رفاق، النصر!!

وتهدر الاصوات بفرح شديد، وكأن ليس ثمة من اموات، ولا دم:

- هوراااا!!

ويسمع صداها بعيدا في الجبال الزرقاء ثم يتلاشى بعيدا وراء البواخر، وراء الخور، وراء سد الامواج، في الزرقة الطرية.

ويجري عمل سريع مهموم في الاسواق، فى الدكاكين، وفي المحال: يكسرون الصناديق، يمزقون لفائف الاجواخ، يختطفون من الرفوف الشراشف، الألحفة، اربطة العنق، النظارات، والتنورات.

وكانت غالبية الناس الذين سلبوا الأسواق والدكاكين من البحارة، فقد امتلأ بهم المكان، وهم رجال اقوياء ذوو قامات دحداحة يرتدون قمصان البحارة البيض و بناطيل فضفاضة ويعتمرون قبعات مدورة تتدلى منها شرائط. وتسمع اصوات جهورية زاعقة:

– اجدف!

– ارس!

– اجرف من هذا الرف!

فعلوا ذلك بسرعة، وشطارة، وعلى نحو منظم. احدهم اعتمر قبعة نسائية فاخرة، وعصب سحنته بخمار، و رفع آخر مظلة حريرية مزركشة بالدنتلا فوق رأسه.

وتحرك الجنود ذوو الارجل العارية السوداء المتشققة والمرتدين خرق باليةٍ ممزقة؛ فاستولوا على اقمشة الشيت والكتان والجوخ من اجل الاطفال و النساء.

اخرج احدهم قميصا منشي من صندوق كارتوني، ونشره من كميه وراح يضحك ملء صدره:

– انظروا يا اولاد: قميص!.. اللعنة على والدتك...

ادخل رأسه في ياقة القميص كما في نير:

– لماذا هي خشنة هكذا، كالخشب!

وأخذ ينحني ويعدل من وضع جسمه، وهو ينظر الى صدره مثل خروف:

– و الله، خشنة لا تلتوي، كالنابض!

– يا لك من احمق! هذا بسبب النشا.

– ما هو النشا؟

– انه يصنع من البطاطا ويطلى به السادة صدور قمصانهم تأنقا.

سحب رجل طويل القامة، خشن العظام، يتراءى جسمه من

تحت الاسمال، سحب سترة الـ«فراك» امعن النظر فيها طويلا ومن جميع الجهات، خلع الاسمال بحزم و ادخل، وهو عريان، يديه الطويلتين مثل يدي انسان الغاب في ردنيها، الا ان الردنين كانا قصيران يصلان المرفقين حسب. ارتدى السترة على جسده العاري مباشرة. زرر الازرار عند البطن اما فى الاسفل فكانت ثمة قوارة، وقال متهكما:

– لا بد من بنطلون.

وراح يبحث عن بنطلون. الا انه لم يبق ثمة بناطيل. فتوجه الى قسم الملابس الداخلية، جر صندوقا كارتونيا كان يحوي شيئا غريبا. فضه، قاسه، وهمهم من جديد:

– اعجوبة! لا يشبه بنطلونا، بل شيء رقيق جدا. ما هذا يا فيودور؟

الا ان فيودور كان مشغولا بسحب الشيت لزوجته واطفاله، فانهم عراة.

قاس الشيء الغريب من جديد، ودس فيه ساقيه الطويلتين العرقتين المسودتين من الشمس و الاوساخ. واتضح ان التخاريم كانت تتراقص فوق ركبتيه في الحاجة التي ارتداها.

نظر اليه فيودور وضحك.

– انظروا يا شباب! انظروا الى اوباناس!..

اهتز المحل من القهقهات:

– هذا بنطلون نسائي!

بينما قال اوباناس مكفهرا:

– ماذا في الأمر، أليست المرأة انسانا؟

– كيف ستتمكن من المشي هكذا؟ فهناك فتحة وكل شيء ظاهر للعيان، والقماش رقيق جدا.

– يا له من كيس كبير!..

فحص اوباناس جسمه بعينيه متحسرا:

– صحيح. الاغبياء فقط يخيطون البناطل من مثل هذا القماش الرقيق. انهم يهدرون القماش لا اكثر.

اخرج اوباناس من الصندوق الكارتوني كل محتوياته، وأخذ يجربها واحدة بعد اخرى صامتا. لبس ست حاجات. ازبدت التخاريم فوق الركبتين.

اصاخ البحارة السمع هنيهة واندفعوا صوب الابواب والنوافذ على نحو جنوني. وكان يسمع من وراء النوافذ صيحات وسباب مقذع، ووقع اقدام الخيل، وقرقعة الكرابيج على الاجساد. هرع الجنود صوب النوافذ. كان البحارة يركضون في الساحة بكل ما اوتي لهم من قوة محاولين انقاذ ما تم الاستيلاء عليه. وراح الخيالة هامزين خيولهم يجلدونهم بلا رحمة، شاقين ملابسهم بحيث لاحت على الوجوه خطوط زرقاء منتفخة، وانبجس الدم.

وتفرق البحارة شذر مذر، متلفتين بوحشية، بعد ان رموا حقائبهم المليئة.

الفصل الثامن والعشرون

قرع الطبل بضربات سريعة منذرا. وعزف البوق.

بعد عشرين دقيقة وقف الجنود بوجوه صارمة صفوفا في الساحة. وان هذه الصرامة لم تكن تتوافق بشكل غريب مع الملابس. اذ كان البعض في اسماله السابقة، المشبعة عرقا، بينما كان البعض الآخر يرتدي قمصانا منشاة مفكوكة الازرار، محزومة بحبال، وعلى صدورها كشات، وبعض ثالث اثوابا نسائية ليلية او صداري، وكانت الايدي السوداء والاعناق تخرج منها على نحو غريب. اما جندى الجناح الايمن للسرية الثالثة الطويل، خشن العظام، فكان يقف مرتديا سترة الـ «فراك» السوداء على جسده العارى يصل ردناها حتى المرفقين؛ وكانت تلوح التخاريم بيضاء اعلى ركبتيه العاريتين.

جاء كوجوخ، كازاً على اسنانه بقوة، اما عيناه فقد كانتا رماديتين شديدة اللمعان. يتبعه اعضاء هيئة القيادة معتمرين باباخات الضباط الجورجية، و سترات شركسية حمراء قانية، تتدلى منها خناجر فضية ذات مقابض سوداء.

وقف كوجوخ مرسلا نظرات حادة بعينيه الصغيرتين اللامعتين كالفولاذ على امتداد صفوف الجنود:

— ايها الرفاق!

وكان صوته يشبه دائما صوت حديد صدىء متكسر، مثل

ذلك الصوت الذي صاح في الليل: «الى الامام!.. الى الهجوم!..»

– ايها الرفاق! نحن جيش ثوري. نقاتل من اجل اطفالنا ونسائنا، ومن اجل امهاتنا وآبائنا الطاعنين في السن، من أجل الثورة، من اجل ارضنا. فمن منح لنا هذه الارض؟

سكت منتظرا الجواب، وهو يدري انه لن يحصل عليه طالما الجنود يقفون في الصف.

– من منح لنا الارض؟ السلطة السوفييتية. وماذا فعلتم انتم؟ انتم اصبحتم قطاع طرق وذهبتم للنهب و السلب.

ران صمت معبأ بتوتر يكاد ينفجر. بينما هدر الصوت الحديدي متكسراً.

– انا قائد الرتل. سأعاقب كل من أخذ حتى ولو خيطا بخمس و عشرين جلدة.

نظر الجميع اليه بلا حراك، ودون ان يرف لهم جفن: لقد كان مسربلا بالأسمال؛ بنطاله ممزق، وقبعته القش المتسخة متهدلة الأطراف.

– كل من نهب ولو شيئا ليتقدم ثلاث خطوات.

مرت لحظة صمت ثقيلة، لم يتحرك أحد.

وفجأة اهتزت الارض تحت الوقع الخافت للاقدام المتخطية دفعة واحدة: واحد، اثنان، ثلاثة!.. ولم يبق الا عدداً قليلا جدا من المرتدين اسمالهم البالية واقفين في اماكنهم. اما في الصفوف الجديدة فكان يقف عدد كبير من الجنود المكتسين على هواهم.

– كل ما تم الاستيلاء عليه فى المدينة يجمع سوية ويعطى لأطفالكم ونسائكم. ضعوا الحاجات المنهوبة على الارض... جميع ما تم نهبه!

تحرك الصف الأمامى كله، وراح افراده يضعون امامهم قطعا من اقمشة الشيت و الكتان و الجوخ، بينما شرع آخرون بنزع قمصان منشاة، بلوزات نسائية، صدارى، و-وضعوها اكواما على الارض ووقفوا عراة. ونزع جندى الجناح الايمن سترة ال«فراك» و البناطيل النسائية ووقف معهم ايضا عاريا خشن العظام.

جاءت عربة، اخرجوا منها سياطا.

توجه كوجوخ صوب الواقف في الجناح:

– تمددا!

انحنى الجندى ووقف على اربع ثم تمدد على بطنه على نحو اخرق داسا وجهه في البناطيل النسائية، فاحرقت الشمس مؤخرته العارية.

صرخ كوجوخ بصوته الصدىء.

– تمددوا جميعكم!

تمدد الجميع معرضين مؤخراتهم و ظهورهم للشمس الحارقة.

ارسل كوجوخ نظرة. كان وجهه متحجرا. ألم ينتخبه هؤلاء الناس قائدا هادرين باصواتهم؟ ألم يصرخوا هم بوجهه «لقد بعتنا... لقاء الخمر»؟ أليسوا هم الذين تلاعبوا به كأنه خشبة؟ أليسوا هم الذين ارادوا تمزيقه بالحراب؟

والآن يتمددون امامه عراة طائعين.

ورفعت موجة العظمة والقوة، كالتى اجتاحته يوم كان يسعى طامحاً الى رتبة ضابط، رأسها في قلبه. الا ان هذه الموجة كانت غير تلك، وهذا الطموح غير ذاك. انه ينقذ ويخلص هؤلاء الذين يتمددون الآن امامه طائعين منتظرين السياط. يتمددون بطاعة، غير انه اذا ما تجرأ وقال لهم: «يا شباب، ارجعوا اعقابكم، الى القوزاق، الى الضباط» لمزقوه بحرابهم.

وصدح صوت كوجوخ الصدىء فوق المتمددين من جديد:

– البسوا!

نهض الجميع يلبسون القمصان المنشاة والبلوزات. بينما ارتدى جندي الجناح الايمن سترة ال«فراك» وستة بنطلونات نسائية من جديد.

اشار كوجوخ بيده، فأخذ جنديان منورا الوجهين كومة السياط التي لم يستعملها و اعادوها الى العربة. بعد ذلك سارت العربة على امتداد الصفوف، فكان الجنود يلقون اليها قطع اقمشة الشيت و الكتان والجوخ.

الفصل التاسع والعشرون

تتراقص ألسنة المواقد حمراء فى محيط مخملي اسود، منيرة الوجوه المسطحة والقامات، وكأنها مصنوعة من الورق المقوى، وزوايا العربات وخطوم الخيول. و افعم الليل كله بالصخب و الاصوات والدهشات والضحكات؛ وراحت الاغاني تنبعث من قريب ومن بعيد، ثم تنقطع، فيصدح صوت البلالايكا، وتعزف الهارمو نيكا. مواقد، مواقد...

والليل غارق ايضا بأشياء لا يرغب المرء التفكير فيها.

وينثال فوق المدينة ضوء كهربائي مشع ضارب الى الزرقة.

وترسل نار الموقد المفرقع لمعانا احمر الى وجه شيخ. وجه معروف. ايه ، عافاك الله يا عجوز! يا غوربينا! يتمدد الجد في طرف صامتا على معطف من فرو الضأن. يجلس الجنود حول الموقد بوجوه حمراء مشعة، – انهم من نفس الستانيتسا. القدور معلقة، وليس فيها تقريبا غير الماء.

تقول غوربينا:

– يا الهي، يا رب السموات والارض، ما هذا؟ لقد سرنا وسرنا وثم سرنا وليس لدينا شيء نأكله. اي قيادة هذه، لا تستطيع تأمين لقمة الخبز لنا؟ اي قيادة هذه... آنكا غير موجودة. الجد صامت.

سلسلة من المواقد تمتد غير مستقيمة على امتداد الطريق العام.

يرقد جندي على ظهره وراء الموقد (لا يرى)، انه يضع يديه تحت رأسه ويشخص في عتمة السماء ليس بامكانه رؤية النجوم. انه اما يود تذكر شيء او يشعر بالضيق يرقد مثنيا يديه يفكر بأشياء خاصة به، ويعوم صوته، مثل افكاره، شابا لينا مطرقا:

خذ زوجتك يا عزيزي...

يبقبق الماء وحده في القدر.

– علام هم هكذا... – قالت غوربينا – لقد جاؤا بنا الى

هذا المكان لننفق جوعا. تقرقر بطوننا من شرب الماء وحده، و لو كان مغليا تماما.

– انظروا!.. – يقول جندى مادا صوب الموقد رجله المستضاءة بالوهج الأحمر والمرتدية سروالا ضيقا جديدا وجزمة انكليزية جديدة.

كانت نغمات الهارمونيكا تتماوج عند الموقد المجاور. وكانت سلسلة النيران تمتد متقطعة.

– و آنكا ليس لها من اثر... اللعوب!.. ماذا تفعل بها؟ لو جرجرتها، يا جد، من شعرها. علام تسكت كالحجر!..

...اعطني غليوني يا عزيزي...

تابع الجندى اغنية ثم انقلب على بطنه واسند حنكه على كوعه وراح يرسل النظرات الى لهب النار بوجه مكتس وهج النار.

وعزفت الهارمونيكا لحناً مبتكرا وتناهت ضحكات واحاديث واغان من المواقد القريبة والبعيدة في الظلام المتململ على ضوء النيران.

– وكان الجميع بشرا، وكان لكل واحد منهم والدة...

قال بصوت فتي دون ان يخاطب أحدا. وران الصمت فجأة موقفا نغمات الهارمونيكا والاحاديث والضحكات واحس الجميع رائحة ثقيلة لجثث متعفنة، قادمة من الجبل، حيث كانت ترقد اعداد غفيرة منها.

نهض جندي معتبر، ليحدق في المتكلم. بصق في النار، فهسهست الاخيرة. وكان يتعين ان يمتد هذا الصمت، أغلب الظن، فترة طويلة، في هذا الظلام المطبق، ولكن انطلقت بغتة صيحات و شتائم واحاديث.

– ما هذا؟

– ما الامر؟

وتلفتت الرؤوس كلها في نفس الاتجاه المظلم الذي صرح منه الصوت:

– اذهب، اذهب يا وغد!..

ودخل حشد من الجنود الحلقة المستنيرة وهو في شديد اضطراب. ووزع لهيب النار وهجه على نحو غريب ومتقطع تارة على بعض ملامح وجه احمر، وتارة على يد مرفوعة، واخرى على حربة. و التمعت كتافيات ذهبية على كتفي سترة شركسية مشدودة من وسطها بحزام لشاب جورجي لم يزل غلاما بعد، وسط الحشد، باعثة على الدهشة.

تلفت فيما حواليه مذعورا بعينين واسعتين جميلتين كعيني فتاة واهدابه الطويلة التي كانت ترتعش عليها قطرات من دم مثل دموع حمراء. بدا الجورجي كأنه يود ان ينادي: «ماما...» لكنه لم يقل شيئاً، انما اكتفى بالالتفات فيما حواليه.

رفع جندي صوته دون ان يتمكن من السيطرة على اضطرابه:

– كان مختفيا بين الشجيرات. واليكم ما حدث: ذهبت الى الشجيرات لقضاء حاجتي بينما كان اصحابي يصيحون بي: «ابتعد، ذرية الكلاب... و اذ اتخذت وضعي المطلوب بين هذه الشجيرات رأيت شيئا أسود... ما هذا؟ حسبته حجرا، فأمسكته بيدي، لكنه اتضح انه كان هذا الغلام. فقبضنا عليه.

جاء جندي قصير القامة ركضا، مصوبا حربة بندقيته الى الامام، وهو يقول:

– اطعنه، ابن الفاعلة!..

تعالت اصوات فيما حوله:

– مهلك... مهلك!.. يتعين اخبار القائد بالأمر.

قال الجورجي بصوت متضرع.

– انا مجند... انا مجند، لم اتمكن... ساقوني... عندي والدة...

وارتعشت على اهدابه دموع حمراء جديدة سائلة من رأسه المجروح. كان الجنود يقفون واضعين اكفهم على ماسورات بنادقهم ويرسلون نظرات عابسة.

وقال الجندي الراقد على بطنه في الجهة الاخرى من الموقد، وهو يشخص اليه بلا انقطاع مستنيرا بوهج النار:

– ما يزال صغيرا... اعتقد انه لم يبلغ السادسة عشرة..

وانطلقت اصوات دفعة واحدة:

– ومن انت؟ أ أنت الحاكم؟ نحن نقاتل الكاديت، فلم يحشر الجورجيون انوفهم هنا؟ هل طلب احد منهم ذلك؟ اننا نقاتل القوزاق قتال موت أو حياة، فلا شأن لتدخل جهة ثالثة. ان من يدس انفه بيننا نقطع رأسه و انفه معا.

ودوت اصوات حانقة متهيجة من جميع الجهات. وجاء بعض الناس من عند مواقد اخرى.

– من عساه يكون؟

– تأملوا هذا الرضيع الراقد هناك، الذي لم يفطم بعد.

– يا له من ابن قحبة...

واطلق الجندى شتائم مقذعة، وأخذ يدفع القدر من على النار، اقترب منهم احد القادة. التقى نظرة خاطفة على الغلام الجورجي واستدار وولى الادبار وقال بصوت خفيض باختصار، بحيث لم يسمعه الجورجي:

– اعدام!

وقال جنديان. بلهجة بالغة الخشونة:

– هيا بنا.

واتخذا وضع الاستعداد ببندقيتيهما دون ان ينظرا الى الجورجي.

– الى اين تأخذاني؟

ذهب الثلاثة معا مبتعدين. وتناهت اصوات بالغة الخشونة، كسابق عهدها، من الظلام.

– الى هيئة الاركان... للاستجواب... ستبيت هناك...

بعد دقيقة لعلعت رصاصة، وتردد صداها في الجبال فترة طويلة قبل ان يرين الصمت... وظل الليل غارقا فى خضم اصداء غير مسموعة. عاد الجنديان وجلسا ساكتين جنب النار دون ان يتجرآ رفع نظرهما الى أحد... وظل الليل غارقا في رجع الطلقة الاخيرة المتواصل.

وانشأ الجميع يتكلم بأصوات اكثر ارتفاعا وحماسا من المألوف كأنهم يريدون بذلك القضاء على بقايا صدى الطلقة الاخيرة. فاستأنفت الهارمونيكا عزفها، وشرعت البلالايكا تصدر انغاما رفيعة.

– بعد ان شققنا طريقنا في الغابات واقتربنا من الصخر، ادركنا اننا على وشك الهلاك: لا نقدر على اقتحامهم ولا على التراجع. وما ان سيطلع الفجر الا ويطلقون النار على جميعنا.

ضحك أحدهم:

– لا الى امام ولا الى وراء.

– وخطر لنا: قد يتظاهر الملعونون بأنهم نيام، ويحصدوننا بالنار فجأة. ولكن اذا وضعنا عشرة جنود هناك، على حافة الهاوية، فانهم يبيدون فوجين شرة ابادة. وها نحن نتسلق، نعتمد على اكتاف بعضنا البعض، وحتى على رؤوسنا...

– واين كان القائد؟

– لقد تسلق معنا ايضا. وما ان وصلنا الى الاعلى، ولم يعد امامنا الا ساجنين، واجهنا انحداراً شاقولياً مثل جدار املس. وغدا التسلق محالا في جميع الجهات. توقفنا متربصين. خطف القائد حربة من احد الجنود وطعنها في شق صخرة و تسلق معتمدا عليها. احتذى الجميع حذوه، فأخذوا يطعنون حرابهم في شقوق الصخور، وهكذا بلغنا الى اعلى القمة.

– اما نحن فقد غرقت فصيلة كاملة لنا في البحر. كنا نتقافز من حجر الى حجر في الظلام كالارانب. وما ان كان جنودنا يخطأوا الحجارة الا ويقعون واحدا تلو آخر في البحر و يغرقون.

ومهما كانت الاحاديث مفعمة بالحيوية، ومهما كان لهيب النيران متراقصا بفرح، فان الظلام كان معبأ بالتوتر، وبكل ما كان يريد الناس نسيانه ، وكانت رائحة الجثث المتعفنة تزكم الانوف كالسابق.

قالت غوربينا:

– ما هذا؟

وصوب الجميع انظارهم الى حيث اشارت غوربينا. كانت تلوح في الظلام حيث الجبل مشاعل ينبعث منها دخان، ثم تختفى، ثم تتحرك وتنحني.

وانطلق صوت قوي مألوف في الظلام:

– هذه فصائلنا، وفرق من السكان المحليين، انهم يجمعون الجثث. يجمعونها طوال اليوم.

لاذ الجميع بالصمت.

الفصل الثلاثون

الشمس، و البحر الساطع، وأشباح الجبال البعيدة ذات اللون المدخن الضارب الى الزرقة من جديد. ويهبط كل هذا على مهل، بينما يصعد الطريق العام اعلى فأعلى مثل انشوطة.

تلوح في الاسفل بلون ضارب الى البياض مدينة بعيدة وصغيرة تختفي تدريجيا. خور ازرق يحده سد امواج بخطوطه المستقيمة الرفيعة كأنها خطت بقلم الرصاص. تلوح البواخر الجورجية المتروكة مثل اشرطة سوداء. ياللاسف، ان الجنود و النازحين لم يتمكنوا من أخذ تلك السفن معهم.

الا انهم، بدون تلك السفن، أخذوا الكثير. وها هم يحملون معهم ستة آلاف قذيفة وثلاثمئة الف طلقة. وتنقل الخيول الجورجية الاصيلة شادة الاعنة الدهنية السوداء ستة عشر مدفعا جورجيا. وتضم العربات الجورجية ايضا الكثير من مختلف انواع الامتعة العسكرية: اجهزة اتصال، خيما، اسلاكا شائكة، أدوية، وتسير قافلة من العربات الطبية. كل شيء متوفر، عدا شيئين: الخبز والعلف.

تسير الخيول مسرعة. تهز رؤوسها جوعاً. يشد الجنود الاحزمة على بطونهم بقوة، الا ان روح المرح لا يفارقهم. لكل واحد منهم مائتين او ثلاثمئة اطلاقة في حزامه، يتخطون بحيوية في سحابات الغبار البيضاء الساخنة ترافقهم اسراب من الذباب المستأنس لمسيرهم وتهدر اصواتهم متآلفة في لمعان الشمس.

تصر العربات بمختلف انواعها صريرا متواصلا، وتتأرجح رؤوس الاطفال الضامرة بين المخدات الحمراء.

ويسير المشاة. واحدا تلو آخر بلا انقطاع في الدروب المختصرة الموصلة بين انشوطات الطريق وهم يعتمرون بالسدارات وبقبعات القش واللباد المتهدلة الاطراف المهترئة نفسها، ويحملون العصي بأيديهم، اما النساء فيسرن حافيات ويرتدين تنورات ممزقة. لكن، ليس ثمة من احد يسوق الماشية من ابقار وخنازير ودجاج، وحتى ان الكلاب توارت في مكان ما من الجوع الذي فتك بها.



اخذت الافعى الطويلة جدا تزحف من جديد، محركة حلقاتها التي لا تعد بمحاذات الهاويات والجروف و الشعاب، من جديد الى السهوب، حيث الخبز و العلف، حيث جماعتهم.

لنطرح عنا الويلات والاحزان
فلنسكر ونفرح...
شجاعة يا ثوار! شجاعة يا ثوار...

جمعوا اسطوانات جديدة في المدينة.
ترفع الجبال هاماتها العالية نحو السماء الزرقاء.

في الاسفل، غرقت المدينة في الزرقة. وتوارى الساحل في الضباب. واصبح البحر جدارا ازرق، وراحت ذؤابات الاشجار الواقفة على طول الطريق العام تحجبه رويدا رويدا. القيظ، الغبار، الذباب، وعلى امتداد الطريق العام جلاميد وغابات، غابات موحشة واوكار الضواري.

في السماء تناهى من العربات المحدثة صرير متواصل:

— ماما... طعام... اعطيني طعاما... اعطيني طعاماً...

كانت الامهات الضامرات ذات الوجوه المسورة الشبيهة بمناقير الطيور ينظرن مشرئبات الاعناق وبعيون دامعة الى انشوطات الطريق المتسلقة اعلى فأعلى. وتمر اقدامهن العارية مسرعة بالقرب من العربات — لم يكن لديهن ما يجبن به الاطفال.

كانوا يصعدون اعلى فأعلى، الغابات تغدو نادرة، واخيرا اضحت في الاسفل. واجهتهم صخور وشعاب وتصدعات وانهيارات حجرية كبيرة جرداء. وكان كل صوت، كل وقع حافر، كل صرير عجلة ينعكس عن كل شيء. ويزداد بشكل غريب مغطيا على الاصوات البشرية. وكان يتحتم على السائرين دائما التنحى جانبا عن الخيول النافقة.

وفجأة هبطت درجة الحرارة دفعة واحدة، وهبت نسمات باردة من القمم، واصبح كل شيء رماديا. أسدل الليل ستائره بلا

تأخر. وانبجست السيول من السماء المكفهرة. لم يكن ذلك مطراً، بل كان اعصاراً هادراً، عارما، غارقا في دوامة الظلام. وكانت المياه تنهمر من اعلى واسفل ومن الجوانب. فسالت على اسمالهم وشعورهم الملتصقة على رؤوسهم. اضاعوا اتجاه سيرهم، و فقدوا الاتصالات فيما بينهم، وسار الناس والعربات والخيول كل على حدة، و كأن مساحة هادرة كانت تفصل فيما بينهم، وتجعلهم لا يرون ولا يعرفون بعضهم البعض وما يحيط بهم.

جرفت المياه احدهم... صرخ آخر... وهل يسمع هنا صوت انسان؟.. بقبق الماء، او ربما كان ذلك هدير ريح أو دوي السماء السوداء الهادرة، أو هدير انهيار الجبال... وربما جرفت المياه الرتل كله بعرباته وخيوله...

– النجدة!..

– انقذوني... جاء يوم القيامة!

تصوروا انهم يصرخون، غير انهم كانوا يحركون شفاههم المزرقة دون ان يطلقوا كلمات مفهومة.

كانت الخيول الساقطة على الارض، والتي كان يجرفها التيار، تسحب وراءها عربة تضم اطفالا نحو الغور، لكن الناس ساروا فترة طويلة بالقرب من المكان الخالي، متصورين انهم يسيرون وراء العربة.

و زمجر الاطفال بين المخدات و الملابس المبتلة كلياً.

– ما.. ما! ما.. ما! با.. با!

وخيل اليهم انهم يصرخون بأسى، بينما كان الهدير عائدا للمياه المتدفقة، وتدحرجت جلاميد غير مرئية من صخور غير مرئية، وكانت الريح تعوى عويلا شديداً يشبه اصوات مخلوقات ما.

سحب شخص ما مسيطر على هذا البيت المجنون دفعة واحدة وبسرعة ستاراً جباراً وسرعان ما بدأ كل ما كان ملتحفا بظلام الليل اللامحدود يخفق خفقانا ازرق. وخفقت منعطفات الجبال البعيدة والحافات المسننة للصخور المطلة، واطراف الغور، وآذان الخيول بلون ازرق ساطعا، والمفزع ان كل شيء كان ساكنا، ميتا في

خفقان الضوء الجنوني هذا: شرائط مائية منحنية ساكنة في الهواء، سيول مزبدة ساكنة، خيول ساكنة رافعة قوائمها للخطو، اناس سائرون في انصاف خطوات، افواه قاتمة مفتوحة على نصف كلمة وايادي اطفال مزرقة شاحبة بين الوسادات المبتلة. كل شيء ساكن في الخفقان المرتجف الصامت.

استمر هذا الخفقان للزرقة الميتة طوال الليل. وعندما اغلقت الستارة بلمح البصر على حين فجأة، وتبين ان هذا الخفقان لم يدم الا لحظات.

ابتلع الليل بضخامته كل شيء، وفي الوقت نفسه انشق الجبل وارتفع من باطنه دوى غطى عرس الجن الاسود هذا. كان الدوي هادرا، بحيث لم تسعه ضخامة الليل، فشظى اجزاء كروية وتدحرج في جميع الجهات مفرقعا ومتعاظما ومالئا الشعاب والغابات والاغوار غير المرئية. اصيب الناس بالصمم ورقد الاطفال كالموتى.

توقف رتل العربات، والجيوش، والمدافع، وصناديق العتاد والنازحون بين السيول المنهمرة والبروق الخاطفة والهزيم المتواصل – فقد نفدت القوى. ولم يبق في ايديهم الا ان يسلموا أمرهم للسيول الهائلة، والرياح الشديدة، وهدير الرعد وخفقان ألق البروق الميت. ارتفعت المياه فوق ركب الخيول، ولم يكن لتلك الليلة الليلاء من نهاية او حدود.

وفي الصباح سطعت الشمس من جديد، ورف هواء شفاف عليل، ولاحت الجبال شاهقة زرقاء، غير ان الناس كانوا ملطخين بالسواد، مضمرين، غائري العيون، جامعين ما تبقى لديهم من قوة مساعدين الخيول على الجر، اما الخيول فكانت رؤوسها هزيلة، وبرزت اضلاعها بحيث يمكن عدها، وغسل المطر شعرها جيدا.

يخبر احدهم كوجوخ:

– لقد سقطت، ايها الرفيق كوجوخ، ثلاث عربات مع راكبيها في الهاوية. احدى العربات كسرها جلمود صخر حطه السيل من عل. وقتل البرق شخصين. اختفى اثنان من السرية الثالثة وانقطعت اخبارهما، بينما تنفق الخيول زرافات، وتغطي جثثها الطريق العام.

يحدق كوجوخ في الطريق العام المغسول جيدا، في الصخور التي كانت تجثم بجفاء، ويقول:

– لا تتوقفوا للمبيت. سيروا بلا توقف. عليكم بالسير ليل نهار.

– لكن الخيول لن تتمالك ايها الرفيق كوجوخ. لم تبق لدينا قشة من الحشيش، عندما كنا نسير عبر الغابات كانت الخيول تقتاد على فروع الاشجار، اما الآن فليس امامنا غير حجارة جرداء.

لاذ كوجوخ بالصمت.

– السير بلا توقف! اذا توقفنا نفقت الخيول كلها. اكتب امراً بذلك.

هواء الجبال عليل ونقي ورائع، يتمنى المرء استنشاقه حسب، الا ان عشرات الآلاف من الناس لا يبالون بالهواء، ينكسون نظراتهم الى تحت اقدامهم ويخطون بالقرب من العربات، على جانبي الطريق، قرب المدافع، ويسوق الفرسان المترجلون خيولهم المتباطئة.

الارض فيما حواليهم قفراء موحشة تتخللها صخور كبيرة عارية. بينما تلوح التصدعات ضيقة معتمة. هاويات لا قرار لها تنتظر الوفيات. يعوم الضباب في الشعاب المقفرة.

وتمتلىء الصخور الجهماء التصدعات والشعاب بصرير العربات، وصوت العجلات، ووقع الحوافر، والهدير، والصليل الذي لا ينقطع دقيقة. وتغدوا كل هذه الاصوات المنعكسة آلاف المرات عن كل الجهات، والمتحولة الى اصوات متوحشة، عويلا لا يطاق. الجميع يسيرون صامتين، لكن حتى اذا ما صرخ احدهم بيأس شديد، يضيع صوته في خضم هذه الحركة المقرونة بالصرير والعويل والممتدة لعشرات الفراسخ.

كف الاطفال عن البكاء، عن طلب الخبز، وراحوا يخطرون برؤوسهم بين الوسادات حسب. الامهات اقلعن عن التهدئة، عن الملاطفة، عن الاطعام، فواصلن السير بالقرب من العربات، و يحدقن، خائرات القوى، في انشوطات الطريق الصاعدة الى الغيوم، فى الرتل المتململ بلا انقطاع، في الطريق العام، دون ان يذرفن الدموع.

يلتهب رعب وحشي هائل ما ان يتوقف حصان فيهب الجميع باندفاع لا مثيل له نحو العجلات، يسندون العربة باكتافهم، ويهوون بسياطهم، يصرخون باصوات مخيفة، الا ان الصرير النهم، المنعكس مئات المرات والمتكرر مئات المرات للعجلات التي لا تحصى يلتهم على مهل كل توترهم، كل ارهاقهم.

يخطو الحصان خطوة، فاخرى، يترنح، يسقط على الارض، كاسراً عريش المركبة، ولا يقوى الناس على النهوض به: القوائم ممدودة، البوز مكشر، وتنعكس حيوية النهار في عينيه البنفسجيتين.

يأخذون الاطفال من العربة؛ تنغز الأم الكبار منهم ليسيروا على اقدامهم، اما الصغار فتحملهم في حضنها او تضعهم على ظهرها. اما اذا كان عدد الاطفال كبيراً فيبقون واحداً او اثنين من اصغرهم في العربة الساكنة، وينصرفون بعيون جافة دون ان يتلفتوا الى وراء. بينما يسير الناس وراءهم، دون تلفت، و على مهل ايضا، وتتحاشى العربات المتحركة – عربة ساكنة، والخيول الحية – حصانا ساكنا، والاطفال الاحياء – اطفالا موتى، ويبتلع الصرير المتواصل، المنعكس آلاف المرات، للعجلات التي لا تحصى، يبتلع ما حصل بهدوء.

تشرع الأم المحتضنة للطفل فراسخ كثيرة بالترنح، تتخاذل ركبتاها، يعوم الطريق العام العربات، والصخور امام عينيها.

– لا... لن أصل.

تجلس جانبا على كومة من الحصى ترسل النظر، تهز طفلها، وتمر العربات من جنبها بلا انقطاع.

فم الطفل اليابس المسود مفتوح. وتنظر العينان الضاربان الى الازرق الفاتح بلا حركة.

وتقول الأم في قنوط:

– ليس عندي حليب يا قلبى، يا عزيزي، يا وردتي...

وتنهال بقبلات مجنونة على طفلها، على حياتها، على سعادتها الاخيرة. بينما عيناها جافتان.

فم الطفل المسود لا حراك فيه، بينما تبحلق العينان المغطتان

بطبقة رقيقة من البياض بسكون. وتضم الأم الى صدرها هذا الفم العزيز البارد الذي لا حيلة له.

– يا بنيتي العزيزة، لن تتعذبي و لن تنتظري موتك بعذاب.

ويبرد جسد الطفل رويداً رويدا بين يديها.

تحفر حفرة في الحصى تضع فيها درتها، تخلع عن رقبتها الصليب، وتضعه على رقبة الطفل من رأسه البارد المتثاقل تدفن طفلها وهى تواصل رسم اشارة الصليب.

يسير الناس بالقرب منها دون ان يتلفتوا اليها. تسير العربات بعزم لايلين، وتتواصل آلاف الاصوات، وتنعكس أصداء الصرير الجاف آلاف المرات بين الصخور الجرداء.

بعيدا، في الأمام، في مقدمة الرتل يسير الفرسان المترجلون، ويجرون بشدة أعنة الخيول التي بالكاد تسير، وقد ارخت آذانها مثل الكلاب.

اشتدت الحرارة. واخذ الذباب الذي اختفى اثناء الرعد والتصق على نحو هادئ تحت العربات، أخذ الآن يطير اسراباً.

– هيه، يا شباب! ماذا دهاكم، انزلتم ذيولكم مثل القطط. هيا، غنوا!..

لم يستجب احد لطلبه. وراحوا يخطون متعبين متثاقلين، مجرجرين وراءهم الخيول.

– اللعنة على امهاتكم! أشغل الحاكى، فليغن هو على الاقل...

ونبش بنفسه في كيس الاسطوانات وتناول اسطوانة كيفما اتفق، وراح يفك رموز الكتابة التي عليها:

– بـ.. بيـ – يـ.. بي...م، بيم، بـ..و. – بيم – بوم... ما هذه الاعجوبة؟.. بـ.. بيـ – هـ.. هـ.. و.. بهلو.. ل.. فنانو الضحك... روعة! هيا غن.

ادار مقبض الحاكى المتأرجح، المربوط بالسرج، وضع الاسطوانة، وشغل الآلة.

اكتسى وجهه هنيهة امارات دهشة حقيقية، ثم ضيقت عيناه في شقيهما، وامتد طرفا فمه حتى اذنيه، ولمعت اسنانه، وغرق في قهقهة مثيرة للضحك. وانطلقت من بوق الحاكي، عوضا عن

اغنية، قهقهات مذهلة: كان اثنان يقهقهان، تارة احدهم وتارة الثاني، او كلاهما سوية. كانا يقهقهان بأصوات غير متوقعة، تارة بصوت رقيق غير عادي، مثل قهقهة طفل مدغدغ، اخرى مثل ثور، وارتعش كل شيء. كانا يضحكان لاهثين، ملوحين، يقهقهان مثل امرأة انفجرت في ضحك هستيري، يقهقهان حتى انبعاث الالم فى الخاصرة بجنون. يقهقهان وكأن لم يعد بمستطاعهما التوقف.

أخذ الفرسان السائرون حوله يبتسمون محدقين في البوق الذي كان يقهقه بكل ما اوتي له من قوة وبجنون. تسلل الضحك الى صفوف الجنود، الذين لم يتمالكوا انفسهم فأخذوا بالضحك واصدروا قهقهات مماثلة لقهقهات بوق الحاكي. ازدادت الضحكات وانتقلت من صف الى آخر أبعد فأبعد.

وصلت القهقهات الى المشاة المتخطين بتثاقل، فضحكوا دون ان يعرفوا السبب، اذ لم يكن يسمع ثمة صوت الحاكي، فانهم قهقهوا بتأثير ضحك السائرين في المقدمة. و تدحرجت تلك القهقهات على نحو لا يردع بين صفوف الجنود صوب المؤخرة.

– لماذا يقهقهون؟ أي شيطان يدعوهم؟ – ويبدأون انفسهم بالضحك ملوحين بأيديهم هازين رؤوسهم.

– من يدري، يضحكون على ذقون آبائهم...

ساروا، وضحك جنود المشاة جميعهم. ضحك رتل العربات، قهقه النازحون. قهقهت الامهات بعيون مفعمة فزعا. قهقه الناس على امتداد عشرات الفراسخ خلل صرير العجلات النهم الذي لا يسكن بين الصخور الجرداء.

حين بلغت هذه القهقهات كوجوخ، شحب وجهه، واصفر مثل الكركم. وكانت هذه المرة الاولى الذي يشحب فيها وجهه طيلة وقت المسيرة.

– ماذا حدث؟

اجاب الياور محاولا ايقاف قهقهاته المندلقة:

– الشيطان وحده يعلم! تخبلوا. سأذهب بنفسي و أستعلم الخبر.

انتزع كوجوخ الكرباج والعنان من الياور ووثب على صهوة الحصان على نحو غير لبق وأخذ يهوى بسوطه على ضلوع

الحصان بلا رحمة. سار الحصان الضامر ببطء منزلا اذنيه، وأخذ الكرباج يخترق الجلد. لقد تحرك بمشقة، بينما كانت القهقهات تتدحرج فيما حواليه.

واذ أحس كوجوخ أن وجنتيه بدأتا ترتعشان، كز على اسنانه. وبلغ في آخر الآمر المقدمة الغارقة في الضحك. اطلق سبابا مقذعا وهوى بالكرباج على الحاكي:

– سكوت!

فرقعت الاسطوانة المكسورة وسكتت. وتسلل الصمت عبر صفوف الجنود مطفئاً القهقهات، ولم يعد يسمع غير الصرير و الفرقعة والطقطقة الداوية، المتعالية حدا لا يطاق، والمنعكسة آلاف المرات. واجهوا حافات مسننة لشعاب جرداء.

قال احدهم:

– مضيق!

وامتدت انشوطات الطريق العام هابطة.

الفصل الحادي والثلاثون

– كم عددهم؟

– خمسة.

وتدفقت الغابات، السماء، والجبال البعيدة جرداء وقائظة.

– واحد بعد آخر؟

– واحد بعد آخر...

لم يكمل جندي الدورية الكوباني ذو الوجه العرق كلامه، اذ خضه الحصان على عرفه – وكان الحصان عرق الجانبين، يطرد عن نفسه الذباب بعدم ترو، هازا رأسه، محاولا انتزاع عنانه من الايدي.

كان كوجوخ يجلس في العربة مع السائس والياور، وكانوا جميعا محمرين كأنهم خرجوا من الحمام. ليس ثمة من أحد فيما حواليهم.

– بعيداً عن الطريق العام؟

اشار الكوباني بالكرباج صوب اليسار:

– حوالى عشرة او خمسة عشر فرسخا، وراء الحرش.
– هل ثمة درب من الطريق العام الى هناك؟
– نعم.
– الم تر قوزاقا؟
– لا.. لم أر. لقد تقدم ذوونا نحو عشرين فرسخا الى امام، ولا تشم اية رائحة لوجود القوزاق. يقال في القرى ان القوزاق يحفرون الخنادق؟ حوالى ثلاثين فرسخا وراء النهر.

لاعب كوجوخ مضائغة على الوجه الذي صار فجأة هادئا اصفر، وكأن لم يكن قبل ذلك بقليل كاللحم المغلي.

– ايقاف رأس الجيش، و الاستدارة نحو هذا الدرب. و لتقم جميع الفصائل والنازحين والعربات بالالتفاف حولهم!

انحنى الكوباني انحناءة بسيطة على القربوس، وقال بحذر، لكي لا يؤخذ كلامه باعتباره مخالفة لمرؤوسيه:

– طريق الالتفاف طويل... الناس يقعون... الحرارة عالية... ولم يأكلوا شيئاً.

تشبثت عينا كوجوخ الصغيرتان بالبعد القائظ المتهدج، وأصبحتا رماديتين. لليوم الثالث... الوجوه غائرة، وفى العيون شعاع ماحل. لليوم الثالث لم يتذوقوا زادا. الجبال من الوراء، لكن لا بد من السير بكل ما اوتى لهم من قوة، والخروج من سفوح الجبال القاحلة، والوصول الى الستانيتسات، واطعام الناس والخيول. ولا بد ايضا من الاسراع وعدم السماح للقوزاق بتعزيز قواتهم فى الأمام. لا يجوز اضاعة دقيقة واحدة، لا يجوز اضاعة هذه العشرة او الخمسة عشر فرسخا من الالتفاف.

حدق كوجوخ في وجه الكوباني الشاب المسود من الجوع والحر. كانت عيناه تشع فولاذا. وقال مصدرا الكلمات من بين اسنانه المطبقة:

– استديروا بالجيش صوب المنعطف، وليقم بالالتفاف!
– سمعا وطاعة.

واعدل الكوباني على رأسه قبعة استرخان مدورة، مبتلة من العرق، وهوى بالسوط على الحصان غير المذنب بشيء. اطرب الحصان وكأن ليس ثمة من فيض رنان لا يطاق، ليس ثمة من

سحابات من الذباب، وتراقص، ثم استدار وراح يعدو خببا جذلا نحو الطريق العام. الا ان الطريق العام كان مختفيا في خضم سحابات كثيفة من غبار رمادى ضارب الى البياض، التي كانت ترتفع اعلى من ذؤابات الاشجار وتضيع بعيدا بعيدا في الخلف، في الجبال. وكان المرء يحس انه بين سحابات الغبار هذه يسير آلاف الناس الذين اضناهم الجوع.

تدحرجت عربة كوجوخ التي كان يتعذر لمس حتى اقسامها الخشبية، و تدحرج في اثرها صوت ارتجاج متوقد رنان. وكان رشاش حارق يسلط النظرات من وراء مقعدها.

اختفى الكوبانى في سحابة غبار حالكة خانقة. كان يتعذر على المرء تميز شيء ما، الا انه كان يسمع كيف كانت تسير الصفوف مضنية غير حاذقة، متشتتة، وكيف تتخطى الخيول، وتصر العربات. وكانت الوجوه المسخمة تتنور على نحو غير واضح بالعرق المتصبب.

لا احاديث ولا ضحكات، سوى صمت ثقيل عائم مع الحشد. وتخطو في هذا الصمت المعبأ بالتوقد نفس الخطوات، ويسمع وقع الحوافر وصرير العجلات المتكسرة والمتناهية كيفما اتفق نفسه.

تسير الخيول مسترسلة الآذان بوهن.

تتأرجح رؤوس الاطفال في العربات يمينا وشمالا، وتلوح الاسنان المكشرة البيض بغير وضوح.

— ماء... ماء...

يعوم ضباب رمادي خانق يغطى كل شيء، وتسير فيه صفوف الجنود غير مرئية، يسير الفرسان، وتسير ارتال العربات محدثة صريراً، ولعل هذا ليس قيظا، ليس سديما رماديا عائما، بل اسى كثيف، وليس ثمة من آمال أو افكار عدا شيء واحد — الحتمية. لعل ذلك الشيء الذي اوقعهم في كماشته حين دخولهم ممراً ضيقا بين البحر والجبال ورافقهم خفية طيلة الوقت، وعدهم الآن بنهاية مفزعة: جوعى، حفاة، عراة يرتدون اسمالا، تحرقهم الشمس. بينما تنتظرهم في الامام بنهم افواج قوزاقية مستعدة، متخندقة، شبعانة، وجنرالات ضوار.

انطلق الكوباني وسط هذه السحابات الخانقة المعبأة بالصمت والصرير، وهو يميز الوحدات بالصيآحات فقط.

ينشق السديم الرمادي بين حين وآخر، فترتعش في الشق المستنير ملامح تلال، وغابات، وسماء، وتحدق الشمس في وجوه الجنود الملفوحة بجنون. ثم يزحف من جديد، ببطء، مغطيا كل شيء بدوى الخطوات غير المنتظم وقع الحوافر المتشتت، وصرير العربات، واليأس. وعلى قارعتي الطريق يجلس ويرقد أناس منهارو القوى معفرين بسحابات الغبار العائمة، ملقين رؤوسهم الى الوراء، وتلوح افواههم الفاغرة اليابسة سوداء، يتجمع عليها الذباب.

سار الكوباني متدافعا الناس والخيول حتى الفصيل الطليعي، انحنى قليلا عن السرج، تحدث مع القائد. تجهم القائد، القى نظرة صوب قامات الجنود السائرين غير الواضحة، والتي تلوح وتختفي كل لحظة، وأمر بصوت اجش غريب، غير شبيه بصوته ابداً:

– الفوج، قف!..

امتص السديم الخانق، مثل القطن، كلماته في الحال، لكن، على ما يبدو، انهم سمعوه حيث كان يتطلب الامر، وراحوا يتناقلون الايعاز بمختلف الاصوات المتباعدة و المتخافتة:

– الكتيبة، قف! السرية، قف!

و في مكان ما بعيد كليا، تناهى صوت خفيف ثم تلاشى:

– قف!..

توقف وقع الخطوات في الرتل الطليعي، و خذ السكون يدب ابعد فابعد، ولم يحل الصمت للحظة حسب فى السديم الحار الغامض، بل حل هدوء، هدوء عظيم لتعب لا حدود له، وقيظ لا رحمة فيه. بعد ذلك امتلأ السكوت بنشقات كثيرة وسعلوا طاردين الغبار واطلقوا شتائم مقذعة، ولفوا السيكائر من اوراق الاشجار اليابسة و الاعشاب، وكان الغبار المتساقط على الارض ينزاح بطيئا بطيئا عن الوجوه، وابواز الخيول، والعربات.

جلسوا على قارعتي الطريق، وفى ترعه ماسكين الحراب بين ركبهم. و تمددوا بلا حراك على ظهورهم امام الشمس الحارقة.

توقفت الخيول واهنة، مهدلة الابواز غير قادرة على طرد اسراب الذباب الملتصقة بها.

– نهوض!.. هيه، انهضوا.. و.. و!..

لم يتململ او يتحرك أحد: وكان الطريق العام لا يزال متسمرا بناسه وخيوله وعرباته. كان يبدو انه لم تكن ثمة من قوة يمكنها انهاض الناس الذين حطوا على الارض مثل كومة صخور ساخنة.

– انهضوا... يا اولاد الـ... اي شيطان!

نهضوا زرافات ووحدانا كالمحكوم عليهم وساروا دون ان ينتظموا في صفوف او ينتظروا الأوامر، كيفما اتفق متنكبين البنادق، ناظرين بعيون ملتهبة.

ساروا متشتتين في الطريق العام، وعلى قارعتيه، وفي الحوادير. صرت العربات، وانطلقت سحابات لا حصر لها من الذباب.

وجوه محروقة، عيون لامعة ببياضها، الرؤوس و تتقي أشعة الشمس الخطرة بنبات راعي الحمام واغصان الاشجار، وقش مجدول بدلا من القبعات. يجرجرون اقدامهم الحافية، المتشققة، المسودة. ويسير بعضهم معرضا للانظار جسده العاري الاسود، مثل عبد، عدا خرقة يستر بها عورته مثل ورقة توت. عضلات جافة ضامرة تتحرك تحت الجلد المسود، ويتخطون ملقين رؤوسهم الى الوراء، متنكبين البنادق، مضيقين اعينهم، فاغرين افواههم المتيبسة. يسير هولاء القوم الرحل، ورؤوسهم شعثاء، ملابسهم ممزقة، اجسادهم مسودة عارية، عرباتهم مصرة، ويتبعهم القيظ، والجوع والاسى. ومن جديد ترتفع سحابات بيضاء بأعياء وعلى مهل، ويزحف من الجبال الى السهب الطريق العام المزدحم على مرمى النظر.

وصدر فجأة امر غريب:

– الى اليسار در!..

ويسمع بذهول فى كل مرة عندما تقترب وحدة جديدة:

– الى اليسار... الى اليسار... الى اليسار!..

ويركضون جماعات فى الدرب الضيق، في البدء مندهشين، ثم بحيوية ونشاط. كان الدرب حصويا، غير مغبر، ويظهر فيه كيف تنعطف الوحدات مسرعة، ويهبط الخيالة، وتتدحرج العربات

بصرير وتثاقل. تنشق الآفاق الرحبة، الأدغال، والجبال الزرقاء. ولا تزال الشمس الجنونية ترتجف في السماء حارة ساطعة. وتنعطف ايضا اسراب الذباب السوداء. وتلبث سحابات الغبار المترسبة، و الصمت الخانق في الطريق العام، بينما الدرب الصغير ينتعش بالاصوات والهتافات والضحكات:

– الى اين يسوقوننا؟

– ربما يأخذوننا الى الغابة، لنرطب حلقومنا الجاف.

– يا غبي!.. لقد هيأوا لك في الغابة مطرحا، لتأخذ عليه راحتك.

– لقد خبزوا هناك فطائر بالقيمر.

– بالزبد...

– بالقشدة.

– بالعسل.

– وبطيخا أحمر منعشا...

بصق جندي طويل، خشن العظام يرتدي سترة الـ «فراك» ممزقة ومبتلة من العرق (وكانت تتدلى فوق ركبتيه بقايا تخاريم وسخة يبرز من تحتها كل شيء) بصق لعابا لزجا وقال غاضبا:

– اسكتوا انتم يا كلاب... اسكتوا!..

وشد الحزام على بطنه الغائر، ونقل البندقية من كتف الى كتف بغيظ.

أطارت الضحكات سربا كثيفا من الذباب:

– لماذا غطيت يا اوباناس مؤخرتك وكشفت عما بين فخذيك؟ البس السروال النسائي بالعكس، والا فان النساء في الستانيتسا لن يعطوك طعاما، سيشيحون عنك بوجوههن.

– ها... ها... ها...

– يا شباب، لا بد من الاستراحة.

– لكن ليس ثمة من ستانيتسيات، انا اعرف.

– اي هذر. هاهي اعمدة التلغراف تتفرع من الطريق العام. الى اين تؤدي ان لم تكن الى ستانيتسا؟

– هيه، يا فرسان، لا تحرموا خبزتكم... اعزفوا.

وتناهى من الحاكى المتأرجح على سرج أحد الخيول صوت أجش:

اين اختفيت - ب... شـ... ش -
يا ربيع - ب... شـ... ش...

كان الصوت يتناهى في القيظ، بين سحابات الذباب المتطايرة، بين الناس المتصببين عرقا والمعفرين بالغبار الأبيض العراة، المرتدين اسمالا بالية والمتخطين بعذاب، لكن بجذل، وكانت الشمس تحدق بحياد عاجز. تتحرك الارجل بصعوبة بالغة، وكأنها مليئة رصاصا حارا، بينما بدأ صوت عال رقيق يغني:

وكانت صاحبة الدار تعزف...

وانقطع الصوت - غصت حنجرة المغني، بينما واصلت اصوات اخرى، مبحوحة ايضا من القيظ:

ماذا كان يريد الروسي...
الا انها كانت تنتظر
الطبل حين يعزف

وابتهجت الوجوه المسودة واخذت اصوات غليظة ورفيعة، فى مختلف نهايات الرتل، تغني بألفة مع انها كانت مبحوحة:

وما ان كانت نقرات الطبل
«حمداً لك يارب!»
قالت للجندي الروسي
«هل تريد فطائر؟»
فانتفض الجندي الروسي»
ولكن لاوقت له للانتظار

وعلت طويلا فوق الحشد اصوات مبحوحة متشتتة للجنود وللحاكي.

– هيه، انظروا: القائد!

راح الجميع، اثناء المرور به، يديرون رؤوسهم وينظرون اليه: اجل، هو نفسه، وكما كان عليه في السابق: قصير القامة، عريض المنكبين، يعتمر نفس قبعة القش المتسخة، مثل فطر. يقف، يحدق فيهم. ويظهر صدره المشعر من فتحة قميصه العسكري الممزق المبلل بالعرق. تتدلى ياقة القميص، تتدلى الاسمال وتظهر من تحت «القلشين» الممزق قدمان متشققتان.

– يا شباب، قائدنا يشبه قاطع طريق. فاذا ما التقاه المرء في الغابة خافه.

ينظرون اليه بحب ويضحكون.

يمر من جانبه حشد كسول غير منتظم يطن متماهلا ويسلط عليه عينيه الصغيرتين غير الغافلتين اللتين اصبحتا زرقاوين على وجهه الحديدي.

«اجل... قوم رحل... رحل قطاع طرق – يفكر كوجوخ. اذ ما صادفنا القوزاق ضاع كل شيء... رحل!..»

– ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ – تناقلت الحشود هذا التساؤل مخمدة غناء الرجال والحاكي.

ساد صمت قبور مليء بوقع اقدام والتفتت جميع الرؤوس في اتجاه واحد، وصوبت جميع الانظار نحو اتجاه واحد – في ذلك الاتجاه الذي تمتد فيه اعمدة التلغراف التي كانت تصغر وتصغر كلما ابتعدت وتصبح في النهاية، في القيظ المرتجف، اقلام رصاص. كان اربعة اشخاص معلقين عراة على الاعمدة الاربع القريبة. تطن حولهم اسراب سوداء من الذباب. كانت رؤوسهم محنية وكأنهم ضموا احناكهم الفتية ليمسكوا بالعروة. كانت اسنانهم مكشرة وعيونهم مفقوءة مثل حفر سوداء، تتدلى احشاوهم الخضراء اللزجة من بطونهم المبقورة. الشمس لافحة. وقد تشقق الجلد الذي كانت تخترقه اثار قضبان التنظيف. طار سرب من الغربان وحط على اعالي الاعمدة، هو ينظر جانبا نحو الاسفل.

كانوا اربعة... اما العمود الخامس فكانت تتدلى عليه فتاة عارية مسودة مقطوعة النهدين.

– الفوج، قف!

لاحت على العمود الاول ورقة ملصقة.

– الكتيبة قف!.. السرية قف!..

وهكذا. تناقل الطابور الاوامر المتلاشية في البعد.

كان السكون ينبعث من هذه الجثث الخمس التي تفوح منها رائحة نتنة مقرفة قوية.

رفع كوجوخ عن رأسه قبعة القش الممزقة المتدلية الاطراف. ورفع جميع من كان يعتمر قبعة قبعاتهم. اما الاخرون فقد رفعوا القش والاغصان والحشائش المحطوطة على رؤوسهم.

لفحت الشمس.

وفاحت الرائحة النتنة المقفرة.

– اعطني اياها يا رفاق.

ينتزع الياور الورقة الملصقة على العمود قرب الميت ويقدمها له. كز كوجوخ فكيه وقال من بين اسنانه:

– يا رفاق، – وعرض الورقة الساطعة تحت الشمس على نحو مغشى للعيون – انها موجهة من الجنرال اليكم. الجنرال بوكروفسكي يقول: «ان كل من يكون ادنى علاقة مع البلاشفة سيكون مصيره الموت الرهيب مثل هؤلاء الخمسة السفلة من معمل مايكوب.» وكز اسنانه، وبعد ان صمت برهة اضاف: – انهم اخوتكم و... اختكم.

بعد ذلك كز اسنانه من جديد دون أن يسمح لنفسه بالكلام – كان الأمر واضحا بلا كلام.

كانت آلاف العيون اللامعة تنظر دون ان تطرق. وخفق حسب قلب عظيم لا حدود له.

و انهمرت الدموع السوداء شاقة مجار لها. وفاحت الرائحة النتنة.

وهمد القيظ الرنان والدندنة الرقيقة لأسراب الذباب في الصمت. وساد حسب صمت قبور، وفاحت الرائحة النتنة المقرفة، وانهمرت الدموع السوداء.

- استعد!.. الى الامام سر!..

مزق وقع الاقدام الثقيل الصمت مباشرة، وغرق على نحو منتظم ورتيب في القيظ كأنه وقع قدمي شخص واحد طويل القامة على نحو لا يوصف، ويخفق قلب واحد عظيم لا حدود له.

يسيرون دون أن ينتبهوا انهم يسرعون ويسرعون بخطاهم الثقيلة. يسيرون بخطوات اوسعة اكثر فاكثر والشمس تحدق فيهم بشكل جنوني.

تعثر جندي ذو شاربين اسودين من الكتف الايمن للفصيل الأول فسقطت بندقيته وهوى على الارض. انتفخ وتضرج وجهه، و توترت عضلات رقبته، و بحلقت عيناه الحمروان مثل اللحم. والشمس الاهبة تتلظى بقساوة.

لم يتعثر أحد آخر ولم يتوقف. فساروا بخطى اوسع، واسرع، مرسلين النظرات الى امام، الى الأفاق الخافقة بالقيظ، بعيون لامعة.

- الاسعاف!

جاءت عربة الاسعاف، اخذوا الجندي المنهار و وضعوه فيها - لقد قتلته الشمس.

تصرم وقت قصير، انهار جندي آخر، ثم جنديان.

- عربة الاسعاف!

وقال صوت آمر:

- احموا رؤوسكم!

من كان يملك قبعة اعتمرها، وآخرون رفعوا مظلات نسائية، اما الذين كانوا بلا هذا وذاك فكانوا ينتزعون في طريقهم قبضة من القش ويضفرونها فوق رؤوسهم. وفي طريقهم أيضا كاوا يمزقون اسمالهم المتشربة عرقا وغبارا، ينزعون بناطيلهم ويمزقونها قطعاً قطعاً ويعصبون بها رؤوسهم ويسيرون بدوى و تثاقل وبخطى واسعة، تلوح اقدامهم العارية ملتهمة الطريق العام السائر تحتها.

يحاول كوجوخ، في عربته، التقدم الى طليعة الطابور. ويهوى السائس ذو العينين الجاحظتين بسوطه على ظهور الاحصنة تاركا عليها خطوطا عرقة. تعدو الخيول مرغية الا انها لا تفلح - تسير الصفوف الثقيلة اسرع فاسرع و بخطى اوسع.

- ماذا، هل تخبلوا؟ يركضون مثل الارانب...

ومن جديد يهوى السائس بسوطه على ظهور الخيول.

«طيب، يا اولاد، طيب...» - ويرسل كوجوخ نظرة من تحت جبينه المقطب. وقد استحالت عيناه الى حديد ازرق - «على هذا النحو سنقطع نحو سبعين فرسخا في اليوم...»

ينزل كوجوخ من العربة ويسير متوترا لكي لا يتأخر، ويضيع في خضم الصفوف اللانهاية لها والسائرة بسرعة وبوقع ثقيل.

تغور الاعمدة في البعد، عارية وحيدة. يلتف ر س الطابور نحو اليمين، وحين يرتفع على الطريق العام القاحل تتصاعد من جديد و تنعقد بسحابات من الغبار. لم يعد يرى شيء. وقع الاقدام الثقيل، الرتيب، حسب، يملأ سحابات الغبار الخانقة المضطربة التي تتدحرج بسرعة الى امام.

تقترب الوحدات واحدة اثر اخرى من الاعمدة المتروكة، وتتوقف.

ويسود صمت قبور مسربلا كل الاصوات مثل سديم. القائد يقرأ الورقة التي تركها الجنرال. الاف العيون الساطعة ترسل انظارها دون ان تطرف عيونها، ويخفق القلب خفقة واحدة. يخفق قلب واحد عظيم ليس ثمة مثيل له.

المشنوقون الخمسة معلقون بلا حراك. حز لحم مسود تحت الانشوطات، ولاحت من تحته العظام البيضاء.

تحط الغربان على ذؤابات الاعمدة، تنظر جانبا الى الاسفل بعيون لامعة. وتفوح رائحة شواء لحم بشري ثقيلة نتنة خانقة.

بعد ذلك يخطو الخطوات بدوي رتيب أسرع فأسرع، منتظمين، دون ان يدروا بانفسهم، وينتظمون بلا اوامر في صفوف ضيقة ثقيلة. ويسيرون متناسين، برؤوس حاسرة، دون ان يروا الاعمدة المتباعدة في خط مستقيم وظلال الظهيرة المعتمة القصيرة جدا، مرسلين نظرات عيونهم المضيقة المعذبة في خفقان القيظ المترامي.

ويصدح صوت آمر:

- غطوا رؤوسكم!..

يسيرون اسرع فاسرع، وبخطى اوسع وبصفوف رتيبة ثقيلة،

ميممين شطر اليمين، ثم منسكبين فى الطريق العام، تبتلعهم سحابات الغبار وتتدحرج معهم.

يمر آلاف، بل عشرات الآلاف من الناس. لم تعد ثمة من فصائل او سرايا او افواج، بل شيء عظيم موحد لايوصف. يسيرون بخطوات لا تعد ولا تحصى، ينظرون بعيون لا حصر لها، وتخفق كثرة كاثرة من القلوب في قلب واحد ضخم.

ويحدق الجميع في الافق القائظ دون ان يرفعوا انظارهم، كأنهم ينظرون بعين واحدة.

رقدت ظلال طويلة منحنية. وعام ضباب ازرق. الجبال في الوراء والشمس التعبانة، الضعيفة، والتي اصبحت اكثر شفقة، القت بنفسها وراء الافق. تسير العربات متثاقلة حاملة الاطفال والجرحى.

يوقفون العربات هنيهة ويقولون:

– هؤلاء اخوتكم... هذه صنيعة الجنرالات...

بعد ذلك يواصلون السير، ولا يسمع الا صرير العجلات. ويتهامس الاطفال حسب.

– ماما، الا يلاحقنا الموتى في الليل؟

النساء يرسمن اشارة الصليب، يتمخطن في اذيال أثوابهن، يمسحن دموعهن.

– يا لكم من مساكين...

يسير الشيوخ بأمزجة متعكرة بالقرب من العربات. ويصبح كل شيء مبهما. لم يبق من اعمدة، ولم يعد يرى غير العمالقة الذين تستند اليهم السماء. وأخذت السماء تلتمع وتتلاعب، غير ان الدنيا لم تتنور اكثر بتأثير ذلك. وبدا ان الجبال تلوح سوداء في جميع الجهات، الا انها تبينت تلال، بينما قد غرقت الجبال في الظلام منذ فترة، هيمن على الاطراف جميعا سهل غامض، مبهم يمكن ان يقع فيه كل شيء.

يتناهى صراخ نسوى عال قصير، غامض، كأنه جعل النجوم المتلاعبة تنداح في اتجاه واحد.

— أواه!.. أي تمثيل مثلوا بهم!.. انهم وحوش... شياطين... الا تنظروا اليهم يا ايها الناس الطيبون!

تتشبث بالعامود، تحتضن رجلين باردتين، ضامة اليها شعرها الاشعث.

تقتلعها يدان قويتان... بمشقة من العامود وتجرانها نحو عربة. تتلوى مثل افعى، ترتمي من جديد على الرجلين الباردتين، تحتضنهما، ومن جديد تنقلب السماء المتلألئة مذعورة، في جنون.

— ... اين امهاتكم؟ اين اخواتكم؟ وهل لم ترغبوا بالحياة؟ اين عيونكم النيرة؟ اين قوتكم؟ اين كلماتكم الحنونة؟.. يا مساكين! يا لكم من مساكين! ليس من احد يبكي عليكم، ليس من احد يحزن اسفاً عليكم... او يذرف الدمع على شبابكم.

من جديد يمسكون بها، لكنها تزحف متخلصة، ومن جديد يخور الليل خوارا مجنونا.

— يا لهول مافعلوا!.. اكلوا ابني... اكلو ستيبان... وأكلوكم انتم... كلوا جميع الناس... كلوهم بلحمهم ودمائهم، حتى تتخموا، حتى تمتلىء بطونكم باللحم البشري، بالعظام والعيون والامخاخ...

— ها هووو!! توقفي...

العربات لا تقف، تواصل السير بصرير. وغادرت عربتها ايضا. يمسك بها آخرون، تتخلص منهم. لا يتناهى الصراخ بل يتمزق الظلام في يأس ويخور الليل خوارا مجنونا.

ولم يستطع احد ان يقتلعها من ذلك المكان حتى وصل جنود المؤخرة الذين أخذوها بالقوة وربطوها باخر عربة، و ذهبوا.

اقفر المكان، ولم يبق فيه الا رائحة الجثث العفنة.

الفصل الثاني و الثلاثون

كان القوزاق ينتظرون بنهم عند اطلالة الطريق العام من الجبال. ومنذ ان انتشرت نيران الانتفاضة في كوبان اجمعها أخذت القوات البلشفية تتراجع في كل مكان امام الأفواج القوزاقية، ووحدات الضباط لجيش المتطوعين، والكاديت. وليست هذه

القوات من القوة بحيث تتمكن من الصمود او ايقاف حنق الجنرالات المتكالب. وها هم يسلمون مدينة وراء مدينة، ستانيتسا وراء ستانيتسا.

وكان، ابان الأيام الأول من الانتفاضة، قسم من القوات البلشفية افلح في الافلات من الطوق الحديدي للمنتفضين، وهرب هذا الحشد غير المنتظم، الفاسد، العظيم، الذي ترافقه عشرات الآلاف من النازحين وآلاف العربات سائراً في خط ضيق بين البحر والجبال. ولم يفلح القوزاق في اللحاق به، لانه سار بسرعة متناهية، وها ان أفواج القوزاق تتربص به الآن.

لقد حصل القوزاق على معلومات تقول أن سيل قطاع الطرق الذي يجري عبر الجبال يحمل ثروات هائلة منهوبة من الذهب والأحجار الكريمة والملابس وآلات الحاكى واعداداً كبيرة من الأسلحة و الذخائر، الا ان افراده يسيرون حفاة بثياب مهلهلة وبلا قبعات، – من البديهي، انهم يسيرون هكذا حسب عاداتهم الصعلوكية القديمة. ولحس القوزاق من جنودهم وحتى جنرالاتهم شفاههم بتأن اذ تجرى كل هذه الثروات، كل هذه المجوهرات، كل هذه الاموال فى ايديهم.

كلف الجنرال دينيكين الجنرال بوكروفسكي تنظيم الوحدات في يكاترينادار و محاصرة قطاع الطرق النازلين من الجبال و القضاء عليهم جميعا فنظم بوكروفسكي فيلقا، وسلحه تسليحا جيداً، وسد الطريق عند نهر بيلايا. وبيلايا نهر مزبد يجرى من اعالى الجبال. وارسل قسما من وحداته للقاء القادمين.

يسير القوزاق بفرح، مزيحين قبعاتهم الى اقفيتهم. وهم يعتلون صهوات خيول شبعانة قوية، تهز رؤوسها وتحاول الافلات من اللجام. ترن الاسلحة المجلفطة وتلمع في الشمس، وتتمايل برشاقة السترات الشركسية المشدودة بأحزمة، وتلوح اشرطة الباباخات بيضاء.

يجتازون الستانيتسات مصحوبين بالأغاني، وتقدم القوزاقيات لعساكرهن المأكل، بينما يستقبلهم الشيوخ ببراميل من الخمر.

– ليتكم تجلبوا لنا حتى ولو بلشفيا واحداً، جديدا، جاء مما وراء الجبال. للنظر اليه في الاقل.

- سنجلب، احضروا الهراوات.
كان القوزاق متمكنين من الشرب والقتل بجسارة.
لاحت في البعد سحابات غبار كبيرة بيضاء.
- ها هم!
هاهم - سود ملفحون في ثياب رثة، وعلى رؤوسهم أعشاب وحشائش بدلا من القبعات.

اعدلوا من وضع باباخاتهم، استلوا السيوف اللامعة بصليل سريع، انحنوا على القرابيس، و انطلقت الخيول القوازقية في عدو سريع جعلت الريح تصفر في الآذان.
- آخ، كيف سنقطعهم ارباً اربا!
- هورا!!!!

بعد حوالي دقيقتين حدث امر عجيب غير متوقع: وبدأت المعركة، وشرعالقوزاق يتطايرون من على صهوات خيولهم برؤوس واعناق مقطوعة، او تؤخذ الخيول بفرسانها بالحراب. اداروا الخيول، وانحنوا على اعرافها، وولوا الأدبار مسرعين لدرجة ان الريح كانت تصفر اكثر فى الآذان بينما اخذت الرصاصات المدوية تهوي بهم من على ظهور الخيول. يطاردهم الحفاة الملعونون، يلاحقونهم فرسخين، ثلاثة، خمسة، عشرة. ولم ينقذهم الا ضني وارهاق خيول قطاع الطرق.

اخترق القوزاق الستانيتسا كالسهم، فانطلق اولئك فى اثرهم، وأخذوا ينتزعون الخيول المرتاحة، واذا ما امتنع اصحابها اخراجها من الاسطبلات مباشرة، فانهم كانوا يضربون بسيوفهم في اليمين وفي اليسار، ثم يواصلون المطاردة. وتدحرج الكثير من الباباخات القوزاقية ذات الاشرطة البيضاء في السهب، ولاح الكثير من الستر الشركسية، المشدودة باحزمة فضية ذات الحفر السوداء، على التلال الضارب لونها الى الزرقة، وعلى الجذامة الصفراء وفى الاحراش.

اقلعوا عن المطاردة حسب عندما بلغ القوزاق قواتهم المتقدمة، المنطرحة في الخنادق.

اما قطاع الطرق الحفاة الهابطون من الجبال فقد ركضوا بما

تبقى لهم من قوة في اثر فرسانهم. وهدرت المدافع، ولعلعت الرشاشات.

لم يحب كوجوخ ان ينشر قواته نهارا، لانه كان يعرف ان كفة الميزان تميل الى جانب الاعداء، ولم يرغب بكشف عدد مقاتليه، فانتظر حلول الظلام. وحين اسدل الليل ستائره المظلمة الدهماء وقع نفس ما حدث في النهار: فقد هجموا على القوزاق كالجن. وراح القوزاق يقطعون اجسادهم، ويطعنونها بالحراب، ويطلقون عليها الرصاص من الرشاشات، بينما أخذ عدد القوزاق يتناقص اكثر فاكثر، ويضعف هدير المدافع تاركا اعمدة طويلة من النار، وتتضاءل لعلعة الرشاشات، ولم تعد تسمع أصوات البنادق - يتساقط القوزاق قتلى.

و لم يصمد القوزاق، فهربوا. لكن وحتى الليل لم ينقذهم: فقد رقدوا شريطا تحت السيوف والحراب. عندئذ حسب تبعثروا كيفما اتفق، تاركين مدافعهم ورشاشاتهم وقذائفهم وتناثروا بين الادغال، والوهاد في الليل دون ان يدركوا ما هذا الجن الذي انشقت الأرض عنه وهجم عليهم.

وعندما رفعت الشمس رأسها من وراء التلال السهبية، كان قد رقد في السهب المترامي الاطراف الكثير من القوزاق ذوي الشوارب السوداء: ولم يكن هؤلاء جرحى او اسرى، بل جثثا لا حراك فيها.

ارتفع الدخان من المواقد بين النازحين فى المؤخرة وفي رتل العربات. كانت القدور تغلي، والخيول تمضغ العشب و الشوفان. تناهى دوى مدفعي بعيد لم يعره احد اهتماما، - لقد اعتادوا. وعندما صمتت المدافع حسب، أخذ الناس يعودون من ساحات المعركة: تارة مراسل معتلي صهوة حصان حاملا الاوامر، واخرى علاف، وثالثة جندي جاء ليتفقد اسرته سرا. وتنطلق النساء ذوات الوجوه المسودة المعذبة من جميع الاطراف لملاقاتهم، متشبثات

بالركب والاعنة، متسائلات بعيون متوسلة مليئة بالرعب والأمل:
– وماذا عن ولدي؟
– وزوجي؟
– هل هو حي؟
بينما يسير القادم خبباً، ملوحا تلويحة خفيفة بالسوط، مطلقا كلمة تارة لهذه الامرأة وتارة لتلك:
– حي... على قيد الحياة... جريح... جريح... قتيل، الآن سيجلبونه...
يجتاز القادم مستقبليه، بينما وراءه اما يرسمون الصليب بغبطة وهون او تولول امرأة او تتأوه وتسقط فاقدة الوعي، ويسكب عليها الماء.
حين يجلبون الجرحى، تهب الامهات والزوجات والاخوات والعرائس والجارات لتقديم المساعدة، واما عندما يجلبون القتلى، فيلطمن على صدورهن، و يذرفن دموعا لا تعوض، ويسمع المرء من بعيد بكاءهن ونحيبهن.

الفصل الثالث والثلاثون

ابتلع الليل السهب الفسيح والتلال والجبال اللعينة المزرقة طوال النهار، والستانيتسا في جانب الاعداء – ثمت ليس من بصيص ضوء، او صوت، وكأن لا اثر لها على الوجود، حتى الكلاب صامتة، وقد اذعرها هدير المدافع اثناء النهار. ولم يكن يسمع غير خرير النهر.
وهدرت المدافع مزلزلة طوال النهار وراء النهر الذي اصبح غير مرئي، وراء خنادق القوزاق الضاربة الى الرمادي. كان اولئك يضربون غير باخلين بالقذائف وكانت سحابات دخان بيضاء صغيرة، لا حصر لها، تظهر فوق السهب والبساتين والوهاد. ونادرا ما كانوا يردون عليهم من هنا، بتعب وبلا رغبة.
– أ... أ... أ... – كان رجال المدفعية القوزاق يقولون

شامتين – انها تصيبهم فى الصميم... – يهبون على المدافع، يقدمونها الى امام، وينطلق هدير القذيفة من جديد.

وكان واضحا بالنسبة اليهم ان المقابل، في الطرف الآخر، قد تدهور وضعف، ولم يعد يجابههم اطلاقة بأطلاقة. قبيل المساء بدأ الحفاة بالهجوم من خلف النهر، ولقد ردوا عليهم رداً عنيفاً بحيث تفرقت سلاسلهم شذر مذر. لسوء الحظ كان الوقت ليلا والا لأروهم نجوم الظهر. اجل، لا بد وان ينبلج النهار.

يتناهى خرير النهر، يملأ الظلام برمته. و كوجوخ يشعر بالرضا وترسل عيناه الصغيرتان ضوءاً دقيقا رماديا صارما. انه يشعر بالرضاء ذلك لان الجيش مثل اداة طائعة ومرنة بين يديه. وها هو قد ارسل الانساق قبيل المساء للهجوم، وامرها الانبطاح ودخول المعركة على مهل والآن حين ذهب لتفقدهم اثناء الليل، ووسط الظلام الداكن، فقد كان الجميع في مواقعهم، عند ضفة النهر بالذات، بينما يسمع خرير الماء تحت جرف يعلو ستة امتار. يسمع خرير النهر ويذكر المرء بذلك النهر الهادر والليل حين ابتدأت كل هذه الاحداث.

وكان كل جندي زاحف في الظلام يتحسس بيده قائسا الجرف. وكان كل جندي من الافواج المنبطحة قد عرف ودرس موقعه. ولم يكن ينتظر الى اين سيدفعه القادة مثل الخروف.

سقطت الامطار في الجبال، ازبد النهر وارغى نهارا، وها هو الآن يصدر خريرا. يعرف الجنود ان النهر الآن اعمق بعدة أمتار – لقد احتلوا وعينوا العمق – وسوف يضطرون للسباحة في اماكن عدة منه. لابأس، السباحة ممكنة. لقد تفقد كل جندي، قبل الغروب قطاعه منبطحا في الحفر والمجاري وبين الشجيرات، بين الاعشاب النامية، ووسط الانفجارات المستمرة، وحدد المكان الذي سينقض عليه في الضفة الاخرى من النهر.

وكان ثمة جسران في اليسار: احدهما لعبور القطارات، والثاني خشبي، ولم يعدا يظهران العيان. وجه القوزاق صوبهما بطارية ونصبوا رشاشا. ولم يعد المرء يراهما أيضا.

يقف فوجان للخيالة والمشاة في ظلام الليل المعبأ بخرير النهر بلا حراك بمواجهة الجسرين، وذلك بامر من كوجوخ.



يمضي الليل بطيئا بلا نجوم، بلا أصوات، بلا حركة، عدا خرير المياه المتراكضة الرتيب الذي يملأ جوفه الخاوي.

كان القوزاق يجلسون في الخنادق يتسمعون الى خرير المياه المتدفقة، دون ان يتخلوا عن بنادقهم، مع انهم كانوا يعرفون ان الحفاة لن يهجموا ليلا مجتازين النهر - اذ انهم أرسلوا عدداً كافيا من القذائف لهم - وانتظروا. كان الليل يمضي متباطئا.

كان الجنود منبطحين على طرف الجرف مثل الفهود مدلين رؤوسهم في العتمة متسمعين لخرير المياه المتدفقة مثل القوزاق ومنتظرين. وان ما كانوا ينتظرونه وما كان يخيل انه لن يحل ابدا بدأ يحل اخيراً: فظهرت البشائر الاولى للفجر بمشقة، رويداً رويداً، وكأنها ايماءة.

لم يظهر شيء بعد، لا الالوان، لا الخطوط، لا الملامح، الا ان الظلام قد شحب وراح يعيش لحظات المخاض. ان اليقظة صعبة قبيل الفجر بسبب النعاس.

ومرق شيء ما لا يدرك في الضفة اليسرى، كان اما شرارة كهربائية او سربا من الخطاطيف.

وتقافز الجنود من ارتفاع ستة امتار وتناثر معهم الطين والرمل والحجارة... يتناهى خرير النهر...

آلاف الاجسام ولدت آلافا من الطرطشات التي غطاها خرير النهر المتناهى رتيباً...

تنامت غابة من الحراب في غسق الفجر الرمادي امام القوزاق المرهقين، فبدأ العراك، وارتفعت الغمغمات والصيحات والأنين وتبادل الشتائم. لم يعد هناك من أناس، بل كومة من وحوش ضوار متشابكة. قتل القوزاق العشرات، بينما وقع المئات منهم صرعى ايضا. وانشقت الأرض من جديد عن عفاريت راحت تهاجمهم. أمن المعقول انهم اولئك البلاشفة الذين طاردوهم على طول كوبان وعرضها؟ لا، هؤلاء قوم آخر. وليس عبثا ان جميعهم عراة مسودين ومسربلين بالأسمال.

واذ بدأت الضفة اليمنى تزمجر بوحشية في كل الارجاء، اخذت المدافع والرشاشات تقصف الستانيتسا فوق رؤوس ذويهم، وانطلق فوج الخيالة باندفاع عبر الجسرين، تبعه المشاة مندفعين

بكل ما اوتى لهم من قوة. تم الاستيلاء على البطارية والرشاشات واندفعت فصائل الخيالة فى الستانيتسا كلها، ورأوا كيف انطلق شيء ابيض بسرعة قصوى مذهلة من احد البيوت واختفى فى غسق الفجر، ممتطيا حصانا غير مسرج.

وراحت البيوت وأشجار الحور والكنيسة الضاربة الى البياض تظهر أوضح فأوضح.

وأحمر الفجر وراء البساتين.

اخرجوا أناساً بكتافيات ذهبية ووجوه رمادية من بيت القسيس. استولوا على بعض من أفراد هيئة الأركان. قطعوا رؤوسهم بالقرب من اسطبل القسيس. و اختلطت الدماء بروث الخيل.

ولم يعد يسمع خرير النهر بسبب من الصخب والصياحات و اطلاقات النار والشتائم والانين.

بحثوا عن بيت قائد القوزاق في الستانيتسا. تحروا كل مكان من السقيفة وحتى السرداب ولم يعثروا عليه. لقد هرب فاخذوا يصرخون:

– اذا لم تسلم نفسك قتلنا الاطفال!

القائد لم يسلم نفسه.

شرعوا بقتل الاطفال، فركعت زوجة القائد مسترسلة الشعر على ركبتيها امام اقدامهم متوسلة، قال أحدهم معاتباً:

– لماذا تصرخين كالمطعونة؟ فقد كان لي طفلة في الثالثة مثل طفلتك تماما... واروها الحصى هناك في الجبال، ولم اصرخ.

قتل الطفلة، ثم حطم رأس الأم المقهقهة.

تجمع عدد من شغيلة السكك بالقرب من أحد البيوت حيث كانت كسرات الزجاج تتناثر على الارض:

– كان الجنرال بوكروفسكي ينام هنا. كدتم تقبضون عليه. فما ان سمعكم حطم النافذة باطرها وخرج باقصى سرعة مرتديا قميصا فقط بلا سروال و اعتلى صهوة حصان غير مسرج وهرب.

قال أحد الفرسان متجهما:

– لماذا بلا سروال؟ هل كان في الحمام؟

– كان نائماً.

– كيف كان نائما بلا سروال؟ هل يجوز هكذا؟

– السادة ينامون دائما هكذا، حسب نصائح الاطباء.

– حتى نومهم ليس مثل الناس، السفلة!

بصق وولى الادبار.

هرب القوزاق. وكان سبعمائة منهم سقطوا قتلى اكواماً في الخنادق وشريطا طويلا في السهب قتلى حسب. ومن جديد دبت في نفوس هؤلاء الهاربين دهشة لا تمحى ازاء هذه القوة الشيطانية.

قبل يومين حسب كانت القوات البلشفية الرئيسية تتمركز في هذه الستانيتسا نفسها، وقد طردهم القوزاق ولاحقوهم، ولا تزال الوحدات المرسلة تلاحقهم لكن من اين جاء هؤلاء؟ الم تنشق الارض عنهم؟

كانت اشعة الشمس المائلة الرافعة رأسها فوق طرف السهب البعيد تغشى عيون الهاربين.

ترامى رتل العربات والنازحين في السهب، في الادغال، بين التلال، بعيداً. أعمدة الدخان الزرقاء نفسها تتصاعد من المواقد، رؤوس الأطفال الضامرة الناتئة العظام نفسها لا تكاد تقف على الاعناق الواهية. ويرقد كذلك على خيم جورجية مفروشة بيضاء موتى بأياد معقودة. وتلطم النساء بهستيرية، وينتفن شعور رؤوسهن – نساء اخريات، ليس اولئك اللائي كن في المرة الماضية.

الفصل الرابع والثلاثون

انهزم القوزاق، الا ان كوجوخ لم يتحرك من مكانه، مع انه كان يتعين عليه الهجوم مهما كلف ذلك من ثمن. كان الجواسيس والهاربون من السكان المحليين يقولون بصوت واحد ان القوزاق يحشدون قواتهم من جديد وينظمون انفسهم، وتأتيهم الامدادات بلا انقطاع من يكاترينودار تتقدم المدافع نحو الامام هادرة، وتسير كتائب الضباط متراصة رهيبة، وتصل وحدات قوزاقية جديدة. تلوح فيما حوالى كوجوخ القوى المحتشدة الهائلة، مكفهرة أكثر فأكثر. آه، لا بد من الذهاب! لا بد من الذهاب طالما يمكن الاختراق، وطالما ان القوات الرئيسة لم تذهب بعيداً. بينما كوجوخ... مكث في مكانه.

لا يجرؤ كوجوخ على الحركة قبل ان تصل الطوابير المتأخرة. انه يعرف ان جنوده غير قادرين على خوض المعارك فيما اذا قاتلوا بقواهم الخاصة، عندئذ يلاقون هزيمة نكراء من القوزاق–ويسقطون جميعهم قتلى. وعندئذ ستبقى هذه الابادة وصمة عار في جبين المجد الذي ينبغي ان يتألق فيه كوجوخ كمنقذ لعشرات الآلاف من الناس.

ومكث كوجوخ فى الانتظار، بينما جمع القوزاق قوة هائلة، مكفهرة، كثيفة. وراحوا يطوقونهم بطوق حديدي لا يقهر، وتأكيداً على هذا رعدت مدفعية الاعداء هازة السماء والأرض وأخذت قذائف «الشربنل» تنفجر باستمرار ناثرة شظاياها في أجساد الناس – بينما كوجوخ لم يتحرك من مكانه. فقد أصدر أوامره حسب بالرد عليهم بالمثل. وظهرت في النهار فوق هذه الخنادق وتلك سحابات صغيرة من دخان أبيض، ترتفع في كل دقيقة، ثم تتلاشى رويداً رويداً وأخذ ظلام الليل ينشق، في كل دقيقة، عن فوهة نارية، ولم يعد يسمع خرير النهر.

انصرم نهار، انصرم ليل، والمدافع تدوى متسخنة، بينما ليس من اثر للرتلين المتأخرين. تصرم نهار آخر، وليل آخر، دون ان يظهر الرتلان. بدأت القذائف والرصاصات تقل. أمر كوجوخ بالاقتصاد فى اطلاق النيران. نشط القوزاق عندما رأوا ان القذائف الجوابية اصبحت قليلة ولم يتقدم الحفاة، وظناً منهم انهم قد ضعفوا، وراحوا يعدون لضربة صاعقة.

لم يذق كوجوخ طعم النوم ثلاثة ايام متتالية، غدا وجههُ أصفر مثل الكركم، واصبح يشعر كأن رجليه امتلآ بالرصاص. حل الليل الرابع. راحت اطلاقات المدافع تخترق الظلام بين لحظة واخرى. وكوجوخ يقول:

– سأغفو، لكن فيما اذا حدث شيء. ايقظوني فوراً.

وما ان اغمض جفنيه ، هرعوا اليه :

– ايها الرفيق كوجوخ! ايها الرفيق كوجوخ!.. احوالنا سيئة...

نهض كوجوخ وهو لا يدري اين هو وماذا وقع له . مسح وجهه بيده، مزيلا عنه نسيج عنكبوت، واذهله الصمت فجأة – صمتت المدافع التي ظلت تهدر وترعد ليل نهار، وغرق الظلام بلعلعات

الرصاص حسب. الحال سيئة. يعني انهم اقتربوا جدا. وربما اخترقوا الجبهة. وتناهى اليه خرير النهر.

هرع الى هيئة الاركان ورأى ان وجوه الجميع قد شحبت. انتزع سماعة الهاتف — لقد أفادتهم هنا الهواتف الجورجية.

— انا القائد.

وسمع صوتا خافتا كصأصأة الفأر فى السماعة:

— الرفيق كوجوخ! اعطني الامدادات. لن أقوى على الصمود. القوات مركزة. وحدات الضباط...

يقول كوجوخ في السماعة بصوت حجري:

— لن اعطيك امدادات. ليس عندي. اصمدوا حتى النفس الأخير.

ويأتيه الصوت من هناك:

— لن اقدر. الضربة مكثفة، موجهة على قواتي...

— اقول لكم اصمدوا! ليس عندى رجل احتياطي واحد. سآتيكم الآن بنفسي.

لم يعد كوجوخ يسمع كيف يتواصل خرير النهر. وراحت تتناهى اليه ، عوضا عن ذلك، لعلعات الرصاص في الظلمة، في اليمين وفي اليسار.

أمر كوجوخ... ولم يلحق في ان يكمل كلامه ... أ... أ... أ...!

عبثا ان الوقت ليل، ادرك كوجوخ أن القوزاق اخترقوا ضاربين بسيوفهم ذات اليمين وذات اليسار. وحدة خيالة اخترقت خط الدفاع.

انطلق كوجوخ. اصطدم به القائد الذي تحدث اليه بالهاتف قبل قليل.

— الرفيق كوجوخ...

— لماذا انت هنا؟

— لن اقوى على الصمود اكثر... هناك اختراق.

— كيف تجرأت على ترك وحدتك؟!

— الرفيق كوجوخ، جئت لأطلب منك شخصيا الامدادات.

— خذوه الى التوقيف.

بينما يتعالى في الظلام الحالك صراخ، قرقشة، لعلعات

رصاص. تقدح في الظلمة من وراء العربات، من وراء حزم الحشيش، من وراء عتمة البيوت ومضات نيران المسدسات والبنادق. اين ذوونا؟ اين الاعداء؟ الشيطان نفسه لا يقدر على التمييز... ولعل يطلق المحاربون النار على جماعتهم... أو لعل هذا حلم؟

يتقدم الياور ركضا، فيميز كوجوخ قامته فى الظلمة.

– الرفيق كوجوخ...

صوت مضطرب، – يود الفتى ان يبقى على قيد الحياة. ويسمع الياور فجأة:

– هيا... هل يعني هذا النهاية؟

صوت غير مسموع. صوت كوجوخ غير مسموع ابدا. اطلاقات رصاص، صراخات، أنين، بينما يخطر خاطر خاطف في رأس الياور كشرارة، في حالة هي بين الوعي و اللاوعي، وبقليل من الشماتة: «اجل، وانت ايضا كما الجميع... تحب ان تبقى على قيد الحياة...»

لكن كل هذا يدوم لحظات حسب. ظلام، لا يرى المرء وجه كوجوخ الصارم، لكن يحس بوجوده. ويندلق صوته الحديدى المتكسر من بين أسنانه المطبقة:

– اسرعوا بنقل الرشاش من مقر هيئة الاركان الى موقع الاختراق. اجمعوا كافة العاملين في هيئة الاركان وفى الارتال، وادفعوا القوزاق صوب العربات قدر الامكان. فصيل الخيالة الجناح الايمن!...

– نعم.

اختفى الياور في الظلام. الصيحات والاطلاقات و الانين ووقع الاقدام نفسها. يهب كوجوخ راكضا. تقدح ألسنة من نيران البنادق من اليمين ومن اليسار. لكن على مسافة خمسين ساجينا يطبق ظلام – هناك اخترق القوزاق خط الجبهة، لكن الجنود لم يفروا، بل تراجعوا، انبطح كل منهم في موقع اينما اتفق، وراحوا يردون على النار. وبامكان المرء أن يرى في الظلام اشباح بشرية تركض الى امام وتقترب اكثر فاكثر... تنبطح، ومن هناك تنطلق ألسنة النار، بينما يرمى الجنود على مصادر النيران.

جلبوا رشاش مقر هيئة الاركان، أمر كوجوخ ايقاف اطلاق

النار، والرمى بأوامره حسب. جلس وراء الرشاش، و أحس بنفسه مباشرة كسمكة في الماء. تحيطه في الجانبين لعلعات الرصاص وألسنة النار، ما ان اقلع الجنود عن اطلاق الرصاص هب نسق العدو صارخاً: هورا!.. وراح مقاتلوه يقتربون ويقتربون، وغدا من اليسير تميز بعضهم؛ انهم يسيرون منحنيين، وبنادقهم في أيديهم.

قال كوجوخ:

– سأحصدكم حزمة حزمة!

وراح يدور الرشاش:

تا.. تا تا...

وراحت أشباح الناس السوداء تتهاوى بسرعة وتتداعى. ارتج نسق المقاتلين، وارتد... ركضوا أفراده الى وراء، وراح عددهم يقل. ظلام حالك من جديد. خف اطلاق الرصاص. وغدا خرير النهر المتزايد في الظلام مسموعاً.

وبدأ اطلاق الرصاص والصراخ يخفان أيضاً في أعماق المؤخرة. كان القوزاق غير مسنودين فتشتتوا رويدا، رويدا، تركوا خيولهم، وتسللوا الى تحت العربات والى البيوت المعتمة. ثم اسر حوالي عشرة اشخاص منهم. قطعوا رؤوسهم من حلوقهم التى كانت تفوح منها رائحة فودكا.

وما ان استحال لون الفجر الى الرمادى قليلا، أخذ الفصيل القائد الموقوف الى المقبرة، وعاد بدونه.

ارتفعت الشمس. و أضاءت جثث الموتى المتناثرة بلا حراك. فى سلسلة متكسرة، وكأن الامواج المنحسرة عن الشاطىء قد تركتها هكذا. في بعض الأماكن حيث كان كوجوخ في الليل، كانوا يرقدون أكواماً أكواماً. ارسلوا رسولا مفاوضاً. سمح كوجوخ لهم بجمع الجثث. والا فانها ستتفسخ في الشمس، ناشرة الاوبئة.

جمعوا الجثث. وهدرت المدافع من جديد. وهز رعد متوحش السهب والسماء من جديد، وراح صداه يقلق الصدور والرؤوس.

تتطاير شظايا الرصاص الحديدية فى المجال الازرق. الاحياء يجلسون او يسيرون بأفواه فاغرة – هذا يخفف الضغط عن

الآذان، بينما تنتظر جثث القتلى الملقية بلا حراك نقلها الى المؤخرة.

تنفذ الذخيرة، وتفرغ صناديق القذائف. كوجوخ لا يحرك القوات من مكانها، و بالطبع فهو لا يسمع صوت الطابورين المتأخرين، المتناهي المقترب. فيطلب عقد اجتماع، لأنه لايريد تحمل المسؤولية وحده: البقاء يعني موت الجميع، اما الاختراق فيعني هلاك الرتلين المتأخرين.

الفصل الخامس والثلاثون

ازرق الغسق بعيدا فى المؤخرة، حيث فى السهب المترامى الأطراف عربات وخيول وشيوخ واطفال وجرحى ولغط وضجيج. ازرق الغسق، ازرق الدخان المتصاعد من المواقد، كما فى كل الأمسيات.

لابأس اذا كان هذا الصوت المتناهي بعيدا نحو خمسة عشر فرسخا، في طرف السهب البعيد، بينما الأرض تهتز متثاقلة ههنا بين كل دقيقة واخرى، طيلة النهار تحت الأقدام من الارتعاد البعيد... وها هي الارض تهتز الآن ايضا... اجل، لقد اعتاد الجميع ولم يعودوا ينتبهون لذلك.

يزرق الغسق، يزرق الدخان، تزرق الغابات البعيدة. وبين الغابات والعربات تزرق الحقول الخاوية، المكتنفة بالاسرار.

احاديث. صليل. اصوات الحيوانات. طقطقة السطول. بكاء الاطفال. و مواقد حمراء متوهجة لا حصر لها.

وتناهى في هذا الجو العائلي، في هذا الهدوء الغامض صوت غريب منطلق من الغابات، صوت في منتهى الغرابة.

في البدء تواصل من بعيد: آ... آ... آ...! من هناك، من الغسق المكتنف بالغموض، من سر الغابة: آ... آ... آ...!

بعد ذلك لاح شيء أسود مبتعدا عن الغابة. شبح. ثان. ثالث...

وانتشرت الظلال السوداء وتوحدت على امتداد الغابة، مشكلة شريطا متموجا راح يتدحرج صوب المخيم متناميا، وكما في السابق تدحرج معه، متناميا أيضا، صوت مليىء باشجان مميتة: را... ا... ا...!

التفتت الرؤوس كلها - رؤوس الناس والحيوانات - صوب الغابة المكتنفة غموضا التي كان يتدحرج منها نحو المخيم خط متعرج، تندلع وتنطفىء فيه بلمح البصر ومضات رفيعة حادة.

كانت جميع الرؤوس ملتفتة الى هناك، بينما المواقد تتوهج نارا حمراء.

وسمع الجميع وقع حوافر خيل شديد يهز الأرض حتى باطنها ويخمد أصوات المدافع البعيدة المرتجفة.

...آ... آ... آ...!

وتناهت اصوات يائسة بين العجلات وعرائش المركبات والمواقد تصرخ:

- القوزاق!... القوزاق!.. القو... زا... ق!..

اقلعت الخيول عن المضغ، نصبت آذانها. و انزوت الكلاب اللاجئة من مكان ما تحت العربات.

لم يهرب أحد محاولا النجاة بجلده. كان الجميع يشخص في الغسق المعتم الذي كان يتدحرج فيه تيار عرم أسود.

مزق صراخ امرأة هذا الصمت العظيم الغارق فى وقع حوافر الخيل الخافت. فانتزعت طفلها، الطفل الوحيد الذي تبقى لديها، وضمته بقوة على صدرها و انطلقت للقاء التيار الأسود الجارف والمتقدم بصحبة وقع حوافر الخيل.

- الموت!.. الموت يعدو نحونا!...

وانتشرت هذه الكلمات مثل الوباء على ألسن عشرات الآلاف من الناس:

- الموت!.. الموت!..

تناول كل واحد ما وقع تحت يديه من عصي و باقات الحشيش واقواس خيول وقفاطين و اغصان اشجار، وتناول الجرحى عكازاتهم،

ولوحوا بها، وهم في فزع لا حدود له، في الهواء وهبوا لملاقاة موتهم:

- الموت!... الموت!...

ركض الاطفال ممسكين باذيال اثواب امهاتهم وصرخوا بأصواتهم الناعمة:

- الموت!... الموت!..

شخص القوزاق الرامحون في ظلام الليل المتلاصف، ضاغطين بقبضاتهم على مقابض السيوف التى لا ترحم، صفوف المشاة المتموجة اللاحصر لها، المتقدمة نحوهم مثل بحر هائل، والبنادق المرفوعة التى لا تعد ولا تحصى، والرايات المرفرفة السوداء في العتمة، والعويل الوحشى المتردد، المتواصل: الموت!...

فشدت الاعنة تلقائياً تماماً، بلا أوامر، مثل أوتار، وتوقفت الخيول الراكضة خبباً ملوية اعناقها واقعت على اكفالها. سكت القوزاق ناهضين على الركاب، وارسلوا نظرات حادة صوب الصفوف السوداء المتدحرجة. انهم كانوا يعرفون ديدن هؤلاء العفاريت. سيلتحمون معهم بلا اطلاق رصاص، من ثم يبدأون العراك الشيطاني بالحراب. هكذا كان الأمر منذ ظهورهم من الجبال و حتى الهجمات الليلية حين انشقت الأرض عن العفاريت الذين ظهروا فجأة في الخنادق وادى ذلك الى سقوط الكثير من القوزاق قتلى فى سهبهم الحبيب.

ومن العربات، من وراء المواقد اللاحصر لها، حيث نوى القوزاق مواجهة الحشود المسكينة من الناس العزل من الشيوخ والنساء وبعث الذعر فورا في جميع وحدات الاعداء، كانت تنسكب حشود عسكرية جديدة وجديدة، وغرق الليل المعتم بعويل مرعب:

- الموت!!

حين رأى القوزاق ان ليس لهذه الحشود نهاية ولا حدود استداروا، ساطوا الخيول، فتفرقعت أغصان الأشجار وفروعها تحت حوافرها فى الغابات.

توقفت الصفوف الاولى من النساء والاطفال والجرحى والشيوخ الراكضة، متصببة عرقاً مميتاً: اذ اسودت أمامها الغابات الموحشة الخرساء.

الفصل السادس والثلاثون

لليوم الرابع ترعد المدافع. وأفاد المخبرون ان جنرالا جديداً غادر مايكوب برفقة خيالة ومشاة ومدفعية الى الاعداء. وتقرر في الاجتماع شق الطريق تلك الليلة و مواصلة السير وعدم انتظار الرتلين المتأخرين.

و يصدر كوجوخ امراً. مفاده الكف، مع حلول المساء، بالتدريج، عن أطلاق النار كيما يطمئن الاعداء. واحكام المدافع تماما نحو خنادق الاعداء، وتثبيت التنشين، وايقاف اى اطلاق للنار في الليل. واقتراب الافواج انساق انساق، تحت جنح الظلام، من المرتفعات حيث خنادق الاعداء، لكن بشرط الانبطاح واتخاذ الحيطة والحذر من مرآهم. وعلى ان تتوقف تحركات جميع الوحدات في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين ليلا. في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والاربعين اطلاق عشر قذائف من كل مدفع مصوب بسرعة خاطفة. ويبدأ، مع القذيفة الاخيرة، في الساعة الثانية ليلا الهجوم العام، وعلى الافواج اقتحام الخنادق. فوج الخيالة يبقى فى الاحتياطي لمساندة الوحدات واقتفاء اعقاب الاعداء.

جاءت غيوم سوداء واطئة هائلة وجثمت بلا حراك على صدر السهب. هدأت المدافع وعلى نحو غريب في الجانبين. خرست البنادق، وصار يسمع خرير النهر.

اصاخ كوجوخ السمع لهذا الخرير-سييء! ولا من اطلاقة، بينما لم يتوقف اطلاق النار من البنادق والمدافع في النهر والليالي المنصرمة. ربما ينوى العدو القيام بالمثل، فعندئذ سيلتقى هجومان معاكسان، وستضيع صفة المباغتة، وسينكسران احدهما بالآخر.

– الرفيق كوجوخ...

دخل الياور الغرفة، تبعه جنديان ببندقيتيهما يتوسطهما جندى شاحب قصير مجرد من السلاح.

– ماذا حدث؟

– رسول من العدو يحمل رسالة من الجنرال بوكروفسكي.

غرز كوجوخ عينيه الحادتين الضيقتين في الجندي، بينما تنفس الجندي الصعداء، و مد يده في عبه وراح يفتش.

– لقد وقعت انا في الأسر. اثناء تراجع قواتنا، وقعنا نحن الجنود السبعة في الاسر. لقد عذبوا هؤلاء...

سكت الجندي لحظة: تناهى خرير النهر ولاحت طيات الظلام وراء النوافذ.

– هي ذي الرسالة. الجنرال بوكروفسكي... لقد قذفني بوابل من الشتائم... – وأضاف بحياء: – ولقد شتمك انت ايضا ايها الرفيق. قال، خذ هذه الرسالة واعطها لابن العاهرة هذا.

وتراكضت عينا كوجوخ اللتان تتلاعب فيها شرارات حادة بحيلة في اثر الاسطر المكتوبة بخط يد الجنرال. بوكروفسكي:

«... انت سافل، يا ابن القحبة... لقد وصمت بالعار جميع ضباط الجيش والاسطول البحري الروسيين بانتمائك الى صفوف البلاشفة و اللصوص والصعاليك. اعلم يا قاطع الطريق انه جاءت نهايتك ونهاية اصحابك الحفاة. ليس باستطاعتك التحرك أبعد لأنك محاصر من قبل جيشي وجيش الجنرال هايمن. لقد وقعت يا سافل في قبضتنا الحديدية ولن تفلت منا ابدا. وفيما اذا اردت الرحمة، اقصد النجاة، لقاء جريمتك، فليس أمامك الا من سرايا العقوبات، عندئذ آمرك بتنفيذ أوامري المتضمنة الآتي: تسلم اليوم مباشرة كل ما لديك من اسلحة في محطة بيلوروتشينسكايا اما العصاة فيجب سوقهم، بعد نزع السلاح عنهم، لمسافة اربعةأو خمسة فراسخ غربي المحطة. عندما يتم تنفيذ ذلك اخبرني على كشك سكة الحديد رقم – ٤».

ألقى كوجوخ نظرة على ساعته و اخرى على العتمة في النوافذ. ساعة واحدة وعشرة دقائق. «لهذا السبب اوقف القوزاق اطلاق النار: الجنرال ينتظر الجواب». وكان رسل القادة يصلون واحد تلو آخر، حاملين التقارير: ان جميع الوحدات اقتربت من مواقع العدو مباشرة وانبطحت هناك.

«طيب... طيب...» – كان كوجوخ يقول مع نفسه وينظر صامتاً متحجراً اليهم ومضيقاً عينيه.

تناهى في الظلمة خلف النوافذ، عبر خرير النهر، وقع حوافر

خيل سريع. خفق قلب كوجوخ بشدة: «شيء آخر من جديد... لم يبق الا ربع ساعة...»

وتناهى صوت قفز فارس من على صهوة حصان شاخر.

– الرفيق كوجوخ – قال الفارس الكوباني ماسحاً العرق من وجهه وهو يحاول تملك انفاسه بمشقة – الرتل الثاني يقترب منا!..

واستضاء الليل، ومواقع الاعداء، والجنرال بوكروفسكي ورسالته، وتركيا البعيدةء حيث حصد رشاشه آلاف الناس بنور ساطع، غير طبيعي، يعشى العيون. بينما سلم هو – كوجوخ – بين آلاف الاقدار المحتمة، سلم لكي يقود ويخلص ليس فقط ذويه، بل وآلاف من الناس الميؤوسين منهم الذين يتبعونه والذين قد قضي عليهم بالوقوع في ايادي القوزاق.

انطلق حصانان، يبدوان ادهمين، خبباً وسط الليل دون ان يميزا شيئاً. دخلت صفوف عسكرية سوداء فى الستانيتسا.

وثب كوجوخ من على صهوة حصانه ودخل بيت قوزاقي ثرى مضاء على نحو ساطع.

كان سمولوكوروف واقفا عند الطاولة بقامته الضخمة يرتشف من قدح الشاي دون انحناء. وبدت لحيته السوداء جميلة على بدلته البحرية الجديدة.

– مرحبا يا اخ – قال سمولوكوروف بصوت جهورى ناعم وهو يلقى نظرة الى كوجوخ من عل غير راغب في الاساءة اليه بذلك – هل تريد شاياً؟

اجاب كوجوخ:

– بعد عشر دقائق أشن هجوماً. لقد انبطحت الوحدات جنب الخنادق. المدافع مصوبة. خذ الرتل الثاني الى الجناحين. وسنضمن بذلك النصر.

– لن افعل.

كز كوجوخ اسنانه وقال من خلالها:

– لماذا؟

– لانه لم يصل. – قال سمولوكوروف بغبطة وسرور ونظر باستهزاء من عل على كوجوخ الصغير القامة المرتدي اسمالا بالية.

– الرتل الثاني يدخل فى الستانيتسا. لقد رأيته الآن بأم عيني.

– لن افعل.

– لماذا؟

– لماذا، لماذا؟ امعن فى السؤال! – قال سمولوكوروف بصوت جهوري غليظ وجميل. – لأنهم تعبوا، ولا بد لهم من الراحة. هل انت طفل، لا تفهم؟

تضايقت كل مشاعر كوجوخ مثل نابض مضغوط: فكر مع نفسه: «اذا ما انتصرت، سأحقق هذا الانتصار وحدي...»

وقال بهدوء:

– اذن ضع الاحتياط في المحطة، بينما سآخذ انا احتياطي، وسأدعم به الوحدات المهاجمة.

– لن افعل. كلمتي مقدسة. انت تعرف.

راح سمولوكوروف يتخطى في الغرفة جيئة وذهابا وارتسم على قامته الضخمة، وعلى محياه المغتبط قبل لحظات اصرار وعناد ثور، – فلن يتنازل عن عناده حتى لو هويت بالعرائش على رأسه. كان كوجوخ يدرك هذا، فقال للياور.

– لنذهب.

– دقيقة واحدة.

نهض رئيس هيئة الأركان وقال بلين ورزانة متخطيا صوب سمولوكوروف: – لحظة... من الممكن ارسال الجنود الى المحطة، سيكونون فى الاحتياط.

بينما كان يعني بذلك: «اذا ما هزم القوزاق كوجوخ، فانهم سيذبحوننا».

– وفى كل حال... انا لست ضد... يعني... خذ الوحدات الآتية.

لم يكن بالامكان زحزحة سمولوكوروف فيما اذا اصر على شيء. الا انه كان يتنازل مرتبكا امام الضغط التافه غير المتوقع من طرف ثالث.

ولان وجهه ذو اللحية السوداء واكتسى بامارات الطيب. وطبطب بيده الكبيرة على كتف الرجل الدحداح:

– ماذا يا اخ، كيف الاحوال؟ نحن يا اخ كواسر البحر، فنستطيع هناك ان نفعل كل شيء، اما في البر فلا نفهم شيئا.

وقهقه مكشرا عن اسنانه البيضاء الساطعة وراء شاربيه الاسودين.

– هل تريد شايا؟

– ايها الرفيق كوجوخ – قال رئيس هيئة الاركان بلهجة صديق – سأصدر الآن أمراً ويتحرك الرتل الى المحطة ويصبح احتياطيا لكم.

بينما كان يعني بذلك: «هل رأيت يا اخي، مهما حاولت فلم تتمكن من دون مساعدتنا...»

خرج كوجوخ الى الخيل. ووسط الظلام، قال للياور بصوت خافت:

– ابق هنا. ستذهب برفقة الرتل الى المحطة بعد ذلك سترفع لي تقريراً. انهم قد يخدعوننا.

كان الجنود منبطحين انساق طويلة، ضاغطين صدورهم على الأرض الصلبة، يجثم فوقهم ليل حالك السواد، تغرق في عتمته آلاف من العيون الحادة المتوحشة. الا ان الصمت والسكون يسيطران على خنادق القوزاق. تناهى خرير النهر.

لم يكن الجنود يحملون الساعات، الا أن كل واحد منهم كان يعيش توتراً شديداً. كان الليل ثقيلا، ساكنا، غير ان كلا كان يشعر كيف تصرم هاتان الساعتان بتثاقل وبطء. وسار الزمن مع خرير الماء الجاري بلا انقطاع.

ومع ان الجميع كان ينتظر هذا، انشق الليل على حين فجأة تماما، وفي هذا الانشقاق الناري لاحت غيوم قانية. زمجر ثلاثون مدفعاً بلا انقطاع. بينما لاحت خنادق القوزاق المختفية في الظلمة اطواقا متقطعة ترسمها انفجارات «الشربنل» الساطعة، التى كانت ترسم ايضا بفرقعتها المرددة، خطا متعرجا يسقط فيه الناس صرعى.

«كفاكم!...» فكر القوزاق بعذاب ملتصقين اجسادهم بحيطان الخنادق، منتظرين كل لحظة ان تكف الاطراف الحمراء القانية للسحب السوداء عن السطوع، ويلتحم الليل المتصدع، ويتسنى لهم الارتياح من هذا الدوي المصم. الا ان السطوع القاني نفسه ظل يتواصل،والدوي الهائل نفسه ظل يدوي في الرؤوس، في الصدور، وفي أعماق الأرض. بقى الجرحى المتكورون على انفسهم يئنون تارة هنا وتارة هناك.

وعلى حين فجأة مثل ما انشق الظلام هكذا اطبق أيضا، التحف الصمت، بلمح البصر، الغيوم الساطعة القانية ولعلعات الرصاص المدوية. تنامى على الخنادق جدار من القامات السوداء، وتدحرج على امتداد هذا الجدار عويل آخر: عويل وحشي: حاول القوزاق الخروج من الخنادق ذلك لانهم لم يرغبوا التورط مع العفاريت، لكنهم تأخروا. وأخذت الخنادق تمتلىء بالقتلى، عندئذ تجرأوا واستداروا واصبحوا وجهاً لوجه مع الجنود واخذوا يذبحون بعضهم بعضاً.

اجل، انهم عفاريت: لقد طاردوهم خمسة عشر فرسخا، لكنهم عادوا وقطعوا هذا الفرسخ الخمسة عشر بساعة ونصف.

جمع الجنرال بوكروفسكي بقايا وحدات القوزاق وكتائب المشاة والضباط، وأخذهم منهوكي القوى، لا يقوون على شيء الى يكاتيرينادار، مفسحاً الطريق امام «الحفاة» تماماً.

الفصل السابع والثلاثون

تسير الصفوف متراصفة ملفوحة بالدخان، باذلة اقصى جهودها، ضاربة الارض بأقدامها ضربا مكتوما، موسعة الخطى، يرتفع غبار كثيف من تحت اقدامها. يسير الجنود بوجوه جهمة، تلتمع عيونهم الصغيرة الحادة تحت حواجبهم، دون ان يرفعوا انظارهم عن طرف السهب المقفر الخافق.

تدوي المدافع المتسارعة بتثاقل، تؤرجح الخيول رؤوسها على مهل بين اعمدة الغبار المرتفع... ويغرز رماة المدافع عيونهم في الافق البعيد الضارب الى الزرقة.

تواصل العربات سيرها بضجيج هادر دون ان ينقطع دقيقة واحدة. تسير امهات وحيدات بالقرب من عربات الآخرين. يرتفع الغبار في الطريق من تحت اقدامهن. تلتمع على الوجوه المعذبة عيون جافة غير قادرة على البكاء من شدة احزانها، وهي لا ترفع انظارها ايضاً عن نفس السهب القصي الضارب الى الزرقة.

يسير الجرحى ماخوذين بسرعة الآخرين. بعضهم يقزل على رجله المعصوبة بخرقة متسخة. وبعضهم يرفع كتفيه عاليا ويخطو بعكازيه خطوات واسعة. وبعض ثالث يتشبث مضنيا بطرف عربة بيدين متخشبتين، الا ان الجميع لا يرفعون انظارهم عن الافق الضارب الى الزرقة.

عشرات الآلاف من العيون الملتهبة ترنو الى امام بتوتر: هناك تكمن السعادة. ثمة، نهاية الآلام والاتعاب.

تصطلي الشمس الكوبانية العزيزة.

لا تسمع الاغاني ولا اصوات الناس، ولا غناء الحاكي. ويتدفق كل شيء: الصرير المتواصل في خضم سحب الغبار المتصاعدة بتسارع، ووقع حوافر الخيل الخافت، ووقع اقدام الصفوف الثقيل، واسراب الذباب المتململة، يتدفق كل هذا بسيل سريع امتد لعشرات الفراسخ صوب الافق المغرى الضارب الى الزرقة. وها هذا الافق يوشك على الانفتاح، ويخفق القلب خفقانا مغتبطاً: ذوونا!

لكنهم مهما ساروا، مهما اجتازوا الستانيتسات والقرى ابتعد الافق الازرق اكثر، وبقى غامضا ومستحيل المنال دائما. ومهما اجتازوا الاماكن يتلقون الاجابة نفسها:

- كانوا هنا، لكنهم رحلوا. لقد كانوا بالامس الاول، غير انهم سارعوا في الرحيل، تململوا، نهضوا، وغادروا جميعاً.

اجل، كانوا. هذه هي مرابط خيولهم. ويتناثر الحشيش فى كل مكان. وكذا روث الخيل. اما الآن فان مكانهم مقفر.

ها هنا كانت تربض مدفعية، وهذا رماد بقايا المواقد، وهي ذي الآثار الثقيلة لعجلات المدفعية تستدير نحو الطريق الرئيسية.

تلوح اشجار الحور المخروطية القديمة على امتداد الطريق مجروحة بيضاء. وهذا يعني ان محاور العربات قد خدشتها.

كل شيء يؤكد انهم كانوا هنا قبل فترة قريبة، كانوا هنا هؤلاء

الذين ساروا من اجلهم تحت رشقات المدرعة الالمانية، قاتلوا من اجلهم الجورجيين، الذين من اجلهم تركوا اطفالهم فى الشعاب، هؤلاء الذين دخلوا معارك ضارية من اجلهم ضد القوزاق، الا ان الافق الازرق يبتعد ويبتعد ساكنا. يتناهى كالسابق وقع حوافر الخيل المتسارع، وصرير العربات المتسارع، وطنين اسراب الذباب المتلاحقة المتسارعة، وهدير الخطوات غير المنقطع. وبالكاد يلحق الغبار ان يتكوم غيوما فوق سيول آلاف الناس، وكالسابق تنهض الآمال في عشرات الآلاف من العيون المصوبة في طرف السهب.

يسير كوجوخ الواهن، بجلد محترق، متجهما، فى العربة، ولا يرفع عينيه الضيقتين الرماديتين عن الافق البعيد كما الجميع. وهذا الافق بالنسبة له مبهم وغامض. يسير كازاً على اسنانه بشدة.

وهكذا تمضي ستانيتسات بعد ستانيتسات والقرى بعد قرى والايام بعد أيام مرهقة في الذاكرة.

تستقبلهم القوزاقيات ساجدات امامهم وفى نظراتهن الحنونة حقد دفين. وعندما يغادرون ينظرن في اثرهم بدهشة، لانهم لم يقتلوا احدا، لم يسلبوا احداً، مع انهم وحوش ضارية.

تقدم التقارير لكوجوخ اثناء المبيت: فى الامام وحدات قوزاقية تفتح الطريق لنا سامحة بالعبور بلا اطلاق نار. وليس ثمة من اغارة واحدة على الارتال لا في النهار ولا في الليل، بينما تلتئم القوات القوزاقية فى المؤخرة من جديد دون ان تمس احداً بأذى.

— طيب!... لقد لقناهم درساً... — يقول كوجوخ ملاعبا مضائغه.

ويصدر الأوامر:

— ارسلوا فرسانا الى جميع القوافل، الى جميع الوحدات وامنعوا اى توقف. لا تسمحوا لأحد بالتوقف. السير وثم السير. على ان لا يزيد وقت المبيت عن ثلاث ساعات..

ومن جديد تصر العربات متوترة وتشد الخيول المرهقة الى جرارات العربات المصنوعة من الحبال، وتقرقع المدافع بسرعة متثاقلة. ويتصاعد في سهوب كوبان هدير غير متقطع اثناء النهار الأغبر المصطلي بشمس الظهيرة، واثناء الليالي السوداء ذات النجوم المتناثرة، وفي الاصباح الباكرة قبل استيقاظ الشمس.

يخبرون كوجوخ:
– الخيول تسقط. ثمة متأخرون في الوحدات.
ويقول كوجوخ من بين اسنانه:
– اتركوا العربات. ضعوا الامتعة في العربات الاخرى. اعتنوا بالمتأخرين اجمعوهم. وسعوا الخطى. سيروا وثم سيروا!

عشرات الآف من العيون لا ترفع انظارها دائما عن الافق البعيد، الذي يطبق على السهب المصفر بقساوة بعد الحصاد. وتقول القوزاقيات فى الستانيتسات وفي القرى بلطف مخفيات حقدهن:
– كانوا هنا لكنهم رحلوا، كانوا بالامس.

يرسلون انظارهم بضيق، الآثار نفسها: مواقد خابية، حشيش متناثر، روث.

وفجأة تسلل كلام بين النساء والاطفال والعربات والوحدات جميعها:
– يفجرون الجسور... يغادرون ويفجرون وراءهم الجسور...

وتهمس غاربينا التى عشش الرعب فى عينيها بشفتين متيبستين:
– يهدمون الجسور... يغادرون ويهدمون الجسور وراءهم.

ويقول الجنود الذين يمسكون البنادق باياديهم المتخشبة باصوات خافتة:
– يفجرون الجسور... يبتعدون عنا ويفجرون الجسور...

وحين يصل رأس الطابور نهرا او ساقية او جرفاً او مستنقعا يرى الجميع: قناطر مهدمة، وأعمدة منتصبة، مفلوقة، سوداء. تنقطع الطريق، وينقطع معها الأمل.

بينما يصدر كوجوخ اوامره مقطبا جبينه:
– اصلحوا الجسور، دبروا المعابر. شكلوا فريقاً خاصاً من النجارين المهرة. و ارسلوه الى مقدمة الطابور. اجمعوا من السكان جذوع الاشجار، وألواح الخشب. و العوارض الخشبية، وانقلوها الى المقدمة أيضاً!

هوت الفؤوس. وتطايرت شظايا الخشب البيضاء، متلألئة في الشمس. ومن جديد تدفقت فوق جسر مترنح، تصر ألواحه، آلاف

مؤلفة من حشود الناس، وقوافل طويلة، ومدافع ثقيلة، وخيول تشخر بحذر وتسرق النظر فى الجانبين الى الماء بذعر.

يتدفق سيل الناس بلا انقطاع. وجميع العيون مصوبة دائما الى هناك، حيث الافق الذي لا يبلغ يفصل بين السهب والسماء.

يجمع كوجوخ القادة ويقول لهم بهدوء محركا مضائغه:

– ان ذوينا يبتعدون عنا، ايها الرفاق، بكل ما اوتى لهم من قوة...

ويأتيه جواب مشؤوم:

– نحن لا نفقه شيئا.

– يغادرون مهدمين الجسور. لن نصمد طويلا على الحال. تنفق الخيول بالعشرات. ويضنى الناس من الارهاق، ويتأخرون عن الركب وهذا يعني انهم سيقعون بيد القوزاق ويقتلون. وطالما لقناهم درساً فان القوزاق يخافون، ويفسحون لنا الطريق، ويأخذ الجنرالات وحداتهم كلها من طريقنا. لكن الامر سيان. فنحن فى طوق حديدى، واذا ما استمرت الحال على هذا المنوال فان هذا الطوق سيخنقنا. ذخيرتنا قليلة. من الضروري الخروج من هذا الطوق.

حدق كوجوخ بعينين حادتين ضيقتين. لاذ الجميع بالصمت.

حينئذ قال كوجوخ متمهلا مطلقا الكلمات من بين اسنانه:

– من الضروري الخروج من هذا الطوق. لكن فيما اذا ارسلنا وحدة خيالة، فان خيولنا سيئة لن تتحمل العدو وسيقطع القوزاق اجساد الجميع. عندئذ يتشجع القوزاق ويهجمون علينا من جميع الجهات، من الضروري القيام بخطوة اخرى. من الضروري اختراق الطوق وارسال الاخبار بذلك.

لاذ الجميع بالصمت من جديد. قال كوجوخ:

– من يرغب فى الخروج؟

نهض شاب.

– ايها الرفيق سيليفانوف، خذ جنديين وسيارة، واسرع في الذهاب. اخرج من الطوق مهما كلفك الثمن. اخبر ذوينا باننا هنا. فلماذا يبتعدون عنا؟ هل يريدوننا أن نهلك؟

بعد ساعة توقفت سيارة امام البيت المسكوب باشعة الشمس المنحنية، الذي فيه مقر هيئة الاركان. كان رشاشان يطلان منها:

أحدهما في الامام و الآخر في الخلف، كان السائق الذي يرتدي قميصا عسكريا دهينا يحوم مجتهدا وصامتا حول السيارة مكملا تفتيشها، دون ان يرمي السيكارة من بين شفتيه، وكانت وجوه سيليفانوف والجنديين شابة لا ابالية، بينما كان يختفى قلق عميق فى عيونهم.

فرقعت السيارة وانطلقت محدثة غباراً، وراحت تتلاشى امام الانظار رويداً رويداً الى ان تحولت الى نقطة واختفت كلياً.

وتدفقت الحشود، والعربات، والخيول، اللاحصر لها سائرة مكفهرة بلا توقف دون ان تعرف شيئا من امر السيارة، محدقة في الافق الازرق البعيد تارة بأمل واخرى بيأس.

الفصل الثامن والثلاثون

تعوى عاصفة مندفعة بسرعة لملاقاتهم. تنحرف البيوت واشجار الحور النامية على امتداد الطريق، والاسيجة الخشبية، والكنائس النائية، وتتطاير متداعية بلمح البصر. ولا يلحق الناس والخيول والمواشي في الشوارع والسهوب والستانيتسات والطرق ان يعبروا عن ذعرهم، بينما لم يعد من أحد غير الغبار الذي أخذ يعوم في الطريق والاوراق المقطوعة من الأشجار والتبن المرفوع بالريح.

تهز القوزاقيات رؤوسهن:

– ربما تخبل، من عساه يكون؟

تسمح الدوريات و الوحدات القوزاقية بعبور السيارة المنطلقة باقصى سرعة معتبرة اياها في اللحظة الاولى لا تعود الا لذويها. فمن يتجرأ ان يسير هكذا فى اعماقهم! في بعض المرات تنتبه وتطلق رصاصة او رصاصتين في اثرها، لكن كيف لها ان تصيبها! فتخترق السيارة الرياح وتختفى في البعد.

وهكذا تقطع السيارة فرسخا بعد فرسخ بدوى وصفير. فيما اذا انفجرت عجلة من العجلات او تعطلت السيارة هلكوا. يحدق رشاشان بتوتر في الامام وفي الخلف، و تراقب اربعة ازواج من العيون بحذر شديد الطريق التي تلتهمها عجلات السيارة.

انطلقت السيارة طويلا في قعقعة مازجة انفاسا مجنونة بعويل رفيع. كان الأمر مرعبا جدا عندما كانوا يبلغون الانهر ولايجدون فوق سطح الماء الا اسنان الاعمدة المتكسرة.

عندئذ كانوا ييممون جانبا، ويستديرون بانعطاف كبير ويصادفون في مكان ما قنطرة مؤقتة صنعها السكان المحليون من الجذوع.

عند المساء لاح في البعد برج اجراس ستانيتسا كبيرة ضارب الى البياض، وسرعان ما ظهرت البساتين وأشجار الحور وركضت بيوت بيضاء للقائهم:

أخذ جندي يزعق فجأة مديرا وجهه الذي كان يتعذر تميزه:

– ذوونا!

– اين؟ اين؟! يا للعجب!...

الا ان الصوت ارتفع بحيث لم يستطع عويل السيارة المنطلقة بسرعة ان يقضي عليه:

– ذوونا! ذوونا! هاهم!...

نهض سيليفانوف من مقعده حانقاً كيما لا يعاني من خيبة امل، وصرخ:

– هورا!!!!

كانت دورية كثيرة الافراد تتقدم للقائهم تشع النجوم الحمراء الخماسية على قبعاتهم مثل ورود شقائق النعمان.

وفي اللحظة نفسها رن قرب الآذان طنين أليف، رفيع، ثم تكرر عدة مرات، وكأنه طنين البعوض المتباعد. وتناهت من البساتين الخضراء، ومن وراء الاسيجة والبيوت لعلعات رصاص البنادق.

خفق قلب سيليفانوف: «قد نهلك على يد ذوينا..» وصرخ بصوت صبياني رفيع، متقطع، ملوحا بسدارته بيأس:

– ذووكم!.. ذووكم!!

غريب الاطوار... وكأن يمكن سماع شيء في مثل هذه العاصفة المنطلقة فيها السيارة. لقد ادرك نفسه هذا الأمر وتشبث بكتفي السائق:

– قف، قف!..

اخفى الجنديان رأسيهما وراء الرشاشين. كبح السائق الذي

ضمر وجهه على نحو مذهل في تلك اللحظات القصيرة فرامل السيارة التي التحفت فجأة بالدخان والغبار، واندفعت أجساد الجميع نحو الأمام، واخترقت تخشيبة السيارة رصاصتان.

– ذووكم، ذووكم!... – صرخت الحناجر الأربع.

استمرت الاطلاقات. ركض افراد الدورية نازعين بنادقهم القصيرة من على أكتافهم، محولين الخيول عن الطريق جانباً، كيما يسهلوا اطلاق النار من البساتين، وراحوا هم ايضا يطلقون النار اثناء عدوهم.

– سيقتلوننا... – قال السائق بشفتين متخشبتين مبتعدا عن المقود، وقد اوقف السيارة تماما.

هبوا اليهم بسرعة. وصوبت عشرات أفواه البنادق نحوهم عن كثب. وثب بعض الفرسان بوجوه مليئة بالرعب من خيولهم وراحوا يطلقون شتائم فوق العادة:

– ابتعدوا عن الرشاشين... ارفعوا اياديكم الى أعلى!.. اخرجوا!

وراح البعض الآخر يقفز من على صهوات الخيول ويصرخ بوجوه شاحبة.

– اقتلوهم! لماذا تنظر هكذا... انهم ضباط، اولاد الفاعلة!

ولمعت السيوف المستلة من أغمادها.

«سيقتلوننا...»

خرج سيليفانوف والجنديان و السائق من السيارة بلمح البصر. لكن ما ان وجدوا انفسهم بين ابواز الخيول المضطربة، بين السيوف المستلة، و البنادق المصوبة، هان عليهم الأمر مباشرة – اذ انهم انفصلوا عن الرشاشين اللذين يثيران غضب هؤلاء الرجال.

حينئذ امطروا عليهم وابلا من الشتائم ايضا.

– تخبلتم... انقلبت عيونكم على قفاكم. لم تلقوا نظرة الى وثائقنا. كان يمكن ان تقتلونا، الامر الذي يستحيل اصلاحه... يا أولاد القحبة!

همد حماس الفرسان:

– ومن عساكم تكونون؟

– من!.. اسأل في الاول، ومن ثم اطلق النار. خذونا الى مقر هيئة الأركان.

– كيف لا... – قال اولئك الممتطين صهوات خيولهم شاعرين بالذنب – فى الاسبوع الماضي اخترقت جبهتنا سيارة مدرعة وراحت تطلق النار. هل تدرى اي ذعر احدثت! اركبوا.

ركبوا السيارة من جديد. ركب معهم اثنان من الفرسان، واحاط بهم الآخرون بحرص حاملين البنادق.

– لا تسوقوا السيارة يا رفاق باقصى سرعتها، والا فنحن لن نفلح فى اللحاق بكم، ان خيولنا دهماء.

ساروا حتى البساتين، يمموا شطر الشوارع. كان الجنود الذين يصادفونهم يتوقفون مطلقين شتائم بذيئة:

– اقتلوا، هؤلاء الملعونين! الى اين تأخذونهم؟

تطاولت ظلال المساء الدافئة منحنية. تناهت من مكان ما اغان يؤديها سكارى. وانفرجت الأشجار في الطريق عن بيوت القوزاق المهدمة، محطمة الشبابيك. كانت تفوح رائحة عفنة من حصان ميت متروك في مكانه. وكان الحشيش يتناثر في كل مكان من الشوارع بلا اي داع. وراء الاسيجة تقف اشجار الفاكهة عارية مقطوعة الفروع. ولم يجدوا في شوارع الستانيتسا وافنية دورها، مهما تجولوا فيها، دجاجة واحدة او خنزيرا.

توقفوا عند مقر هيئة الاركان، الذي كان يحتل بيتا كبيراً لقسيس. كان ثمة سكرانان يشخران عند احراش القراص الكثيفة. وكان الجنود قرب المدافع، فى الساحة يلعبون لعبة مسلية.

اندفعوا حشدا نحو قائد الفصيل.

تحدث سيليفانوف يتملكه الاضطراب من السعادة، من المعاناة، عن الرحلة، عن المعارك مع الجورجيين، مع القوزاق، دون ان يلحق الحديث عن كل شيء متنقلا من موضوع الى موضوع:

– ... الامهات... الاطفال في الجروف... العربات في الشعاب... حتى آخر رصاصة... صفر اليدين...

وتلعثم فجأة! امسك القائد حنكه الاهلب وشاربيه بيده، وجلس منحنيا دون ان يقاطعه او يرفع عينيه الغريبتين عنه.

كان القادة وجميعهم من الشباب الملفوحين بالشمس، بعضهم يقف وبعضهم يجلس، بلا ابتسامات بوجوه متحجرة، يصيخون السمع باستغراب.

قطع سيليفانوف حديثه بحدة شاعرا كيف تحتقن رقبته وقفاه واذناه، وقال فجأة بصوت اجش:

– وها هي وثائقي – ومد له اوراقا.

وازاح القائد الاوراق دون أن ينظر اليها الى مساعده الذي أخذ ينظر اليها مضطرا وبدون رغبة. وقال القائد على حدة دون ان يرفع عنه عينيه:

– لدينا معلومات مغايرة تماما.

– اسمحوا لي – و احتقن وجه سيليفانوف وجبينه بالدم – هل انتم تعتبروننا... تعتبروننا...

– لدينا معلومات مغايرة تماما – قال القائد بهدوء وأصرار، وهو ما يزال يمسك بيده حنكه وشاربيه الطويلين، دون ان يسمح بأن يقاطعه سيليفانوف، ودون ان يرفع عينيه عنه – لدينا معلومات موثوقة: لقد قتل جميع افراد الجيش المنطلق من شبه جزيرة تامان على شاطئ البحر الاسود، قتل الجميع حتى آخر جندي.

ساد الصمت في الغرفة. تناهت شتائم بذيئة وأصوات جنود ثملة عبر النوافذ المفتوحة من وراء الكنيسة.

«لقد حل الفساد بينهم...» – فكر سيليفانوف بارتياح غريب.

– اعذرنا ... أليست تكفيكم الوثائق... ما هذا الاصرار: لقد بذلنا أقصى الجهود ووصلنا ذوينا بعد نضال شاق جدا بينما نلاقي هنا...

– نيكيتا – صاح القائد بهدوء دائما رافعا يده عن حنكه، ونهض معدلا قامته الطويلة وشاربيه الطويلين المتدليين الى الجانبين.

– ماذا؟

– اعثر على الأمر.

نبش المساعد في حقيبته، واخرج ورقة ومدها الى الآمر.

وضع القائد الورقة على الطاولة وراح يقرأ منحنيا، من عل. و كأن بقراءته تلك كان يؤكد بلا حرص على حتمية رأيه هو ورأي جميع الحاضرين.

قرار الآمر رقم ٧٣

تم التقاط برقية لاسلكية من الجنرال بوكروفسكي الى الجنرال دينيكين. تقول البرقية ان قوما رحلا من الحفاة لا يعد عدد افراده ولا يحصى يسير قادما من البحر، من جهة توابسته. وان هذا القوم الرحل يتكون من الاسرى الروس العائدين من المانيا، والبحارة. وانهم مسلحون أحسن تسليح، ولهم عدد كبير من المدافع والذخيرة، ويحملون معهم كميات كبيرة من المجوهرات المنهوبة. ان هؤلاء الخنازير المدججين بالسلاح يقتلون كل من يصادفهم في الطريق ويزيحون كل شيء عن سبيلهم: افضل وحدات الضباط والقوزاق، والكاديت والمناشفة والبلاشفة.

حجب الرجل الطويل الورقة بيده مستندا على الطاولة، ونظر بألحاح الى سيليفانوف مكرراً بدقة:

— والبلاشفة.

ثم رفع كفه وراح يواصل القراءة واقفا كالسابق:

استنادا الى ذلك آمر: مواصلة التراجع بلا توقف. وتهديم الجسور وراءكم، وتحطيم كل وسائل العبور، ونقل القوارب الى طرفنا واحراقها جميعا. رؤساء الوحدات يتحملون مسؤولية تنظيم التراجع.

وشخص من جديد بالحاح في وجه سيليفانوف وقال دون ان يمهله الكلام:

— هكذا، ايها الرفيق، انا لا اريد ان اشك فيك ابدا، لكن ضع نفسك في محلنا. نحن نلتقي لأول مرة... لكن المعلومات تتجمع كما ترى بنفسك... ليس لنا الحق... لاننا كلفنا بقيادة الناس، والا أصبحنا مجرمين...

– لكن هناك ينتظرون! – قال سيليفانوف بيأس.
– انني افهمك... افهمك، لا تقلق. لنذهب ونأكل لقمة. تريد شاياً؟ ربما انت جوعان، واصدقاؤك أيضا...
«يريد استجوابنا على انفراد...» فكر سيليفانوف، وشعر فجأة انه بحاجة ماسة الى النوم.
وضعت قوزاقية جميلة رزينة على الطاولة العارية صحناً حاراً مليئاً بحساء لحم و كرنب دهين لم يكن يفوح منه البخار، و انحنت:
– كلوا يا اعزائي.
– كلي في الاول انت يا خبيثة.
– لا يجوز يا ابتي!
– هيا، هيا!
رسمت اشارة الصليب، اخذت ملعقة، وغرفتها في الحساء الذي تصاعد منه البخار على حين فجأة، نفخت الملعقة، وراحت تأكل بحذر:
– كلي أكثر!.. أي موضة تعلموا: لقد سمموا عدة اشخاص من ذوينا، الوحوش! قدموا خمرا!..
بعد الغداء اتفقوا على الآتي: يعود سيليفانوف بالسيارة، بصحبة فصيل من الخيالة للتأكد من المعلومات.
تسير السيارة بتماسك، تبتعد نفس الستانيتسات والقرى كالسابق لكن بترتيب معاكس. يجلس سيليفانوف مع فارسين قطبا وجهيهما وشهرا مسدسيهما، بينما تتراقص حواليهم، من جميع الجهات، ارداف الجنود على السروج الواسعة بتثاقل، تارة دفعة واحدة وتارة اخرى على انفراد، وتعدو تحتها الخيول ملاعبة بحوافرها.
تفرقع السيارة بتماسك، وتركض معها بتمهل سحابات الغبار.
ينمحي التوتر قليلا من وجهي الفارسين الجالسين في السيارة ويبدآن بقص حكاية حزينة الى سيليفانوف في الدوي المتماسك للسيارة الراكضة على مهل. ضعف كل شيء، تململوا، ولم يعودوا ينفذون الاوامر الحربية، بل راحوا يفرون امام تجمعات قوزاقية صغيرة. ويهرع الجنود من الوحدات المرابطة مجموعات الى حيث لا يدرى أحد.

يطأطئ سيليفانوف رأسه.
«سنهلك اذا ما صادفنا القوزاق...»!.

الفصل التاسع والثلاثون

السماء بلا نجوم اطلاقا، ولذا فقد التهم الليل المخملي الحالك كل شيء. فغرقت الاسيجة والشوارع وهامات الحور المخروطية والبيوت والبساتين في الظلام. وتناثرت الشرارات شبيهة بدبابيس.

يحس المرء وسط ظلام الليل الوديع بوجود حشد مترامي وحيوي من الناس وهؤلاء الناس ليسوا نياماً. تارة تطقطق انسطول المرتطمة ببعضها، وتارة تطبطب الخيول المتخاصمة عاضة بعضها بعضاً، او يتناهى: «بررر..!. قفوا، الشياطين!..» وتارة ثالثة صوت ام يهدهد بصورة رتيبة بنوتتين: آ.. آ.. يو..! آ.. آيو...

تصدح طلقة بعيدة، لكن السامع يعرف انها قادمة من طرف ذويه. و أحيانا اخرى يتعالى ضجيج وأصوات صاخبة: اما يتشاجر اصحابها او يلتقون اعزاء لهم. تختفى كل الاصوات، ويخيم الظلام وحده من جديد.

— آخر ايامي... — يغني احدهم ناعساً مبتسماً بتعب.

لماذا لا ينام الناس؟

وتتواصل خشخشة الرمل وقرقعة العجلات، اما من مكان بعيد او من تحت النوافذ.

— هه، الى اين انت ذاهب؟ ها هم ذوونا اين اقاموا.

الظلام مخملي دامس.

عجبا، ألم يتعبوا؟ هل اقلعوا عن ارسال نظراتهم بثبات، ليل نهار في الافق البعيد؟

وكأن هذا الليل المخملي من شهر ايلول، وهذه الاسيجة غير المرئية، ورائحة الروث اليابس، هي عزيزة وحبيبة، وأليفة حصلوا عليها بعد انتظار طويل.

سيتم غدا، خلف الستانيتسا، اللقاء الاخوي مع القوات الرئيسة. ولهذا فان الليل يمتلىء بهذه الحركة، ووقع حوافر

الخيل، والأصوات، والحفيف، وقرقعة العجلات، والابتسامات - الابتسامات الناعسة.

يستلقي شريط الضوء الصادر من الباب المفتوح قليلا على الأرض، ويتكسر على الاسيجة ويمتد طويلا فى الحاكورة المداسة بالأقدام.

بينما يغلي السماوار في بيت قوزاقي. الجدران بيضاء. الصحون على الطاولة، وكذلك الخبز الابيض. السفرة نظيفة.

يجلس كوجوخ مرتديا قميصا بلا حزام على الدكة: صدره المشعر ظاهر. وقد احنى كتفيه، دلى يديه، طأطأ رأسه. هكذا يعود الفلاح من الحقل بعد تعب نهار كامل من العمل.

يجلس اخوه الى جانبه، مجردا من السلاح ايضا. نزع جزمته بلا اهتمام، وراح يشخص نظره في الجزمة المتهرئة تماما. ترفع زوجة كوجوخ بحركة بيتية غطاء السماوار، ينطلق بخار مندفع. تسحب منديلا ثقيلا حاراً يرتفع منه البخار، تنتقي البيض، تضعه في صحن. تتعتم الايقونات في الزاوية. الهدوء يعم القسم الذي يعيش فيه صاحب البيت.

- تفضلوا!

وفجأة كأن صوتا حادا صدح. تلفتوا ثلاثتهم: ولاحت في شريط الضوء قبعة ذات شرائط معروفة، فثانية، فثالثة. شتائم بذيئة. طقطقت أخامص البنادق.

صاح ألكسي دون ان يضيع لحظة (آخ، اين وضعت مسدسي!):

- هيا اتبعني!

وخار كالثور. وقعت ضربة اخمص البندقية على كتفه. ترنح، لكنه تمكن من الوقوف على قدميه، وقرقعت قصبة انف تحت قبضته المسبوكة. وسقط شخص ما بأنين وشتائم حانقة.

قفز ألكسي فوقه:

- اتبعني!!

انطلق من الضوء وغاص دفعة واحدة في الظلام وركض مسرعا متوثباً في الأحواض كاسراً سيقان عباد الشمس العالية.

وهوت على كوجوخ المندفع وراءه أخامص البنادق. وقع خلف السياج، بينما احاطته أصوات بحارة ملفوحة.

– هو ذا!.. اضربوه!..

وتعالى صراخ مستميت من الخلف مستغيثا.

– النجدة!..

ضاعف كوجوخ قواه وخرج، وهو يتلقى ضربات، من شريط الضوء الى الظلام فوثب وانطلق في اثر اخيه مستعينا بوقع أقدامه. بينما كان يتواصل خلفه وقع اقدام ثقيل ويتناهى، من خلال لهاث، صوت يقول:

– لا تطلقوا النار، والا سيهرعون لمساعدتهما... اضربوا باخامص البنادق حسب!.. هو ذا الحقه!..

وارتفع السياج احلك من الظلام. تفرقعت الألواح. وقفز ألكسي من فوقه. وقفز كوجوخ بمرونة مثل غلام، وسقط كلاهما في خبصة من الصياحات والضربات والمسبات والأخامص والحراب: كان ثمة ناس ينتظرون في الجهة الاخرى.

– اقتل الضباط!... مزقهم بالحراب!...

– وقعوا في الفخ، السفلة!.. اطعنهم مباشرة...

– لا بد من أخذهم الى مقر هيئة الاركان بسرعة للاستجواب... سنريهم نجوم الظهر...

– اقتلوهم مباشرة!..

– الى مقر هيئة الاركان! الى المقر!

وضاع صوتا ألكسي وكوجوخ في دوامة صاخبة وتعذر عليهما سماع نفسيهما في هذه الكومة الهادرة الغاضبة.

وساقوهما مصحوبين بصياحات وصخب وأحاديث، وشتائم بذيئة، محتشدين، متضايقين على بعضهم البعض.

«وهل يعقل انني قد نجوت!؟» وطرق هذا السؤال رأس كوجوخ بألحاح: ودون ان يرفع عينيه عن الضوء المنسكب من نوافذ بناء كبير ذي طابقين جعل الآن مقر هيئة اركان.

دخلوا مجال الضوء فغر الجميع افواههم وبحلقوا اعينهم.

– شوفوا، هذا قائدنا!!!

بينما قال كوجوخ بصوت هادىء ملاعبا مضائغه:

– ماذا، هل تخبلتم؟

– يعني... وكيف حدث ذلك؟! هذا من عمل البحارة! جاءوا

و قالوا: لقد اكتشفنا ضابطين سابقين. انهما من اعوان القوزاق، كانا يريدان قتل كوجوخ. ينبغي القاء القبض عليهما. بينما سنطردهما نحن، أحرسوا انتم وراء السياج وما ان سيقفزان اطعنوهما بالحراب في مؤخرتييهما. ولا داعي لسوقهما الى المقر. ثمة خونة سيطلقون سراحهما. اقتلوهما خفية، وكان الله في عون المؤمنين. فوثقنا بهم، علاوة على ان الظلام كان دامساً...

عندئذ اجاب كوجوخ هادئا:

– القوا القبض على البحارة.

انطلق الجنود بسرعة جنونية في جهات مختلفة وتواصل صوت هادىء في الظلام:

– فروا... ليسوا اغبياء لكي ينتظروا حتفهم.

قال كوجوخ لأخيه ماسحا الدم من وجهه المرضوض:

– هيا معي لشرب الشاي... ضعوا حراسة.

– سمعا و طاعة.

الفصل الاربعون

الشمس فى القفقاس حارة على العموم، حتى في الخريف. والهواء حسب في السهوب شفاف. ولا تجد الزرقة الا في السهوب. اذ يسطع نسيج العنكبوت بوداعة، وتقف أشجار الحور صامتة، وقد بدأت اوراقها بالتساقط، واصفرت البساتين قليلا. ويلوح برج النواقيس أبيض.

يقف بحر مترامي الاطراف من الناس في السهب خلف البساتين، كما كان الأمر ابان بدء المسير، الا ان ثمة شيئاً جديداً يعوم فوق رؤوسهم، ارتال عربات النازحين اللا حصر لها نفسها، لكن لماذا لا تنمحي مسحة الثقة المنطبعة على قسماتهم، كأنها وهج منعكس لنار متراقصة على الوجوه؟

قامات الجنود التي لاتعد ولا تحصى المسربلة باسمال بالية، العارية، حافية الاقدام نفسها، لكن لماذا اصطفوا صفوفا مستقيمة طويلة، وكأن وجوههم الغائرة قدت من معدن اسود. وتلوح الحراب المكفهرة متراصفة كقامات الراقصين.

ولماذا تقف فى الطرف المقابل، وجها لوجه ، صفوف طويلة مثيلة لها، من قامات الجنود مكتسية ومحتذية، الا ان حرابهم كانت تتأرجح كيفما اتفق، واكتست وجوههم بالحيرة والقلق والانتظار النافد الصبر.

كما في مثل ذلك اليوم، الغبار كثيف لكنه مترسب، بسبب رطوبة الجو الخريفية، وغدا السهل صافيا بمنتهى الصفاء، واصبحت تلاحظ على نحو تام كل الملامح على الوجوه.

عندئذ، لاح وسط البحر البشرى الهائج تل اخضر وظهرت عليه طواحين الهواء ضارب لونها الى السواد. اما الآن، فيرى المرء، وسط هذا البحر من الناس، أرض فضاء حسب، تقف فيها عربة قاتمة اللون.

الا ان في ذلك الحين كان هذا البحر من الناس هائجا ينسكب في ارجاء السهب، بينما الآن سكن، وهدأت مياهه محصورة بين شواطىء معدنية.

كان الجميع يقف منتظراً. تصدح الحان الموسيقى المهيبة فوق هذه الحشود الهائلة في عنان السماء الزرقاء، في زرقة السهوب، وفي القيظ الأصفر.

ظهرت مجموعة من الناس. وعرف اولئك الذين كانوا يقفون في الصفوف بوجوه صارمة قادتهم، بين افراد هذه المجموعة المتقدمة نحوهم. وكانت اجساد هؤلاء القادة نحيفة ووجوههم سوداء كما الجنود. وعرف ايضا اولئك الذين كانوا يقفون في الصفوف في الطرف المقابل قادتهم مكتسين ووجوههم الملفوحة تنم عن العافية، مثل وجوه جنودهم.

وسار كوجوخ بقامته القصيرة، المسودة حتى العظام، والضامرة حتى العظام، ممزق الثياب مثل صعلوك، يحتذي حذاء مهلهلا، ويعتمر قرصا متهدل الاطراف متسخا ممزقا كان عبارة عن قبعة قش في زمن ما، سار بين المجموعة الاولى.

اقترب القادة، وتجمهروا بالقرب من العربة. صعد كوجوخ على العربة، ونزع حزمة القش عن رأسه ، وارسل نظرة طويلة الى صفوف جنوده الحديدية، والعربات المتناثرة بلا حصر فى السهب، والعدد الهائل من النازحين اليائسين الذين لا يملكون خيولا،

وصفوف القوات الرئيسة. كان هناك أمر مضعضع. وتململ ارتياح مخفي عميقا في صدره، مما قد لا يصارح نفسه به: «انهم فاسدون...»

صوب الجميع، حتى اخر رجل، انظارهم تجاهه. قال كوجوخ:

– ايها الرفاق!..

كان الجميع يعرف عم سيدور الحديث، الا ان شرارة سريعة تسللت اجساد الناظرين.

– ايها الرفاق، لقد سرنا مسافة خمسمائة فرسخ نعاني الجوع والبرد، سرنا حفاة عراة. لقد هاجمنا القوزاق مثل الوحوش. لم يكن لدينا لا خبز لا مؤونة، ولا علف. مات الناس جوعا وسقطوا على المنحدرات، سقطوا صرعى تحت رصاص الاعداء، نفدت ذخيرتنا، سرنا بلا سلاح...

ومع ان الجميع كان يعرف كل هذا، لانه قد ذاق المعاناة بنفسه، وكان يعرف ألآخرون من خلال احاديثهم الطويلة والكثيرة، مع ذلك سمع الجميع كلمات كوجوخ وتقبلها على نحو جديد لم يسبق له مثيل.

– ... تركنا اطفالنا يموتون في الشعاب...

وصدح صوت فوق رؤوس الجميع، فوق بحر الناس المترامى الأطراف، وانغرز في القلوب وارتجف:

– وا أسفاه، يا أطفالنا!..

وتماوج بحر الناس من أوله الى آخره.

– ... أطفالنا!.. أطفالنا!..

ارسل كوجوخ نظرات صارمة، أطرق هنيهة، ثم قال:

– وكم من ذوينا سقطوا برصاص الاعداء في السهوب، في الغابات، في الجبال، ورقدوا هناك الى الأبد!

حسرت جميع الرؤوس. وقفوا دقيقة صمت حدادا. وتناهى نحيب النساء في هذا الصمت معوضا عن الورود.

كان كوجوخ يقف مطأطىء الرأس، ثم رفع رأسه، ونظر الى هذه الآلاف المؤلفة من الناس، ومزق الصمت:

– من أجل أي شيء اذن تحمل الآلاف، عشرات الآلاف من الناس كل هذا العذاب؟ من أجل أي شيء؟!

مسح الجموع المحتشدة بناظريه وقال بغتة:

– من أجل شيء واحد: من أجل السلطة السوفييتة، لأن الفلاحين والعمال لا يملكون شيئا غيرها...

عندئذ اطلقت زفرة هائلة واحدة من كافة الصدور، وأصبح الأمر لا يطاق، وظهرت دموع شحيحة على الوجوه الحديدية، وسالت ببطء على وجوه المستقبلين الملفوحة بالشمس، على وجوه الشيوخ، وتلألأت عيون الفتيات غارقة بالدمع...

– ...من أجل سلطة العمال والفلاحين...

«هكذا اذن! لقد قاتلنا من أجل هذه السلطة، سقطنا، ضحينا بانفسنا، وباطفالنا!..»

بدا وكأن الناس فتحوا عيونهم على سعتها، وكأنهم سمعوا السر المخفي لاول مرة.

– اسمحوا لي، ايها الناس الطيبون ان اقول لكم! – صرخت غاربينا متمخطة بمرارة، منطلقة نحو العربة. متشبثة بالعجلات، بطرف العربة – اسمحوا لي...

– مهلا يا جدة غوربينا، دعي القائد يفرغ من كلامه، دعيه يتحدث، من ثم قولي ما عندك!..

– اياكم عني – تدافعت العجوز بمرفقيها وتسلقت العربة متشبثة بها... ليس بامكان المرء ان ينتزعها عنها.

وصرخت بشعرها الأشعث وعصبتها الحاسرة عن رأسها:

– انقذوني، ايها الناس الطيبون، انقذوني! لقد تركنا السماوار في البيت. كانت والدتي منحته اياى هدية في زواجي قائلة: «حافظي عليه مثلما تحافظين على حدقتي عينيك» بينما نحن تركناه. لا بأس، ليضع! ولتحيا سلطتنا، لتحيا عزيزتنا، لأننا تحملنا الصعاب والمشقات طيلة حياتنا، دون ان نعرف طعم السعادة... اما أولادي... أولادي...

وانتحبت العجوز ذارفة الدموع بعينيها الخابيتين، ربما من حزن لا يمحى ام من فرح غامض برق في ذهنها بحيث لم تدركه بنفسها.

ومن جديد زفر الناس بأسى وغبطة وتدفقت هذه الزفرة الى نهاية السهوب. وارتقى العجوز زوج غوربينا الى العربة متجهما صامتا. لكن لا أحد بمقدوره ان ينزل هذا العجوز الضخم المتشبع

جسمه قطرانا وترابا اسود. ذا اليدين الشبيهتين بحوافر الخيل، من على العربة.

ارتقى العجوز واندهش انه يقف عاليا، وسرعان ما نسي اندهاشه، وقال بصوت اجش مبحوح مثل صرير عربة غير مشحمة:

– يا للعجب! الحصان عجوز، لكنه كان يجر العربة جيدا. انتم تعرفون بأنفسكم ان الغجر يفهمون تماماً بالخيل. لقد فحصوه من جميع الجوانب: في حنكه وتحت ذيله، فقالوا ان عمره عشر سنوات، بينما عمره في الواقع ثلاث وعشرون سنة!.. سنه مقطرنة!..

ضحك العجوز، ضحك للمرة الاولى، ضيق عينيه بحيث ظهرت حولهما كثرة من التجاعيد، وضحك بمكر ضحك اطفال غير ملائم لسنواته، لقامته الضخمة الرمادية من التراب.

خفقت غوربينا بيديها على فخذيها مرتبكة:

– يا الهي، انظروا ايها الناس الطيبون. ربما تخبل! سكت دهراً كاملا، تزوجني احبني ساكتا، وضربني ساكتا أيضا، وهاهو ينطق الآن! ماذا يعني هذا؟ لعله تخبل!..

طرد العجوز التجاعيد عن وجهه فورا. وعبس حاجبيه المتهدلين، و صدح صوته الاجش، الشبيه بصرير عربة غير مدهنة، على امتداد السهب:

– ضربوا الحصان، فنفق!.. لقد ضاع كل ما كان في العربة. سرنا على الاقدام. سرنا ورمينا حتى عدة الحصان في طريقنا. تركت حرمتى في البيت السماوار وجميع الماشية فضاع كل شيء، اما انا فاقول بصراحة، كما لربنا تعالى – وزعق كثور: – لست متأسفا، ليكن... لانها سلطتنا الفلاحية... نحن لا شيء بدونها، نزخم مثل تلك الاجياف جنب السياج.. وذرف دمعا شحيحا كدمع الكلاب.

وتدفقت الموجة، بل العاصفة، من طرف الى طرف:

– هاها... هاها..! هذه السلطة هي عزمنا!.. هي سلطتنا الحقيقية! فلتحيا السلطة السوفييتية الى الأبد!..

من طرف الى آخر.

«أ هي ذي السعادة؟!» – لفح هذا السؤال المدهش اعماق كوجوخ، وتململت فكاه.

– «وها هو الأمر!..» ولفحت هذه الجملة، على حين بغتة، صدور الناس... النحيفين المرتدين اسمالا بالية والواقفين في صفوف حديدية – هو ذا الأمر الذي جعنا من اجله، و عانينا البرد، وتعذبنا، وليس من اجل انفسنا حسب!..»

والامهات يقفن بقلوب مكلومة، وعيون دامعة، انهن لن ينسين الشعاب الصخرية الجرداء، لن ينسين ابدا! لكن هذه الاماكن الرهيبة، الذكرى المفزعة عنها، تحولت الى حزن صامت، وكانت تجد مكانا لها ايضا في هذا الشيء الهائل المهيب الذي يحوم ساكنا فوق حشود الناس المترامية فى السهب.

اما اولئك الذين كانوا يقفون صفوفا كثيرة مكتسين وشبعين وجها لوجه للصفوف الحديدية من الناس العراة النحيفين فكانوا يحسون انفسهم منعزلين وسط هذا الاحتفال الذي لا سابق له، وتشتتوا، غير خجلين، من عيونهم الدامعة، واندفعوا تيارا عارما نحو العربة التي كان يقف عليها كوجوخ ممزق الثياب، النحيف الحافي تقريبا. وهدرت اصوات فى السهب حتى آخر أطرافه:

– يا ابانا!! خذنا حيث تشاء... ونحن سنتبعك حتى آخر قطرة من دمائنا!

آلاف الايادي امتدت نحوه، اخذته من العربة، ورفعته على الاكتاف، على الرؤوس وحملته. واهتز السهب على امتداد عشرات الفراسخ تحت هدير اصوات لا تعد ولاتحص:

– هورااا! هورااا! عاش قائدنا كوجوخ!..

حملوا كوجوخ الى هناك حيث كانت تقف الصفوف المنتظمة، حملوه الى هناك حيث كانت تقف المدافع، حملوه بين خيول الفصائل، وكان الفرسان يتلفتون نحوه، بوجوه متغيرة، مندهشة، وافواه فاغرة، وهم يصرخون بلا انقطاع.

– حملوه بين النازحين، بين العربات، ومدت الامهات اطفالهن نحوه.

عادوا به ووضعوه بحذر على العربة من جديد. فتح كوجوخ فمه ليتحدث، فانذهل الجميع، وكأنهم يرونه للمرة الاولى:

«ان عينيه زرقاوان!»

كلا، لم يصرخوا هكذا، لانهم لم يكونوا يجيدون صياغة مشاعرهم في كلمات، بينما كانت عيناه بالفعل زرقاوين، حنونين، مبتسمتين مثلما تبتسم عيون الاطفال. لم يصرخوا هكذا، بل صرخوا وكأنهم يرونه لاول مرة:

– عاش قائدنا!... ليحيا!... وسنتبعه حتى الى جهنم... سنقاتل من اجل السلطة السوفييتية. سنقاتل السادة والجنرالات والضباط...

بينما كان كوجوخ يحدق فيهم بحنان بعينين زرقاوين، و قلبه يحترق كالجمر:

«ليس عندي لا أب، لا ام، لا زوجة، لا اخوان، لا اقارب، ولا أهل، ليس عندي غير هؤلاء، الذين انقذتهم من الموت... انا... انا أنقذتهم.. بينما امثال هؤلاء ملايين، ويخيم الموت فوق رؤوسهم، وسأناضل من اجلهم. هنا ابي، وبيتي، وامي، وزوجتي، واطفالي... انا انقذت آلاف، بل عشرات الآلاف من الناس من الموت... انقذتهم من الموت فى وضع عصيب...»

كانت النار تلفح قلبه ، بينما تنطق شفتاه:

– ايها الرفاق!

لكنه لم يفلح ان يقول شيئا، فقد انطلقت حشود البحارة متدافعة في اليمين واليسار، ولاحت القبعات المدورة في كل مكان، وتراقصت شرائطها. وراحت حشود البحارة تقترب اكثر فاكثر من العربة متدافعة بمرافقها.

نظر كوجوخ الى البحارة هادئا بعينين اصبحتا رماديتين لامعتين كالفولاذ، وبوجه صارم و فكين مطبقين.

ولم تعد الا صفوفا قليلة من الجنود تفصلهم عنه. لقد ملأ البحارة كل مكان فيما حواليه ، فاينما نظر المرء لا يرى الا القبعات المدورة، والشرائط المتراقصة، وراحت العربة التى يقف عليها كوجوخ تتعتم مثل جزيرة فى المغيب.

امسك بحار ضخم الجثة، عريض الكتفين مدجج بالقنابل حاملا

مسدسين، وشرائط رصاص، امسك يديه بالعربة. مالت العربة وتفرقعت. صعد اليها ووقف الى جانب كوجوخ، نزع قبعته المدورة، ولوح بشريطيها، وصرخ بصوته الاجش الذي كان يحس فيه المرء رياح البحر، وسعته المالحة، و بسالة، ثمالة وحياة فاسقة وصرخ بصوته الذي صدح في ارجاء السهب:

— ايها الرفاق!.. ها نحن البحارة، الثوريين نقدم اعتذارنا. نحن مذنبون امام كوجوخ واماكم. ولقد سببنا له مشاق كثيرة بينما كان هو ينقذ الشعب. باختصار لقد أسأنا اليه، ولم نساعده، انتقدناه، اما الآن فنرى اننا قد اخطأنا في تصرفنا. وباسم البحارة كافة الذين اجتمعوا هنا ننحني اجلالا امام كوجوخ، ونقول من قلوبنا: «نحن مذنبون فلا تؤاخذنا».

وبمثل نفس الاصوات البحرية المشبعة بالملح صاحت حشود البحارة المتآخية:

— نحن مذنبون ايها الرفيق كوجوخ، مذنبون، فلا تؤاخذنا.

انتزعته مئات الايادي القوية من العربة وراحت ترفعه الى اعلى. كان كوجوخ يطير عاليا ويهبط، ويختفي بين الايادي، ثم يطير من جديد، ويدور في رأسه السهب والسماء والناس.

«وقعت بأيديهم، سيقلبون احشائي، ذرية الكلاب!»

وكانت الاصوات تهدر هازة السهب من بدايته وحتى نهايته:

— هورا!!! عاش قائدنا!..

ترنح كوجوخ قليلا حين وضعوه من جديد على العربة، وضاقت عيناه الزرقاوان، وراح يبتسم ابتسامة ماكرة:

«لقد برروا انفسهم، الكلاب السائبة! اما لو وقعت في اياديهم في مكان آخر لسلخوا جلدي...»

وقال كوجوخ بصوته الحديدي الصديء بعض الشيء:

— ما قات مات.

— هاها... ! قهه.. قهه... ! هور ا ا !..

ينتظر الكثير من الخطباء دورهم. وكل يضمن خطبه ما هو اهم، ما هو ضروري، ومهم، واذا لم يعبر عن كل شيء، فسيتهاوى الوضع القائم ويتداعى. اما حشود الناس فتسمع. يسمع اولئك الذين انسكبوا على نحو كثيف حول العربة. اما الذين يقفون ابعد

فلا يسمعون الا نتفاً من الخطب - بينما لا يسمع الواقفون في الاطراف شيئا. الا ان الجميع يصيخون السمع بشغف واحد. تضع النساء حلمات اثدائهن الفارغة في افواه الاطفال، أو يهززنهم مطبطبات على ظهورهم مشرئبات باعناقهن، ناصبات آذانهن جانبا.

ومن الملفت، انهن، على الرغم من عدم سماعهن، أو التقاطهن لنتف من الاحاديث، فانهن في آخر المطاف يعرفن مغزى كل حديث:

- هل سمعت، لقد وصل التشيك الى موسكو نفسها، ولقد ادموا لهم هناك ابوازهم. ففروا الى سيبيريا.

- لقد رفع السادة رؤوسهم من جديد وراحوا يطالبون بالارض...

- لن نعطيهم أرضا حتى لو نبتت شجرة في رأس كل واحد منهم.

- هل سمعت، يا باناسيوك: ثمة في روسيا جيش احمر.

- اي جيش؟

- أحمر. سراويل الجنود حمراء، قمصانهم حمراء، قبعاتهم ايضا حمراء، انهم حمر من الامام و من الخلف، حمر تماما مثل سرطان مغلي.

- كفاك كذبا.

- بحق السماوات. لقد قال ذلك الخطيب الآن.

- لقد سمعت أنا أيضا. ليس ثمة من جنود، الجميع يسمون بالعساكر الحمر.

- لعلهم سيعطوننا سراويل حمر أيضا؟

- يقال ان النظام صارم لديهم.

- هل هناك صرامة اكثر من هذه. ما أن اراد القائد ان يعنف بنا الا وانصاع الجميع طائعين. انظر كيف تسير الجنود صفوفا مستقيمة. وحين اجتزنا الستانيتسات لم يئن احد ولا بكى بسبب تصرفنا.

يتبادل الناس الكلام متلقفين نتفاً من احاديث الخطباء، دون ان يتمكنوا من التعبير عن افكارهم، لكنهم كانوا يشعرون رغم ان سهوبا شاسعة الارجاء، وجبالا صعبة الاجتياز، وغابات كثيفة، كانت تفصلهم عن روسيا، انهم قاموا بعمل ايضا، ولوكان هذا العمل اقل

بما لايقاس من ذلك الذي حدث هناك في روسيا، وعلى المستوى العالمي لقد قام بمثل هذا العمل هنا اناس جياع، عراة، حفاة، بلا وسائل مادية، بلا اي مساعدة، بعرق جباههم، كانوا لا يفهمون ذلك، الا انهم يشعرون به ، دون ان يتمكنوا من التعبير عنه .

تحدث الخطباء واحدا بعد آخر حتى المساء الازرق. وطالما كانوا يتحدثون كانت السعادة غير المستوعبة تغمر الجميع اكثر فاكثر سعادة الوحدة مع ذلك الشيء الهائل الذي يعرفونه و لا يعرفونه ، والذي يسمى «روسيا السوفييتية».

تلمع المواقد التى لا تعد ولاتحصى فى الظلمة، ويتلألأ فوقها عدد هائل ايضا من النجوم.

يتصاعد دخان مستنير رويداً رويداً. الجنود المتسربلون اسمالا بالية، وكذا النساء والشيوخ والاطفال يجلسون حول المواقد، منهكين من التعب.

مثلما تضيع اثار الدخان في السماء المزركشة بالنجوم هكذا تخمد فوق رؤوس هذا الحشد الهائل من الناس ثورة السعادة المرهفة وتتحول الى تعب لايدرك. في هذا الظلام الوديع، في لمعان نيران المواقد، فى هذا البحر المترامى الاطراف من الناس، تخبأ ابتسامة رقيقة – ويسربل النوم الجفرن.

تخبو المواقد. يرين الصمت. والليل يغدو ازرق.

عام ١٩٢٤

القراء المحترمون!

اننا نكون شاكرين لكم اذا تفضلتم وابديتم لنا ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته وشكل عرضه وطباعته واعربتم لنا عن رغبتكم.

ونأمل ان تساعدكم نتاجات كتاب الأدب الروسي والسوفييتي المترجمة الى اللغة العربية في التعمق والالمام بالثقافة والحياة الاجتماعية لشعوب الاتحاد السوفييتي.

عنواننا: المركز ١٤ العمارة ٣٣
طشقند – الاتحاد السوفييتي.
دار «رادوغا» – فرع طشقند

А. СЕРАФИМОВИЧ

ЖЕЛЕЗНЫЙ ПОТОК

Роман

На арабском языке

Перевод АЛЬ-МАЛЕХА СААДИ

حول رواية «السيل الحديدي».

يعتبر الكسندر سيرافيموفيتش (١٨٦٣ – ١٩٤٩) أحد كلاسيكي الأدب السوفييتي ومؤسسيه.

بدأ نشاط سيرافيموفيتش الأدبي في التسعينات من القرن المنصرم. وكان كاتبا ديموقراطيا يصور على نحو ساطع بقصصه الطويلة والقصيرة الحياة الشاقة للعمال والفلاحين.

لقد قدر ليف تولستوي النتاجات الاولى لسيرافيموفيتش تقديرا عاليا. وحين اصبح الكاتب معروفا قال فيه ف. كورولينكو: «له لغة رائعة، معبرة، مختصرة وقوية، ووصف غض واضح...» وأكد ف. ا. لينين في رسالته الى الكاتب في عام ١٩٢٠: « ان الطبقة العاملة، ونحن جميعا بأمس الحاجة الى نتاجك».

تستمد رواية «السيل الحديدي» مادتها من احداث واقعية للحرب الأهلية مصورة المسيرة البطولية لجيش تامان الذي اخترق حصار الاعداء.

«تناولت جماهير فوضوية غير منصاعة، ومستعدة كل لحظة لتمزيق قادتها بالحراب. وأوصلت هذه الجماهير، خلال المعاناة، خلال العذاب الى النهاية، الى تلك اللحظة التي شعروا فيها انهم منظمون بقوة ثورة اكتوبر»، – هكذا كتب سيرافيموفيتش نفسه عن روايته.

جلبت رواية «السيل الحديدي» للكاتب شهرة عالمية، وهي مترجمة الى الكثير من اللغات.



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

الكسندر سيرافيموفيتش

السيل الحديدي




Exclusive
For
www.ibtesama.com